محمد سعدون السباهي

كوكب المسرات

سيرة ذاتية من يوميات سجين



كوكب المسرات

سيرة ذاتية من يوميات سجين

محمد سعدون السباهي

كوكب المسرات

سيرة ذاتية من يوميات سجين



دار آراس للطباعة والنشر

اربيل – اقليم كردستان العراق

دار آراس للطباعة والنشر
شارع جولان – اربيل
اقليم كردستان العراق
البريد الاكتروني aras@araspress.com
الموقع على الانترنيت www.araspublishers.com
الهاتف: 35 49 224 66 (0) 00964
تأسست دار آراس في (٢٨) تشرين (٢) ١٩٩٨

محمد سعدون السباهي
كوكب المسرات – سيرة ذاتية من يوميات سجين
منشورات آراس رقم: ١١٩٨
الطبعة الأولى ٢٠١١
كمية الطبع: ١٠٠٠ نسخة
مطبعة آراس – اربيل
رقم الإيداع في المديرية العامة للمكتبات العامة ١١٨٤ – ٢٠١١
الاخراج الداخلي: كارزان عبدالحميد
الغلاف: آراس أكرم
التصحيح: أوميد أحمد البناء

الإهداء

الـــى... زوجتي

وأصغر الأبناء (أنس) الشجاعين اللذين بواسطتهما هرّبتُ مسودات فصول هذه الرّواية، حينما كانا يقومان بزيارتي في سجن أبي غريب الرهيب.

تـوطـئـة

أحقاً أنني رأيتُ كُلَّ الذي رأيته،

وسمعتُ كُلَّ الذي سمعتُه،

وقرأتُ كُلَّ الذي قرأتُه

خلال حقبة الرعاع الملعونين،

ومع هذا لم ينفجر قلبي،

ولم أُصب بالجنون؟

إذن، يا لي مِنْ.....!.

المؤلف

الفصل الأول

المحاكمة إلى كافكا

عبر جلسة محاكمة لم تزد على العشره دقائق، وفق أجواء تذكر بتلك التي تحصل عادةً في مسرحيات المجنون (جان كوكتو) حيثُ يختلط المعقول باللامعقول، الخيال في الحقيقة، الكوميديا بالتراجيديا، أبطالها خليط عجيب، وغير متجانس من قضاة ومحامين وشهود ومدّعين، ومدّعى عليهم، من رجال ونساء وأطفال أيضاً، تكتظ بهم بناية المحكمة على ضخامتها الى أقصاها، ولأن البناية من دون فناء داخلي، غرف، فقط وممرات ضيقة وقصيرة ومنخفضة وشبه مظلمة، لذا تكوّم جمهور الحضور، سواءٌ جالسين على البلاط القذر، أو مقرفصين، يثرثرون، ويدخنون من دون انقطاع، ويسعلون ويبصقون بين أقدامهم، ويتشاجرون وهم يرمون بعضهم بالكلام الخشن الجارح، أو يتكئون على الجدران، أما من لم يجدوا مكاناً، فقد تجمهروا على السلالم، أو خارج البناية، عند بوابتها الرئيسة، أو أمام مكاتب تحرير الشكاوى والالتماسات، والاستنساخ وبيع الطوابع، وقد إزداد اللغط، وازدادت المماحكات، وفي كل لحظة يرتفع صوت ما مستنكراً، أو مهدداً، أو متوعداً خصمه بأشنع العقاب، فيرد عليه الآخر بدوره بلهجة أقسى، ووعيد أشد..

ولأن العراقيين على وجه العموم لا يجيدون لغة الحوار الهادئ البنّاء في حسم منازعاتهم التي في معظمها، بسيطة، وسفيهة، وسخيفة أيضاً، منازعات المجتمعات الزراعية، لذا تراهم يعمدون، بعد حوارات متشنجة، قصيرة، ومرتبكة الى استعمال أيديهم، المحامون وحدهم يبدون وسط المشهد المضطرم، منتعشين، أنيقين، ومعطرين، ومرفوعيّ الهام، يحمل كل واحد منهم على ذراعه، رداء المحاماة الأسود المكوى، وباليد الأخرى، حقائب أنيقة من النوع المسمى (بالدبلوماسية) وهم من دون دبلوماسية غير دبلوماسية كسب الدعاوى، بأي طريقة ممكنة، قانونية أم غير قانونية، فرحهم واضح، وسعادتهم كبيرة لما يدور في الشوارع ومحلات العمل، والبيوت من خلافات ما عاد أحد بقادر على إحصائها، فضلاً عن فرزها، يجعلهم مطمئنين على حاضر ومستقبل مهنتهم الكاسدة، وقد أصبحت، دجاجة تبيض ذهباً كما يقول المثل..

ذلك أنه مثلما تزدهر في الحروب مهن المكفنين وحفاريّ القبور، والمزورين،

والقوالات، ونجاري التوابيت، ونقاشي الشواهد المرمرية، فضلاً عن مؤجري خيام العزاء، وأواني الطعام، وعمال توزيع القهوة والسجاير والماء على جمهور المعزّين وغير ذلك، تبرز على نحو واضح، في الظروف العامة المضطربة، مهن أخرى لعل في مقدمتها مهنة المحاماة، والقضاة، والمستعدين لتقديم شهادات الزور مقابل أجر معين، وهكذا، وهكذا.

كانت أصوات المنادين على أصحاب الدعاوى، ومحاميهم، ووكلائهم، وشهودهم تتردد في الممرات بطريقة منغمّة، تدعو الى الضحك أكثر مما تدعو الى شيء آخر، فيهب المنادى عليهم من أماكنهم كالمضروبين فجأة على رؤوسهم، وقد أطفأوا سجائرهم بسرعة تحت أقدامهم، وأصفرت وجوههم، وتيبست أفواههم، وتشنجت مفاصل أرجلهم، البريء منهم، والمذنب على حد سواء..

وضعوني داخل قفص الاتهام، كان قفصاً والحقُ يقال، أنيقاً من الخشب الصقيل وليس كتلك الأقفاص المخيفة التي تطالعنا في أفلام السينما، او المسلسلات التلفازية: سود متجهمة ضيقة ومن الحديد المتين. وثمة شرطي شاب يسد بابه بجسده خيفة أن أهرب، على الرغم من أنني حضرت مبكراً، في يوم المرافعة، بمجرد إبلاغي رسمياً، وإن تهمتي من تلك التهم الجنائية البسيطة التي يمكن أن تحدث في أية لحظة لمن يقود سيارته ليلاً، في أي مدينة مشابهة لمدينة مثل بغداد حيث الشوارع شبه محروثة، والاضاءة رديئة أو معدومة، وتقاطعات المرور بدائية وخدمات أخرى ضرورية معدومة، قياساً الى زخم العربات العتيقة الهائل، بمعنى: حادث مرور..

بعد أن أدلى الجميع بما لديهم من اقوال صحيحة وأخرى ملفقة، كان خلالها ما يسمى بالمدعي العام، وهو رجل قصير، شديد السمرة، حتى لتحسبنه من فقراء الهنود، يتلعثم في كلامه، بسحنة أشبه بسحنة الطرشان، عرفتُ فيما بعد انه مصاب بمرض نفسي، علّه الكآبة راح يوجه من دون حماس بعضاً من الأسئلة التقليدية، بحيادية تقرب الى اللامبالاة المطلقة، وكان أكثر ما في المشهد إنفعالاً محامي المدعي، وهو رجل في الستين، وقد دفعته شدة إنفعاله واضطرابه، وقد أضاع مفتاح حقيبته (الدبلوماسية) الى كسر قفليّ الحقيبة بعد أن عمد الى ضربها بالأرض، من زاويتيها الاماميتين، بشدة مرات عديدة، وأخرج رداء المحاماة، واختتم مرافعته المطوّلة المكتوبة، التي ألقاها بصوتٍ مضطرب، وفم يتناثر اللُعاب منه على نحو مقرف، ولغة

ركيكة مليئة، شأن معظم المحامين، بالأخطاء النحوية، التي قد لا يفوت معظمها على طالب الدراسة المتوسطة، إختتمها بالمطالبة:

[بضرورة إنزال أقصى العقوبات بحق المتهم..]

كان عدائياً لدرجة لو أن القاضي أصدر بحقي عقوبة الأعدام، لما رفّت له شعرة واحدة من تلك الشعيرات البيض القليلة التي تحيط برأسه الأصلع الصغير المتغضّن على نحو يدعو الى الرثاء، حزناً أو أسفاً!

لماذا يصرُّ المحامون، كافة المحامين على خلط الأوراق، من أجل كسب الدعوى؟ كنتُ أتساءل داخل قفصي الأنيق، بتقزز لما أرى وأسمع، وكان ينتابني شعور غريب مفاده: أن لا شيء يستحق مني الأسف، أو الندم، بل لم يخالطني غير شعور النفور لما يدور أمامي، ومن ثم كنتُ أود أن ينتهي القاضي من هذه المسرحية البليدة، وينطق بالحكم، لأعتزل هذا المجتمع الذي يسمونه: مجتمع الأسوياء، الى مجتمع آخر، على الرغم من تسميته المثيرة للأسى، إذ يطلقون عليه لقب: مجتمع المنحرفين!

حسناً، كنتُ أرددُ مع نفسي، ليعجّلوا بإرسالي الى ذلك المجتمع المعزولين أفراده بغية إصلاحي(!؟) من خلال عالمه المطوّق بالحيطان العالية السميكة، والحرمان من أبسط أنواع الرغبات الانسانية، والاقصاء، والتهديد المستمر بالعقوبات الانضباطية فقد كنت واثقاً أنني سأجد فيه مَن هُم على فداحة جرائمهم، أكثر نبلاً وفروسية وتوازناً نفسياً وأخلاقياً، من هذا المحامي العجوز الأصلع، شبه المعتوه، ومن المدعي العام بخموله المرضي، ووجهه الفأري غير الحليق، وملابسه المهملة وكأنه نام فيها شهراً! بينما يجلس القاضي بأبهة عزرائيل، يملي على كاتبة المحضر، بأُمية مريعة، ما يبدر مني ومن الآخرين من كلام، حتى انه يقوم (بترجمة) ما أقوله من كلام بالفصحى، الى العامية، وهو يرمقني بغضب لأنني أكشف عقدته اللغوية..

هذا القاضي وأمثاله ممن ولدوا، وهم يحملون بالوراثة، حساسية سلبية تجاه الأدب لن يستطيعوا، بطبيعة الحال، أن يقدموا أفكارهم في كلام عربي فصيح، مما يترتب على ذلك أن تجيء مطالعاتهم أشبه بالألغاز مضحكة ومبتسرة وغير مفهومة..

أما وكيلي فكان محامياً شاباً في بداية عهده بممارسة مثل هذه المهنة الذئبية، تنقصه كذلك الجرأة والشجاعة والفصاحة والثقة بالنفس لطعن الكثير من الأقوال التي حشدوها ضدي، والتي كانت في معظمها عبارة عن أقوال من السهل أختراقها، جاءني

به، محام أكثر مراساً في الأمر، لكنه على ما يبدو لم يقم بالمهمة بنفسه على الرغم من علاقتي الجيدة به، ولعل السبب الرئيس، انه كان يعلم، أنني غير قادر على دفع أتعاب المحاماة. فالمحاماة كما ذكرت، مهنة تنشط بصورة طردية رائعة، وفقاً لمبدأ الدفع، وكلما جاء الدفع دسماً ونقداً، جاءت النتائج أفضل..

عليه فلا غرابة على الاطلاق، إن أنا وجدتُ نفسي وحيداً أعزل، أتفرج على مصيري الذي بات ميؤساً منه، وكأن الأمر يعود الى شخص آخر سواي، ولا أملك الاّ أن ألعن سراً مجموعةً من المصادفات العمياء التي صارت تطوقني من دون إنفكاك، وألعن كذلك الوقت الطويل، ربما أكثر من شهر، الذي بذرته وأنا بإنتظار عودة ما يسمى برئيس إتحاد الأدباء والكتاب، الذي كان يعدني كلما أتصلت به هاتفياً، في بيته في مدينة الموصل من انه سيعود قريباً [أما مساء اليوم، أو بكرى صباحاً..] على حد قوله، ويذهب يطمئنني من أنه سوف يتدخل لدى معارفه من المسؤولين في وزارتي العدل، والثقافة والاعلام، لكن من دون جدوى، فالرجل مشغول، على ما يبدو شأن الآخرين، لم لا؟ بتهيئة نقل أسرته من الموصل الى بغداد، بعد أن منحته (الجهات العليا) مسكناً فارهاً في واحدة من أرقى أحياء بغداد، ومبلغ مليون دينار (لترتيب أوضاعه) ومن ثم فليس أمامي من حيلة غير أن أسلم أمري للرب، كلا. بل لهؤلاء الثلاثة الذين أراهم الآن غارقين بتجريمي، مع سبق الاصرار! عموماً، بعدها رُفعتْ الجلسة، خرج الجميع الى الممر، وأختلى القاضي بالمدعي العام الأطرش، وبمدوّنة الأقوال، وكنتُ قد شاهدتها، في مكتب القاضي وهي تتحدث مع زوجة المدعي همساً، وحين دخلتُ الى المكتب لأخبر موظفة الدعاوى بحضوري، راحتا تنظران نحوي بعيون عدائية، تتهامسان وتضحكان على نحو مريب، ومن تلك اللحظة أيقنتُ أنني سأسجن لا محالة حتى لو ترافع لصالحي مجموعةٌ من أشهر محامي العالم!

دقائق قليلة ونودي علينا من جديد ولمحتهم وقد وضعوا على وجوههم أقنعة تنم عن أسف زائف، وبراءة كاذبة، وحيادية مطعون في صحتها.

بعد مقدمة قصيرة وبليدة، أطلق عليَّ من دون أن ترف عضلة صغيرة في وجهه اللحيم، تسع طلقات، ذهبن بكل ما تبقى لدي من ثقة بالانسان، حيث أعادتني الى قناعتي الراسخة من أن الانسان يظل في أعماقه، قرداً بائساً، مهما أحاط نفسه بمظاهر حضارية كاذبة ملفّقة:–

[لقد حكمت المحكمة على المتهم محمد سعدون لفته حسين السباهي، بالحبس البسيط لمدة تسعة أشهر، وفق المادة، ٢٤، مرور، حضورياً، وأفهم علناً..] تسعة شهور، هكذا دفعةً واحدة، تساءلت في رعب عظيم، والمدعي واقف معنا في صحة جيدة أين منها صحتي المهدومة؟

يعني سوف أمضي الشتاء بأكمله، وكذلك صيف السنة القادمة، وتخيّلت كيف سيكون وقع النبأ فظيعاً على أطفالي في هذا الظرف الأسود، بل تذكرت أيضاً، يالبراءتي، إنني سوف أتغيب عن حضور فعاليات مهرجان المربد الذي سيقام بعد أيام قليلة من دون أن أرى أصدقائي من الأدباء الذين سيحضرون المهرجان من محافظاتهم البعيدة للإلتقاء بأصدقائهم، أكثر مما يحضرون بدافع الاستماع الى (القصائد العصماء!) التي يتشاجر من أجل إلقائها بعضٌ من شعراء هذا الزمن الرديئ..

فجأة انفجرت في داخلي حمى الكفاح، فحاولت أن أتدخل لدى القاضي الذي رمى بملف قضيتي عند الزاوية البعيدة من مكتبه، وتهيأ لملف جديد، وقد فاتني جهلي بالمحاكم وعوالمها إذ أنها ما أن تصدر حكمها حتى يصار الى تنفيذه على الفور، ومن هناك، من السجن يمكنني أن أستأنف الدعوى، كما عوى الأصم الأبكم ذو الوجه الفأري..

وفاتني كذلك إن القاضي يعيش، وقد ربطت ما تسمى بالعدالة عينيه، ورفعت الميزان يمناه، وشهرت يسراه السيف، فهو يقاضي بين الناس بصفته هذه: آلهة من آلهات عدالة الرب، أو عدالة السلطة، يقاضي من دون أن يرى شيئاً، أو يسمع شيئاً، وإن هذا القاضي يجب أن يشعر على الدوام، واينما شاء، إنه حُرٌّ طليق، وأن جميع الاتجاهات والطرقات مفتوحة أمامه ليمشي بخطى النمر، ولذا كانت إستفساراتي، وتوسلاتي، وعرضي لموقفي كأديب يُعرف بصائد الجوائز الأدبية، كل ذلك ظلّ يقابل بالمزيد من الابتسامات المقتضبة الساخرة، والضحك المكتوم..

وأقتادني الشرطي الى غرفة صغيرة وقذرة، سأنزل ضيفاً في القادم من الأيام في غُرف أشد ضيقاً وأكثر قذارة، دفعني اليها، وهو يبتسم وقفل ورائي الباب الحديد الصدئ، وكنتُ وأنا أغادر قاعة المرافعات قد شاهدتُ المحامي العجوز يتبادل القُبلات مع عبارات التهنئة مع موكله ومن حضر من أقاربه، وكان مسروراً مثل قائد عسكري إحتل مدينة مسالمة وأطلق أسراب جنوده ليعيثوا فيها فساداً.

الفصـل الثـانـي

باتجاه مدينـة الظُلمات

١

القوة الاجرائية لمعاونية.. حي صدام، مثلما تركتها قبل سنة ونصف، الفوضى ذاتها، الشراسة ذاتها، الرشوة ذاتها، وهي إنطباعات قويّة تشكلت لديّ يوم رموني في غرفة التوقيف أول مرة، أكثر من اسبوعين، والتهمة ذاتها، إذ داهموني وعائلتي ويصحبتهم مختار محلة/ حي الجهاد، في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل.

حين حاولت ساعتها أن استوضح الأمر من قبل آمر المفرزة، وهو شاب برتبة مفوض، تدخل المختار، وقال في عُجالة ونبرة تهديدية:

"- هات فراشك، وتعال معنا من دون مشاكل".

"- أنا من يخلق المشاكل أم أنتم؟ لماذا لم تبلغوني رسمياً بتهمتي؟"

إنتهرني المفوض وسحبني وطية فراشي البسيطة التي هيأتها زوجتي على عجل:بساط صوف وبطانية ووسادة، الى خارج المنزل حيث كانت سيارة أجرة بانتظارنا، حاولت زوجتي أن تتدخل، فأسكتها المختار بإشارة قاطعة من يديه معاً، وأمرها بالدخول الى المنزل، وإن صوتها يمكن أن يوقظ الجيران، وقلت بداخلي في غضب: أهو حريص على راحة الجيران أم التستر على جريمة إختطاف رجل من بيته في منتصف الليل؟

وحمدت الله فقد كان أطفالي نياماً، فلم يروعهم مشهد أبيهم وهو يساق أعزلاً الى المجهول!.

هناك (خيّسوني) كما يحلو لهم ترديد هذه الكلمة دائماً من دون أن يفهموا دلالتها الوحشية.

وحيثما إلتقيت بواحد من أفراد القوّة الإجرائية يبادرك ليشحذ منكَ من دون خجل السجائر والنقود، ويقتسم الطعام الذي يجلبه ذووك على قلته وفقره. ردهة الموقف التي بمساحة ٤ × ٤م إزدادت سوءاً على سوء، إذ المرافق الصحية مفتوحة على الردهة،

والساحة المستطيلة الصغيرة التي تقع ضمن مساحة المرافق الصحية مليئة بالنفايات وأحذية الموقوفين، تستخدم بمثابة حمام في الوقت ذاته. بل أن إحدى الحنفيتين مازالت معطوبة كما تركتها قبل سنة ونصف تسكب الماء بغزارة في فتحة المرحاض، وعلى الحيطان علّق الموقوفون صررهم وأكياس الأطعمة وملابسهم أيضاً، وكان البردُ شديداً الأمر الذي أدى الى إصابتي باضطرابات معوية، إبتعتُ من أحد الحراس قرصيّ (لوميتال) مقابل مئتين وخمسين ديناراً.

في المرة الأولى حين أُطلق سراحي بكفالة، خرجت مصاباً بمرض الجرب، وسوء التغذية والزكام.

لو لم ينصحني مفوض شرطة، من أهالي الناصرية تعاطف معي حين علم بمكان مسقط رأسي بضرورة حثّ الصديق الروائي الكردي الرائع خسرو الجاف بالكف عن زيارتي، لأنه اذا ما ظل على شهامته يزورني هو والصديق العزيز الصحفي مؤيد عبد القادر وهما محملان بالأطعمة، ومنح الحراس النقود، فضلاً عن مظهر الجاف الذي يدل على الثراء، وسيارته الفارهة نوع (لنكولن) إذا ما ظلاّ يزورانني، صباح مساء فلن يطلقوا سراحي، إذ هل يمكن إطلاق سراح دجاجة تبيض ذهباً؟ قالها المفوض غامزاً وهو يضحك!. وهذا ما حصل حقاً!.

إلتقيت المفوض نفسه بعد إطلاق سراحي بأيام فعرض عليّ فكرة تسليمي، خفية طبعاً ملف الدعوى [لأتصرف به كما أشاء] على حد قوله مقابل مبلغ ثلاثين ألف دينار– أقل من ١٥ دولاراً– ولأنني لم أكن يومها أملك ربع هذا المبلغ على تفاهته، أبديتُ له شكري واعتذاري لأريحيته، ووعدته بالاتصال به في وقت قريب، تجنباً للإحراج– إحراجي؟ أم إحراجه؟ وتركته ورحت أجري وأنا ألطم وجهي بكفي في قسوة، وأنتحب بصوت كان يتوقف من جرائه بعض المارة، معتقدين أنني مجنون، كنت أنتحب وأوبخ نفسي بصوت مسموع:

-[كيف، وبأيّ حق أمضيتُ ثلاثين عاماً بين الكتب، والوظيفة البائسة، وها أنني انتهيتُ في زمن تتسيد فيه الثعالب على مقاليد إقتصاد العراق الى شبه متسول؟ كيف! وكيف يمكن العبث على هذا النحو الصبياني في دعاوى المحاكم؟ يا إلهي ساعدني كي أهرب ببقايا جلدي من هذا الماخور!..]

حين أدخلوني الى الموقف كانت الساعة تشير الى الواحدة بعد الظهر، كان بداخله

ستة عشر موقوفاً، وحين إنتصف الليل، صار العدد سبعة وثلاثين. التهمُ في معظمها: مشاجرات، سرقات، قضايا مالية خصوصاً: صكوك من دون أرصدة، ديون لم تُسدد، زوجات شكَوْن إزواجهن بدعوى إصرارهم على إحتساء الخمرة في الوقت الذي قصّروا في واجباتهم الاقتصادية أزاء أطفالهم.

الموقوفون يأكلون بشهية عجيبة، ينكّتون ويضحكون، ويغنون أيضاً بأصوات خفيضة، ويتشاجرون لأتفه الأسباب، وكل هذا برأيي لا تفسير له غير تفسير واحد: القلق مما ينتظرهم من مصائر مجهولة.

في منتصف نهار اليوم التالي جاء من يأمرني التهيؤ لإرسالي الى (تسفيرات الشعب) هكذا يطلقون التسمية على تسفيرات الرصافة المركزية، لا لشيء سوى كونها تقع بالقرب من ملعب الشعب الدولي، والتي هي من دون شك أسوأ تسفيرات في العالم، وأكبرها على الاطلاق.

حين أصدر القاضي يوم أمس حكمه بحقي، أودعوني لدى مفوض محكمة البيّاع ليرتب مسألة إرسالي الى معاونية شرطة/ حي صدام، لترسلني بدورها الى السجن . مفوض المحكمة الذي يؤسفني عدم تذكر أسمه، فقط أتذكر أنه كان بشوشاً، يميل الى السمنة قليلاً، أحضر المدعي ومحاميه وإتخذ كأي إنسان نبيل لم يلَوث بعد على ما بدا ليّ كالحال عند العديد من أقرانه موقف الوسيط بيني وبينهما وإن ظلت زوجة المدعي وهي شابة في الثلاثين جميلة، وسليطة اللسان تحاول إبطالها.

وبعد أخذ ورد طويلين مجهدين، حصلت المصالحة، تنازلت على أثرها للمدعي عن سيارتي الخاصة التي كنت أقودها وقت الحادث، وأعطيته كذلك وصلاً بمبلغ ربع مليون دينار– ١٥٠ دولارا أمريكيا تقريباً– يصرفُ حال إلغاء الحكم وإطلاق سراحي الذي كان من المؤمل أن يحصل في اليوم نفسه.

من أين لي دفع مثل هذا المبلغ الجسيم؟ لا أدري! فقط كنتُ أتشبث بالأمل، وبكل ما من شأنه أن يبعدني عن شبح السجن المخيف ولو الى حين.

وعلى وجه السرعة رتبنا طلب الصلح والتنازل وأسرعنا به الى القاضي، الذي أصرَّ، ويقلب من حصاة، قائلاً: [لا فائدة: إستأنفوا الأمر، وسنرى..] وهكذا أطفأ الحاكم بجلافة مريعة آخر ذبالة مصباح أمل أمام وجهي الممتقع. كي يوصلوني الى التسفيرات طلبوا مني مبلغ ألف ومائتي دينار، أجرة السيارة التي ستقلني وعددا من

أفراد الشرطة الى هناك، مع ضمان عودتهم الى مكان عملهم ولأنني لا أملك سوى ثلث المبلغ، جمعوا المتبقي من الموقوفين، وهي طريقة يعمدون إليها دائماً في مثل تلك الحالات، وعلى مستوى العراق كافة، وذلك بعد سلسلة طويلة من السُباب البذئ والتهديد بالضرب وعدم السماح لذوي من يمتنع عن الدفع بالزيارة، طالتني طبعاً تلك الشتائم والنعوت الصفيقة على الرغم من معرفتهم الأكيدة انني عضو في إتحاد الأدباء، ونقابة الصحفيين، فضلاً عن تهمتي التي هي على أية حال ليست بالتهمة المخلة بالشرف، على حد تعبير المُشرع القانوني.

أصعدوني الى السيارة بعد أن كانوا قد وضعوا معصمي داخل الأصفاد الحديد الأمر الذي ذكرني ببطل إحدى قصصي الفاجعة: رسالة متوحشة– الغريب أن معظم المصائر التي ينتهي إليها أبطال قصصي تقع عليّ على نحو وآخر:– حين شكوت الأمر الى الملازم الشاب الذي سيرافقني، رمقني بنظرة ملؤها الإمتعاض والغضب، ثم عمد الى الضغط على حلقتي الأصفاد الى أقصاهما، ونبح في وجهي:

- [هه! هسه أحسن؟] وضحك وتركني أتعرق من الخجل لفداحة الاهانة. إثناء الطريق كان مفوض الشرطة الذي يجلس الى جانبي يحاول جاهداً جرّي الى مشادة كلامية عبر إطلاق نعوت وأوصاف جارحة مثل:

- [شلونهم الصحفيين النشامى؟]

وكان الضابط الذي يجلس الى جانب السائق، والذي يذكرني مقطع وجهه الجانبي بوجه خروف: وجه طويل ينتهي بذقن مدبب مُضحك، يتوسطه أنف هو الآخر طويل ومنحن، يلتفت نحو المفوض، ويبتسم مشجعاً إياه على الاستمرار بمناكدتي، وكنتُ من جانبي أتجاهلِ الأمر، أنظر الى الشوارع المحتشدة بالسيارات القديمة والمارة بأسمالهم المزرية، وبعض مظاهر الحضارة الكاذبة: ساحات تتوسطها نافورات عاطلة، شارات مرور قذرة، متنزهات مهجورة، بنايات حكومية تكتظ أسطحها بهوائيات الإرسال والاستلام، سلكية ولا سلكية، وربما إلكترونية أيضاً، من يدري؟ وأردد داخل نفسي المفجوعة مقطعاً للشاعر التشيلي، نيرودا يخاطب وطنه الجريح:

تجلسين عند مفترق الطرق

عجوز عمياء

بيدٍ تكش الذباب

وبالأخرى قصعة فارغة.

حين فهم المفوض أنه لن يستطيع إخراجي عن صمتي المُترفّع، وكنا قد وصلنا منطقة (ساحة التحرير). حين مررنا بالقرب من (جدارية فائق حسن) التي يجلس عند فيئها الشحاذون وصباغو الأحذية والسكارى، بينما هي تحدق ببلاهة مطلقة فيما يدور أمامها من فوضى عارمة، تحاول أن تغطي عليها الصفوف من أصنام عساكر اليعاريب المقامة هناك، خُيل لي أنني رأيت فيما يشبه الحُلم أجزاءً من الجدارية أفلتت من أماكنها: العسكري سقط صريعاً أو أسيراً أو مفقوداً أو معاقاً، النساء ممزقات الثياب نادبات وقد غطت الوحول رؤوسهن ووجوههن، التلاميذ غادروا صفوف الدرس، وانضموا الى أرتال العتالين والنشالين والنابشين في أكوام القمامة، واللصوص، وأفضلهم من حصل على جزءٍ من رصيف أو ساحة وجلس يبيع السجائر، وفي الشوارع المظلمة يركض الحصان مجنوناً، تدوس أضلافه الصُلبة رؤوس وأضلاع سكان المدينة، وليس هناك من أحدٍ قادر على ترويضه!

عاد المفوض ومَسكَني هذه المرة من ياقة كنزتي، وشدّها نحوه في عبثٍ صبياني فج إبتسمت في وجهه بمرارة، وكنتُ ساعتها أود لو أن باستطاعتي أن أعض على حنجرته تحديداً، أنتزعها وأمضغها وأبصقها في وجهه المتوحش، إذ لا شيء يمكن أن يعيده الى حاضرة البشر غير ذلك.

وسمعته يعوي في وجهي، وكانت رائحة فمه الخائس تثير الغثيان:

- [أَخَرَسْ! خومو أخرسْ! خوف لو عقل؟-]

هززت رأسي في وجهه الكريه، مستنكراً أن يكون الله قد خلق بشراً على هذا القدر من الصفاقه وقلة الأدب، وهو القائل سبحانه وتعالى [وخلقنا الإنسان في أحسن تقويم] وحاولتُ إغاظته أكثر وقد خطر لي لحظتها قولاً للكاتب الساخر:

برناردشو، طالما تحفظت عليه، لكنه يبدو أصاب كبد الحقيقة هذه المرة:

[إذ سقطت المرأة أصبحت مومساً، وإذا سقط الرجل أصبح شرطياً..]

ثم أليس أحياناً يكون الصمت، أفضل وسيلة للاحتقار؟

ويبدو من هياجه الذي إشتد أنه تفهم الرسالة، وأشحت عنه بوجهي الى الشارع من جديد، ثمة مناظر أخرى دفعتني الى الابتسام على الرغم من محنتي السوداء. خذ مثلاً:

سائقان في عمرين مختلفين كثيراً، شاب، وآخر بعمر جده يتشاجران بالأيدي عند أحدى تقاطعات المرور لأن سيارة أحدهما، على ما يبدو مسّت، مساً طفيفاً سيارة الآخر، رجل يخرج من فتحة بنطاله عضوه الذكوري يتبول مثل حمار على جدار بناية تقع عند الشارع العام، ضابط مرور يلصق أوراق الغرامات المالية على الزجاج الأمامي لسيارات أوقفها أصحابها بجانب الرصيف، ونساء ورجال وصبية يركضون خلف السيارات المسرعة، يلوّحون بأوراق ملونة طُبعت عليها بعضاً من آيات القرآن، المشهد الأخير جعلني أهمس في نفسي ضاحكاً، من دون صوت طبعاً:

- [شحاذون، ولكن بطريقة مُهذبة!..]

تنفستُ الصعداء فالسيارة قد دخلت أخيراً الشارع المؤدي الى دائرة التسفيرات، فشاهدت مجاميع عديدة من النساء المتشحات بالسواد، يفترشن أرصفة المنطقة المحيطة ببوابة التسفيرات، إنهن من دون شك، ينتظرن السماح لهن بمواجهة ذويهن من المودعين لحين تسفيرهم الى السجون شمالاً، أو جنوباً، أو، لعلهن ينتظرن منذ شهور طوال تقديمهم الى المحاكم.

بعد أن تمت اجراءات تسليمي الى مكتب التسفيرات، رفع الملازم ذو الوجه الشبيه بوجه خروف قيده الحديدي عن معصميّ، كانت كفاي متورمتين بنفسجيتين، حين رأني الملازم والمفوض الوقح أحرك يدي بحريّة، أيقنا أن الفريسة قد أفلتت من أنيابهما الذئبية، بهدوء العقل، وليس بإنفعال العاطفة، مدّا بوقاحة الأنذال كلاً منهما يده لمصافحتي، وقد وضعا على وجهيهما الكالحين قناعين بشريين زائفين وإمعاناً مني في إغاظتهما الى النهاية تشاغلت باللعب بأصابعي وتمسيدها جلباً للدماء، وفي الوقت نفسه رحتُ أحدق في وجهيهما القذرين، قذارة مطلقة كي لا أنساهما، حتى يحين يوم القصاص، لأن ما يتقاطع مع العدالة الالهية، أن يفلت مثل هؤلاء الأوباش من العقاب.

وحاولا مصافحتي من جديد:

-[سلّمْ! والله كنا نمزح معاك–] قال المفوض الداعر.

وقلت في نفسي في غيظ أحمر: إذا صدقت في قولك، فيالها من مزحة سخيفة سخافة يوم مولدكما، وحقيرة حقارة رحميّ أُميكما، وتافهة تفاهة الظروف التي جمعتني بكما!

وكانت رغبتي الوحيدة لا تزال تجيش عارمة في حنايا روحي المطعونة: أن أعض على حنجرته تحديداً، أنتزعها وأمضغها وأبصقها في وجهه السافل. إذ ما من شيء يجعلني أنسى ما حصل لي، غير ذلك.

حينها شعرا بإصراري على عدم مصافحتهما، فضربا كفاً بكفٍ، وإنسحبا يضحكان مثل عاهرتين وضيعتين.

حالما غادراني الوغدان جلست على حافة رصيف مكاتب التسفيرات، وأدليت في يأس رأسي المصدوع بين ركبتيَّ.

في جلستي تلك قررتُ: كي أنقذ نفسي من جنون مُحقق، أو الإقدام على الانتحار، بات عليَّ، على ضوء ما رأيته وسمعته حتى الآن، وهو حتماً مقدمة بسيطة ومسليّة لمصائب جمّة قادمة من دون شك، ان أتصرف بشيء من السخرية وروح الدعابة، بعيداً عن التحليلات النفسية والفلسفية التي وصلت اليّ عن طريق الكتب، وخفقتْ تواً في ذاكرتي مقولة لغاندي:

[لولا ميلي الى النكتة، لكنتُ قد إنتحرتُ منذ زمن بعيد..]

فتمسكت بها طوق نجاة، وعليه، رحتُ أفكر إن مفوض محكمة البياع البشوش، الذي يميل الى مصالحة الخصوم، والدعوة الى أخذ الأمور في شفافية، لا وجود له في الواقع الراهن، أنّه فرّية ثقيلة أملتها عليّ مخاوفي، وإضطراباتي النفسية، أو لأقُل وليدة ثقافة كتب الأدب، والاكثار من سماع الموسيقى، والسعي لمصاحبة من هو بدرجة فارس ونبيل من الناس، والإبتعاد المطلق عمن تعشش في خرائب ضمائرهم أفاعي الاستحواذ والنفاق والانتهازية، ومغازلة كؤوس المدامة المباركة التي ترقق الحافات الغليظة للروح الحيوانية، وتلقي المزيد من الضوء في ظلماتها الحالكة، وإذا ما وجد مثل هذا الشخص حقاً يحتم عليّ واجبي كمواطن صالح أن أسرع بإحاطة المسؤولين في وزارة الداخلية، ومديرية الشرطة العامة علماً بالأمر الخطر، وحثهم بضرورة الاسراع بالقاء القبض عليه، وفصل رأسه الثرثار عن جسده، من أجل أن تظل عناصرهما العسكرية يقظة فعّالة في شراستها، لأن وجود مثل هذا المفوض/ الانسان من شأنه أن يفسد عليهما الكثير من خططهما القاضية بـ (ضبط الأمن) و(الامساك بالسلطة بقبضة من جمر) وشيوع مبدأ (الضبط والربط) وفق المفهوم الاسبارطي، وان أية لفئة إنسانية، مهما كانت بساطتها وعفويتها، يجب أن تعامل: فوراً، وعاجلاً، واليوم حتماً، بالمحو،

لأنها بداية خطرة، جرثومة تسيب تفضي الى التحلل العام- العياذة بالله! الذي يجب إعتباره وجهاً من وجوه الخيانة العظمى.

وبينما كنت منشغلاً بافكاري الجديدة، فجأة إرتعد جسدي: إنهم ينادون باسمي، وخشيتُ أن يكونوا قد نادوا من قبل ولم أسمعهم- إنه فأل سيئ- همست في حنق، وأسرعتُ بحمل طيّة فراشي، وتبعت أحدهم وقد أرخيتُ عنقي مثلما تفعل الشاة وهي في طريقها الى المسلخ، فتح الشرطي باباً واطئاً، أحنيت قامتي كمن يتهيأ للسجود، ودخلتُ أسوار مستعمرة جُذام جديدة.

١٨- ١١ - ١٩٩٦

٢
ليس جميعهم أشراراً

رموا بي داخل ردهة مستطيلة مكتظة بموقوفين من أعراب البادية هكذا مازلت أتصورهم الى اليوم، وذلك بناءً على سحناتهم الصلبة، ولحاهم المدببة، وأثوابهم المتّسخة، الفضفاضة، وأقدامهم الحجرية الكبيرة، ورغبتهم الشديدة للتدخين.

عند وسط القاعة ألقيتُ طيّة فراشي، بعد أن تكرم أحدهم وسحب قدميه فالجميع كانوا إما يتكئون على الحيطان ويمدون أرجلهم الى أقصاها، أو يتمددون مضطجعين على ظهورهم.

بعد سلسلة طويلة من عبارة [الله بالخير] بادر أحدهم وسألني عن نوع [دعوتي] وحين أخبرته إمتعض وعدّل من جلسته ليضرب على فخذه الضامرة بكفه العريضة، كف بدوي لم تسقط العصا الغليظة منها مُذ تعلم كيف ينقل أقدامه، أول مرة خلف المطايا، وصاح في تأثرٍ واضح:

(- باطل!).

عمّتْ همهمة من الجالسين القريبين منا، وما أن علم الباقون بتهمتي حتى ضحكوا ولكن بإستحياء! ثم عادوا وتمددوا لصق الجدران القذرة ليواصلوا أحاديثهم التي قطعها دخولي عليهم، وعادوا ينسونني تماماً، كيف لا وتهمُ الأغلبية منهم تكاد تنحصر في قضية واحدة: التهريب، تهريب كل ما من شأنه أن يعود عليهم بالثروات، من والى

العراق مع دول الجوار: أغنام، أبل، خيول، سيارات، سكاير، آثار، أسلحة، عتاد، وخمور، وربما أطفال أيضاً.

دقائق قليلة وفيما كنت أقلبُ الأمر مذعوراً: كيف سأمضي الوقت؟ وأين سأجلس، فضلاً عن أنام؟ فالجميع كتف لكتف على امتداد الجدران، فجأة فُتح الباب، ونادى مفوض (هاشم) بإسمي، كان في الثلاثين من عمره، بشوشاً وسيماً، وكالغريق إختطفت فراشي وخرجت خلفه وأنا أودع جمع الاعراب بتلويحة عجولة، قدّمني الى مسؤول التسفيرات، النقيب أحمد عبيّس، الذي يبدو أن المفوض بعد ان قرأ حيثيات قضيتي، أطلع على مهنتي كصحفي- كنت قد ذكرت ذلك للقاضي اثناء محاكمتي عساه يتعاطف، ولو قليلاً معي، وكنتُ يومها أعمل في القسم الثقافي لجريدة الجمهورية.

وأنا أقف قبالة النقيب وقد إنسحب المفوض جانباً، أردد في نفسي الهلعة [اللهّم اجعلها خيراً..]

بعد أن تأكد للنقيب صدق هويتي، طلب مني وهو يبتسم الجلوس على مقعد قرب مكتبه، وكنت اهتف في نفسي غير مصدق:

[شرطة تحترم الصحافة؟ إذن، مازال الأمل بالاصلاح ممكناً!]

وبالنبرة الودود ذاتها قال وقد مدّ باتجاهي علبة سجاير نوع سومر:

"- تفضل، أعذرني لا يوجد شاي لدينا اليوم".

وتدافعت في ارتباك كلمات الاعتذار والشكر في حنجرتي، وأعتقد أنني قلت له:

"- معذرة، وشكراً لأريحيتك"

أشعل سجارتي وقال مواسياً.

"- تشجع، تسعة شهور بسيطة.."

واتسعت إبتسامته على وجهه الأسمر المدوّر، ثم خاطب المفوض الذي مازال واقفاً، وأمره:

"- مفوض هاشم، إدخل الاستاذ الى القاعة رقم [٨ ودعه يرتاح بالممر، وأوصي الجماعة به خيراً.."

أدى المفوض التحية العسكرية بروح انضباطية عالية، وقال:

"- أمرك سيدي.."

شعرتُ أن المقابلة قد انتهت، أو يجب أن أنهيها من جانبي فللرجل مشاغله لاسيما وأنني لمحتُ من الشباك المواجه للساحة، ثمة سيارة قد جاءت، وهبط منها جنديان مسلحان، وثلاثة اشخاص قيدت أيديهم خلف ظهورهم. نهضت ومددت له يدي شاكراً جميله، فنهض بدوره والابتسامة الانسانية تضيء وجهه السمح، وقال:

"- أراك متعجلاً؟ أنتم الصحفيون لكم حق مضاعف علينا.."

وكانت بيّ رغبة عارمة الى أن احكي له عن شراسة (جماعة معاونية صدام) وجفاء قاضي جنح البياع، ولا أبالية المدعي العام، لكن، ما علاقة الرجل بالموضوع؟ كررت شكري، وتلفت صوب السيارة التي وقف راكبوها عند الباب، وتفهم الأمر، وخاطبني من جديد:

"سترسلك الى (ابي غريب) متى شئت..

ويادر المفوض هاشم قائلاً:

"- سيدي، أنا على معرفة بـ (ابي وسن) مدير قسم الأفراج، سأوصيه بالأستاذ خيراً.."

"- جيد.."

بعدها أرسلني المفوض برفقة شرطي شاب في العشرين من عمره، هادئ على غير طبيعة من هم في مثل سنه من المجندين، وأمره بأن يسمحوا لي بالتجوال في الممر الخارجي الملاصق للقاعة متى شئت، غير انني منعاً للاحراج لم استخدمه سوى مرة واحدة حيث كنت محط تساؤل الجميع من الموقوفين الذين راحوا ينظرون نحوي بشيء من الحسد المشوب بالتوجس.

برفق أدخلني الى القاعة رقم (٨) كانت عبارة عن قاعتين مربعتين متداخلتين ببعضهما، الداخلية لذوي النفوذ الوظيفي والاجتماعي، أما الأمامية فمن نصيب من يحظون، على ما بدا لي بتعاطف النقيب أحمد عبيّس، لأسباب شتى، أزعم أن في معظمها إنسانية مجردة من المآرب الرخيصة، على غرار ما حصل معي مثلاً، عند المساء وزعوا علينا صمونة واحدة لكل فرد، بحجم الأصبع يعود اعدادها الى يوم أمس، إزدرتها على مضض، ودخنت آخر سيجارة بقيت لدي وأنا أتكئ على طيّة فراشي، وأحدق ساهماً بإتجاه الباحة الأمامية، حيث تقطر مياه المطر الذي بدأ إنهماره منذ

ساعتين، من ذوائب شجرة سدر قديمة، وينشب شجار دامٍ بين كلبين هزيلين على صمونة رمى بها اليهما مستاء أحد الموقوفين من الردهة المجاورة وهو يلعن يوم ميلاده.

حلَّ الليل، فحلَّت معه كافة أشكال ومسميات .اوصاف ونعوت الكآبة والقلق وفقدان اليقين، وبدت المجاميع من المحتجزين والموقوفين والمحكومين تلتم مع بعضها، كل أربعة اربعة، أو خمسة خمسة، يجمعها وحدة المصير المشؤوم، وقوفاً أو جلوساً، فيرتفع اللغط ودوامات دخان السجائر، وكنتُ وحدي من يرى في المشهد المضطرب، متكئاً الى عمود مقام وسط القاعة، وحيداً مستوحداً وأخرس. ستظل هذه الحالة، حالة اللامبالاة والحياد واللاانتماء تلازمني الى آخر يوم ليّ في هذا الكهف، والكهوف التي ستأتي اليّ، أو سأذهب اليها طائعاً بقدميّ.

حين أتفحص حالتي (المباركة!) هذه التي إنتهيت اليها، ينتابني الشعور ذاته الذي وصفه (كازنتزاكس) في كتابه الخطر (الطريق الى غريكو) الذي تلبّس الرهبان المنقطعين الى الرب بعد أن يأسوا تماماً من إصلاح البشر، فضلاً عن إصلاح أنفسهم، حين كانوا في المدن، خارج الدير، حيث كل شيء هناك في الخارج غارق من دون خجل أو شعور بالعار بالفساد والعنف وروح الاستحواذ والخيانة. شعور تولّد لديّ، بعد مناقشة طويلة مستفيضة لهذا المجتمع بشرائحه الاجتماعية كافة، معايشة واعية، بمعنى من دون أحقاد أو ضغائن أو مكابرات أو استعلائية، ومن ثم يمكن أن أجمله بعبارات سريعة مختصرة، بعيداً عن لغة الاطناب والمبالغة والعاطفة أيضاً: كل شيء، أكرر، مليون مرة كل شيء، سواء ما يسمى منه بالأسرة ذلك الفعل الشنيع الذي يليق بالكائنات التقليدية وحدها، وليس بمن هيأ نفسه، على نحو مبكر ليكون كاتباً فاعلاً، أو فناناً إستثنائياً، أو مفكراً مميزاً.. الاصدقاء الذين إذا ما غبت عنهم لن يفتقدوك.. سنوات العمل الطوال المضنية لدى الدولة ببيروقراطيتها، مرتبها شبه المجاني.. الذكريات التي حين نسترجعها نشعر وكأنها لا تعود لنا.. المساكن الوضيعة.. الاثاث الفقير، وكل ما من شأنه أن يحد كثيراً من الطيران الحرّ في الأعالي، المفتوح على العالم، وما شابه ذلك من أفعال حمقاء خرقاء، يقوم بها الواحد منا، مغمضاً أو مفتوح العينين، كل شيء باطل، على حد قول البدوي، وسخيف وقبض ريح، كما ورد على لسان (ماتيو) أحد أبطال سارتر في دروب الحرّية، وهو يلفظ أنفاسه تحت حراب شلّة من النازيين الأوغاد.

٣

رجل من ضوء

أكظم جوعاً ساحقاً هو من القسوة بحيث أتساءل إن كنت حقا سبق لي وتناولت طعاماً، ولو مرة واحدة في حياتي التي تقرب من الثمانية والأربعين عاماً؟

وبينما أجاهد في أن أفلسف جوعي وأهرب منه الى أفكار أخرى، لكن يبدو من دون جدوى، إذ تحوّل الى ما يشبه المغص المعوي وغثيان مشين اذ يستحلب لعابي بغزارة مخجلة حينما أرى أحداً يأكل شيئاً ما، فأسدُّ فمي براحة كفي واشيح بعيداً عنه، أو أسرع الى الحمام أبصق وأرش الماء على وجهي وأردد: إنا لله وانا اليه راجعون، وفيما أنا سادر في ترويض وحش الجوع من دون هوادة، وقف أحدهم عند رأسي المشروخ، هكذا كما في حكايات الجن، ابتسم بوجهي المنطفئ وقدم لي رغيف خبز يابس، كان الرجل مسيحياً، فتذكرت مسألة التعميد في الديانة المسيحية، فشكرت من خلاله السيد المسيح، الوديع المتقشف المسالم الزاهد في الدنيا: (ما قيمة أن تملك الدنيا وتخسر نفسك؟) هكذا يصيح بوجه عبدة الكراسي والدولار وأفخاذ النساء، كذلك شكرت المسيحيين والمسيحيات كافة الذين سبق وتعرفت اليهم، وقد راحت صورهم وهيئاتهم تخطر أمام ذاكرتي التي يمزقها الجوع!

قال مشجعاً، ويبدو أنه تفهم حالتي التي لا بد أنه قد سبق ومرّ بها، هنا في (التسفيرات) الملعونة، أو في مكان توقيفه السابق:

"- نقّعه بالماء، والله كريم يا أخي.."

حالة من التعاطف الانساني الجليل عصية على التفسير، فضلاً عن الوصف بالكلمات سأظل اتعرض لها بكثرة في القادم من الايام.

عملت بنصيحته، وعدلت من جلستي فقد وضع جني القمقم

٤

بانسون

في بواكير أعمارهم، منذ عدة شهور وهم محتجزون حتى إشعار آخر، جريمتهم: التحرش بفتيات المدارس، جميعهم من مدينة الثورة حيث تتجاور آلاف البيوت الشعبية على سَواقِي المياه الثقيلة المفتوحة صيفاً وشتاءً.

كان آباؤهم قد جاءوا الى بغداد في خمسينيات القرن العشرين هرباً من قسوة الاقطاع في الجنوب، حيث راحت إحدى نساء أحد الشيوخ من المسترجلات تضع الفلاح المخالف لأوامر الشيخ الأمي الصارمة في تابوت مع هرين جائعين وتغلق عليه الغطاء بالمسامير فيفترس الهران الفلاح، دونه إفتراس الذئاب، وإقطاعي أخر أمسك بأحد الفلاحين بوشاية من سراكيله المبثوثين في القرى وقد (سرق!) بعضاً من محصول الشعير أو الذرة لإطعام أطفاله، يكسر له أصابع يديه، ويأمره بقطع المسافة بين مضيف الشيخ في قرية آل رميض وقرية الفلاح المتهم في الكويبع أو العويجد، زحفاً على ركبتيه ومرفقيه، والويل لمن يتوقف، أو يتكلم معه من الفلاحين الآخرين، إذ سيكون العقاب صارماً على أيدي عبيد الشيخ الذين أرسلهم خلفه على الخيول!.

الشباب المحتجزون يحملون قرب آذانهم أجهزة مذياع صغيرة، تبث أغاني الحب في زمن أمسى كل شيء فيه ملفّقاً ومخرّباً، وقد خرّب الشبان في لحظات يأس مريرة، وما أكثرها أجسادهم الفتية بالوشم، وشم لأفاعٍ، ووشم لسكاكين، ووشم لقلوب مخرومة بالسهام. ثمة رسائل حب قصيرة وشموها أيضاً على ظهورهم وأذرعهم وسواعدهم وصدورهم ستظل ترافقهم حتى الموت للفتيات اللاتي وقفوا من أجلهن، من المؤكد أنهن الآن وقد طال غيابهم كثيراً، إستبدلنهم بفتيان آخرين.

لعل المثير في أمرهم، إنهم على الرغم من مصائرهم المجهولة، مازالوا متشبثين بقوّة الأمل الذي سيفضي بهم إن آجلاً أم عاجلاً الى حياة أكثر انسانية:

"- سيطلقون سراحنا، فحروبهم لن تتوقف.." يقول أحدهم، في شبه يقين وهو يضحك، ويتابع: ومن هناك سأهرب الى إيران او الشمال.

ولعل هذا ما يجعل إهتمامهم بمظهرهم لم ينقطع يوماً: يحلقون ذقونهم، ويسرحون

شعر رؤوسهم، الذي طال كثيراً والحرص على فَرقِهِ من الوسط أو على أحد الجانبين مثلما كان الأمر بالنسبة لي يوم كنت في مثل أعمارهم، يمررون الأمشاط مرات عديدة على حواجبهم، وعلى شواربهم الصغيرة الخفيفة، وقد يضع بعضهم العطر وكأنهم بطريقهم الى لقاء الصديقات، اللاتي كم أمضوا معهن ليلة البارحة بعد أن أطفأ الحراس بعض المصابيح وأمروهم بالرقاد المبكر، أمضوا وإياهن ساعات طوال في سمر وعتاب موجعين.

وكدليل على حبهم الجارف للحياة راحوا يلصقون على الحيطان، قريباً من أماكن منامهم صوراً لمناظر زاخرة بطبيعة ضاجة ضاحكة، إقتطعوها من المجلات التي يجلبها، خلسة لهم ذووهم: شطآن مفتوحة على آفاق شاسعة لبحار فيها سفن شراعية، وزوارق نزهة، متزلجون على الماء ومتزلجات، ثمة فتيان وفتيات (بالمايوه) ينطرحون على الرمال الناعمة، أو يتشابكون بالأصابع وقد غطاهم زبد البحر، أو يجلسون في سرور واضح تحت فيء مظلات ملونة، يلتهمون السندويشات، والمرطبات من أقداح ورقية، كل ذلك يحدث من دون شرطة أخلاق أو مضايقات أو هراوات أو تزمت بغيض.

أشجار ومتنزهات ومقاه تضيؤها القناديل الملونة، تتقدم واجهاتها موائد أنيقة، مزدحمة بالقناني والأقداح وأطباق الطعام والفاكهة، الناس يغنون ويهزجون ويرقصون، وقد خلت المشاهد من العساكر والعسس والأزيال والسحنات الصلبة العدائية والشوارب التي تنافس شوارب الغجر.

[نرفض أن تكيل أمريكا حقوقنا الدولية مع إسرائيل بمكيالين..]

أسمع (القائد الضرورة!) يهذي كعادته عبر التلفاز، وأقول مع نفسي: هذا صحيح من حيث المبدأ الدولي العام، لكن.. وتجرجرني ذاكرتي الى تلك الأيام القريبة الماضية، متذكراً المساءات الممتعة الطويلة التي أمضيها كل يوم تقريباً والصديق مؤيد عبدالقادر، وبعض الأصدقاء الرائعين، منهم من هو بدرجة استاذ جامعي، وآخر محام، وثالث أديب، أمام كشك مؤيد القابع مثل طير أبيض على الرصيف قبالة ما تبقى مما كانت تسمى: أسواق المنصور المركزية، حيث نشاهد بمرارة وغضب أرتال السيارات الفارهة التي جاءت تواً من مناشئها في طوكيو، وباريس وبون وواشنطن أيضاً، يقودها مراهقون ومراهقات من أبناء أثرياء الحروب أو كبار المسؤولين الحكوميين على حد سواء، وتحرشاتهم اليومية المفضوحة التي لا تنقطع بفتيات المدارس الواقعة

في تلك المنطقة، والتي تحدث دائماً تحت سمع وبصر من شرطة النجدة، بل أنهم يتحرشون في تحلل واستهتار حتى بمن هن بسن أمهاتهم.

نرى سيارة سبور حمراء نوع مرسيدس يقودها بطيش ورعونة ابن أحد الوزراء يدخن مطاط عجلاتها على قار الشارع، تقف فجأة، بجلبة عالية أمام تجمع لفتيات الثانوية القريبة من الكشك الخاصة ببنات الأثرياء والمسؤولين والسفراء العرب، ينتظرن ذويهن، أو سيارات التاكسي، فيخرج منتصباً من فتحة في سقفها شبل التاجر (س) أو جرو المسؤول الحزبي (ك) وقد وضع على وجهه قناع مصاصي الدماء، ويصرخ بصوت الوطواط المخيف في أفلام الخيال العلمي، فتصرخ تبعاً لذلك في رعب وفزع شديدين الفتيات، وقد يصاب بعضهن بالإغماء!

يسخط البعض بصمت طبعاً، ويضحك الكثيرون بأصوات عالية، وفي مقدمة الضاحكين، رجال شرطة النجدة!

ذات مرة حاول أحد رجال الشرطة ممن جاء منقولاً الى احدى دوائر الشرطة في منطقة المنصور، وكلّف أول مرة على ما يبدو في مهمة المشاركة بإحدى الدوريات، حاول التصدي بسيارته الحكومية لإحدى السيارات العابثة، مثلما تقتضي الأوامر الخاصة بالمناطق الشعبية طبعاً، كونها مناطق سكنى (للمتوحشين) هي غير مناطق المتحضرين، كما في الأعظمية والمنصور والكرّادة وزيّونة، فما كان من صاحب السيارة العابثة وقد إستغرب ومن معه لتصرف هذا الشرطي الأحمق، فقام بقيادة سيارته ماركة [BMW] وتخطى سيارة الشرطة صاعداً الرصيف، ثم أوقفها على نحو أُفقي في عرض الشارع، وهبط ومن معه وقد قطعوا المرور على سيارة الشرطة.

كانوا تماماً مثلما تظهرهم بعض أفلام نيويورك الخاصة بالخارجين على القانون: كنزات جلدية ثمينة، يدخنون ويمضغون العلكة، وقد حلقوا شعر رؤوسهم بطرق مضحكة، كان واضحاً أنهم يتحدون السائق ان هو إقترب ومس بسيارته الحكومية المتهالكة، سيارتهم فأسقط بيده وقد إصفر وجهه فرط الأهانة، فهبط أحد رجال الدورية وكان برتبة مفوض، نحا السائق وأخذ مكانه خلف المقود وقاد السيارة الى الخلف، ثم الى الامام عدة مرات، وكانت الزمرة العابثة تعفط وتضحك كلما نقل نمرة ناقل السرعة من وضع الى آخر حيث يرتفع صوت التعشيقات عالياً، وبذلك تخلصت دورية النجدة من المأزق وانسحبوا هاربين الى أحد الفروع القريبة، فتعالى تبعاً لذلك

ضحك وتعليقات المارة التي إستوقفهم المشهد، فطّقت حنجرتي، وقد أخذني الأمر كما أخذ الجالسين معي مأخذاً عسيراً:

"–إنها شيكاغو ثانية!؟"

فأجابني في ذهول مطبق إستاذ الفلسفة في جامعة بغداد، وخريج (كمبردج) الدكتور عبد الأمير الأعسم:

"– والله، يالسباهي ولا حتى في شيكاغو!"

في القاعتين المتداخلتين جمع كبير من الموقوفين لتهم شتى، وإن كان معظمهم سائقي سيارات حكومية وقد سرقت منهم السيارات فحجزهم الوزير المختص حسب الصلاحيات الممنوحة له بفعل قوانين الطوارئ لحين تسديد مبلغ السيارة المسروقة ولأن ثمنها حسب الأسعار السائدة، مهما كان موديلها قديماً، يفوق المليوني دينار– أكثر قليلاً من ألف دولار– فلنا أن نتخيل مشاعرهم وهي في مثل تلك الحالات الميؤس منها؟

يوجد في القاعة الداخلية شاب في الثلاثين من عمره، ضخم الجثة، هو بمثابة السيد هنا من دون منازع، يتذلل له الجميع محاولين كسب وده بما فيهم أفراد القوّة الاجرائية، يُشاع أنّه نقيب في جهاز الأمن الخاص، رأيته أكثر من مرة يضرب السجناء الذين يخالفون تعليماته، ورأيته كذلك يضرب يومياً موقوفاً مسيحياً يقوم على خدمته، حيث يمضي الساعات الطوال يدلك له قدميه وساقيه وكتفيه من دون كلل أو ملل، بينما هو جالس كأي أمير شرقي يشاهد البرامج على شاشة تلفازه الخاص، وإن المسيحي المسكين أنما يقوم بما يقوم به، فذلك من أجل إطعامه.

ذات مرة إرتفع صوت المحتجز المسيحي باكياً متضرعاً لسيده النقيب الذي راح يضربه على وجهه بكفه الشبيه بخف بعير، والويل لمن يتدخل، فتساءلت في غضب شديد:

"– يا ترى من عساه يكون هذا الخنزير الذي لا يكف عن عبثه الثقيل!؟"

فجأة إندفع محدثي وكان أحد الشباب المحتجزين بتهمة التحرش بالفتيات، ووضع يده كاتماً صوتي وقد جحظت عيناه فرط الرعب وهمس متوسلاً:

"– إستاذ! سيقتلك!"

"- يقتلني؟ هكذا ببساطة!"

تساءلت في دهشة وعجب.

وبالذعر نفسه قال الشاب بعد أن ابتعد بي عن المكان:

"- أستاذ، أعتقد أنك سمعت بحادثة القتل المروعة التي راح ضحيتها أحد أبناء الدبلوماسيين العرب، بدعوى أنه زاحم (عدي) على واحدة من صديقاته؟.."

"- نعم. سمعت.."

"- هذا هو القاتل المأجور، جاؤوا به الى هنا بدعوى محاكمته، في حين أنهم يحاولون، بمرور الوقت، لفلفة القضية، ثم إطلاق سراحه.."

واختتم كلامه بما يشبه البكاء:

"- صدّق ياأستاذ، أو لا تصدق.."

وتحسرت في حنق:

"- ولماذا لا أصدق يا ولدي وقد زال اللبس عني، إذ حسبتهُ أميراً هذا القاتل؟" نعم. كنت أسائل نفسي مراراً: من يكون هذا البغل الذي تأتيه كل يوم (صينية) طعام كبيرة مُسلفنة، يلتهمها مع مسؤول التسفيرات وبعض ضباطه، ويتركون فضلاتهم الى بعض السجناء، وكذلك أكياس الفاكهة وصناديق المرطبات، وكيف أنه يتجول بالزي العربي الفاخر في مباني التسفيرات طولاً وعرضاً، تحيط به شلة من الضباط الصغار، وفوق هذا كله، بإمكانه الذهاب الى بيته متى شاء، ويظل هناك متى شاء من الوقت؟

إن ذلك من دون شك ما كان ليحصل لو لم يكن قد مُنح إمتيازات خاصة من قبل الذين جندوه ليكون قاتلاً بدلاً عنهم!

يا ترى كم قتل ابن البغي هذا من أشراف العراق، وكم إغتصب من حرائره، من دون أن يطال حبل المشنقة عنقه البغلي، أو يثقب جسده رصاص كل ما أنتجته مصانع الأسلحة في العالم؟.

ثمة شاب مجنون يسمى (حيدر) يمسك دائماً بقوّة على صرة قذرة لا تفارقه، يقطع من دون هوادة الردهة بخطوات واسعة، لا يكف يردد لازمته الثابتة:

[في أمان الله يمسافرين،

في أمان الله،

فات القطار..].

أيمكن أن نفهم من هذا الكلام وطقس الحركات المسرعة الذي يرافقه، ما يشبه التوق الجارح الى مغادرة هذه القاعة المغلقة بالمفاتيح الثقيلة، وربما العالم أجمع، حتى وان كان المتكلم مجنوناً؟

يحمل وجهاً حين رأيته أول مرة شعرتُ بالغثيان: أنف كبير يتوسطه ثألول بحجم حبة الباقلاء، وفم عريض يكاد يقطع وجهه من الأذن، الى الأذن الأخرى، وقد غطت مساحة وجهه الدائري الوردي مئات الثآليل الصغيرة.

يقال أنه كان من نزلاء الشماعية، وبعد أن تم إخراجه من المصحة العقلية بدعوى [اكتسابه الشفاء التام..] عمد، منذ الاسبوع الأول من خروجه الى ثقب بكارة طفلة شقيقته بأصبعه، ولكن بدلاً من أن يعيدوه الى المصحة، كما تقتضي بذلك القوانين الصحية، في الصومال، وجزر المالديف، والكونغو، جاءوا بحيدر المعتوه ورموه في القاعة رقم [8] من تسفيرات الشعب، تسفيرات الرصافة الاولى، صحبة كتاب موّقع من قبل أعلى سفيه في وزارة الداخلية يؤكد على: [حجز هذا النذل، وحتى إشعار آخر..].

ويبدو أنهم نسوه شأن الكثيرين، فها قد مضى على حجزه أكثر من نصف سنة، وها هو قد ساءت حالته الصحية كثيراً بفعل المقالب السخيفة التي لا حصر لها التي يوقعه بها العديد من المحتجزين بدوافع التسلية، إذ إتخذوا منه مادة دسمة لما يحتدم بدواخلهم من ضجر، لعل أفظعها تلك التي حصلت يوم الزيارة العائلية الاسبوعية للمحتجزين: ينادون باسمه، فيهرع نحو مكان الزيارات، غير أنهم يصدونه عند البوابة في خشونة، فيتراجع مذعوراً ليتكوّر على نفسه عند الزاوية القريبة من ساحة المواجهة ويروح يرمق بعينين مفتوحتين على وسعهما ما يدور أمامه من عواطف حميمية تنفجر بين المحتجزين وذويهم، ومهيأ في الوقت نفسه للقفز مرة اخرى حالما يسمعهم ينادون بإسمه.

عند نهاية الزيارة، وبعد أن يكون الجميع مشغولين بتفقد ما بداخل الأكياس والقدور التي جلبها أهلهم وذووهم، يكون حيدر المعتوه منكفئاً على وجهه ينشج ويردد بصوت طفل في الثالثة من عمره:

[أريد أمي، أمي، أريد أمي..]

أجزم أنه قد يستيقظ ذات يوم قريب، وهو الذي لم أشاهده طيلة الأيام الثلاثة التي أمضيتها في القاعة قد نام ولو مرة واحدة، نوماً مستقراً، قد يستيقظ ليقوم بجريمة قتل مروّعة لواحد او أكثر، حين ذاك فقط سينظر مسؤولو التسفيرات بالفقرة الجهنمية، من الأمر الوزاري البليد الذي تم إحتجازه بناءً عليه، والقائلة: [حجز هذا النذل، وحتى إشعار آخر..]

يُشاع أن القاعة رقم [6] التي تقع الى الشرق من قاعتنا والملاصقة لها إن المسجونين فيها يعيشون حالة من الرعب الرهيب يقودها (حسن بقرة) كما يلقبه السجناء بسبب بدانته وشراهته في الأكل وتعامله الفظ مع الآخرين، من أصل كردي، محكوم عشرين عاماً بتهمة القتل العمد، أبقوه عن قصد بعدما عرفوا شدة بأسه، وبطشه المريع ليدير لهم بالنيابة هذه القاعة المكتظة في كل الفصول بالقتلة واللصوص والشواذ جنسياً، مقابل مبلغ من المال متفق عليه يدفعه لدائرة التسفيرات إسبوعياً، وبذلك أطلقوا يديه المتوحشتين تعبثان كيفما شاءتا بمصائر السجناء، فراح يغتصب الشباب منهم، ويأخذ مئة وخمسين ديناراً يومياً من كل سجين، ومن يتعذر عليه الدفع يعمد الى سلبه فراشه او ملابسه وبقية متاعه والقيام ببيعها أمام بصره، والويل له إن إحتج، أو أسمع المشتري كلاماً سلبياً.

لديه غرفة خاصة ملحقة بالقاعة يقوم على تنظيفها عدد من السجناء، وبإمكان كل من لديه القدرة على دفع مبلغ خمسمائة دينار لليلة الواحدة أن ينام فيها.

أطلقوا على هذه القاعة لتوحشها تسمية (قاعة الحوتة) أو قاعة (حسن بقرة) وبسبب ندرة أبسط شروط النظافة، فضلاً عن إنعدام العلاج والطعام، ترى من كان منهم قويّ البنية يسقط في اليوم الثالث، على أكثر الاحتمالات، صريعاً لأمراض الجرب والحساسية الجلدية، وكذلك الزكام والقئ والالتهابات المعوية الحادة، فضلاً عن سوء التغذية، وما رافق ذلك من عقوبات شرسة طالت كل من إشتكى أو تذمر، الأمر الذي أودى بحياة الكثيرين منهم داخل هذه القاعة الملعونة، ويُشاع أيضاً أن حسن بقرة نذل لدرجة أنه كثيراً ما كان يركض بحذاءيه على صدورهم وهم نيام، قاطعاً القاعة من الطرف الى الطرف الآخر، كعقوبة جماعية لأن أحدهم تجرأ وضحك، أو تحدث بصوت مسموع، وإن الكثيرين كسرت لهم أضلاعهم من جراء هذا العمل الاجرامي، الذي يقوم به كلما سكر، أو جاءوا له بوجبة جديدة من المسجونين ليثير الفزع كي يتراصفوا الى

بعضهم أكثر، مفسحين للقادمين مكاناً.

كان صوته البليد الأجش يُسمع عالياً بنبرته الكردية: [هلّ وشد، هلّ وشد..] بمعنى: حلّ وشد، وهي عبارة شائعة في المعتقلات العراقية التي تستقبل كل يوم بل كل ساعة تقريباً سجناء أو موقوفين جددا، وتعني ضرورة أن ينام الجميع على جنباتهم ورأس الواحد منهم الى قدميّ من يجاوره.

وكان (البقرة حسن) قد جنّد بدوره بعض أمثاله من السجناء، مساعدين له في مهامه الاجرامية.

الفصل الثالث

في الطريق الى سدوم

بعد ليلتين من مكوثي في القاعة قام النقيب أحمد عبيّس بزيارة تفقدية، مستمعاً الى شكوى النزلاء ومدوناً ملاحظاته ،

حالما خطا داخل القاعة، وقد نهض الجميع لمقدمه مرحبين، تساءل بصوت عال:

"- أين الصحفي، والرسام؟"

كان هناك شاب أسمه مصطفى يقوم بتكبير رسوم بعض المنتسبين والنزلاء وعمل تخطيطات- بورتريت- شخصية لبعضهم، نهضنا، صافحنا وإستفسر عن أحوالنا، وعمّا إذا كان أهلنا قد زارونا، وكرّر وعده بإرسالنا الى سجن أبي غريب متى شئنا.

ولأنه كان قد توضح لي أن مسألة ذهابي الى سجن أبو غريب، مهما حاولت البقاء هنا في التسفيرات، قضية محتمة، لأن إدارة السجن وحدها المخوّلة بمنح السجين كتاب إطلاق السراح، وأن مكاني في الأخير هناك، وأنني كلما أسرعتُ، كان ذلك أفضل، أرتب وضعي، أستقر في إنشوطتي الأخيرة وأسلم أمري للأقدار عساها تتكرم عليّ برجل آخر له بعضاً من شمائل النقيب أحمد عبيّس، ثم أن منظر (حيدر) المعتوه، وأخبار قلعة (حسن بقرة) وتصرفات القاتل/ الأمير! ليس من طبيعتي النفسية إحتمالها، لذا رجوته إرسالي الى سجن أبي غريب.

إبتسم وقال:

"- كما تريد، ظهرت منك وليس منا.."

صباح اليوم التالي سمعتهم ينادون بإسمي، كنت ممدداً على فراشي أدخن وأنظر الى المحكومين وهم يأمرونهم بالصعود الى سيارة نقل كبيرة، بعد أن يقوموا بربط أيديهم خلف ظهورهم إستعداداً لإرسالهم الى سجن أبي غريب المركزي. النداء باسمي يعني الإسراع من جانبي للإلتحاق بالمسفّرين الى السجن. نهضتُ مسرعاً، وكنت أسمع بوضوح ضربات قلبي تدق بشدة على أضلعي طويت فراشي ورزمته بحبل كنت قد أعددته لهذا الغرض، عدّلتُ من هيأتي إن النداء التالي سيكون إن لم أسرع مرفقاً بسيل من الشتائم البذيئة. لو أنهم، فقط أحاطوني علماً بوقت تسفيري لكنت رتبت وضعي كما

ينبغي بوقت مبكر، ثم أن النقيب أحمد عبيّس كان قد ترك لي الأمر في مسألة تسفيري، إذ أنه قال لي حين رجوته بنقلي الى السجن: لماذا أنت في عجلة من أمرك!؟ بإمكانك البقاء هنا عدة أسابيع، ترى هل هناك من وشى بي لقول ما بدرَ مني؟ من يعلم!.

وقفت عند الباب الحديد المشبك، وفراشي على كتفي، ورجوت حارساً يقف قريباً مني بالسماح لي بالخروج للالتحاق بالمسفرين، فتح الباب، وكان أحد الضباط يعنف الشرطي الموكل بالتسفيرات بسبب تأخر صعود المحكومين الى الحافلة، وكان الشرطي يرد عليه:

"- سيدي، ما كو حبال."

يعني ليس لديهم من الحبال ما يكفي لربط أيدي المحكومين منعاً لهروبهم، أو القيام بأي شكل من اشكال العنف اثناء الطريق.

فوراً أتوا ببطانية احد السجناء، كانت جديدة ومن نوع جيد، مزقوها بحرابهم وحولوها الى شرائط كتفوا بها السجناء واحداً واحداً، اعترض صاحب البطانية فدفعه أحدهم الى الوراء بشراسة، وكان أول من ربطوا يديه بشرائط غليظة من بطانيته، وأمروه بالصعود الى الباص، فأطاع وإن على مضض. لمحت النقيب احمد عبيّس جالساً عند المقعد الامامي من السيارة مشرفاً على عملية النقل، حييته، فأشار لي بأن أصعد، وأمر مسؤول المفرزة التي سترافقنا بعدم ربط يديَّ مثل بقية الآخرين، كما أسقط عني مبلغ أجرة النقل التي كانت بحدود ألف دينار.

أخذتُ طريقي الى آخر المقاعد، وهناك رميت طيّة فراشي وجلست. دقائق قليلة وتحركت الحافلة بحمولتها المكوّنة من خمسة وأربعين سجيناً، ثمانية منهم محكومون بالاعدام، وأحد عشر بقطع الكف والمؤبد معاً، ثلاثة الى قسم الأحكام الخاصة- السياسيين- وما تبقى فمن حصة الأحكام الخفيفة - خمس سنوات فأقل- والافراج الشرطي-سنة فأقل-.

قبل أن تغادر الحافلة ساحة التسفيرات إرتفعت الأوامر المشددة المرفقة دونما سبب بالشتائم، والتهكمات الصفيقة، مطالبة الجميع بطأطأة رؤوسهم، نحو أرضية الحافلة: [كل واحد ينظر الى حذائه، مفهوم؟].

هكذا كان أحدهم ينبح، الويل كل الويل، والحال هذه لمن يجرؤ ويرفع رأسه لأيما سبب كان.

الغريب أن أفراد المفرزة المرافقة لنا، والبالغ عددهم ستة أشخاص بأمرة ملازم شاب، المدججين بالأسلحة النارية والهراوات، يتبارون جميعاً بعدم رفع رؤوسنا، ويحفظون قاموساً مشتركاً بأحط مفردات اللغة العربية، الفصحى والعامية، وأقذرها يطلقونها كما لو أنهم يهتفون في ساحات التدريب المتوحشة بواحدة من هتافاتهم (الثورية!) بأصوات كلبية حادة وعدائية، يطلقونها من دون سبب واضح، سوى إفهامنا أننا سجناء، ومن ثم توّجب إشعارنا، على الدوام بالإهانة!

بعد ذلك اكتشفنا، ويالهول ما إكتشفنا إن المغزى الحقيقي من وراء تكبيل أيدينا خلف ظهورنا، مثلما شاهدت أقرانهم من العسكريين يفعلون بالأسرى الايرانيين حين يطوفون بهم في الأسواق، وتشجيع المنحرفين والمنحرفات على توجيه الاهانات، غير المبررة لهم، وكذلك مسألة منعنا من رفع رؤوسنا وإجبارنا على وضع أمتعتنا عند مؤخرة الباص، وليس على سطحها مثلاً، ذلك لكي يتسنى لهم، ياللعار أن يسرقوا كل ما يمكن سرقته من أمتعتنا الفقيرة ثم يبيعونها، ويقتسموا المبلغ!!

نعم، هذا هو الذي يحصل بعد كل وجبة يرسلونها من تسفيرات الشعب والتسفيرات الأخرى المشابهة، سواءٌ الى سجن أبو غريب أو الى السجون الأخرى الموّزعة على خارطة الوطن الذبيح، ومن لم يصدق، فليطرق رأسه بأقرب حائط إليه!

وبدأت الحافلة الحزينة رحلتها بمقاعدها المحطمة، وأرضيتها القذرة، وركابها المهزومين المشحونين شحن الخراف.

ليتهم، مسؤولو التسفيرات علموا كم أنني غير راغب وقتها برؤية أي شيء. كنت تواقاً الى النوم: فراش بسيط في زاوية بعيد عن العالم، عند تخوم غابة أو خليج مهجور، وإن ما يجيش في دواخلي من إحتقار شديد، لأمور شتى ينز كالسم الرعاف، ثم ماذا سيرى الواحد منا حين يسمحون له بالنظر الى الشوارع القذرة المحتلة؟ أهناك من شيء سوى الفراغ وقد تكوّم على فراغ؟ بلاهة متشابكة مع بلاهة أخرى؟ خواء يملأ الشوارع والساحات والبيوت. خواء رهيب مثل صدى نعيب أسراب الغربان عند المقابر في مساء خريفي. فجأة إرتجت بنا السيارة بشدة، إذ ضغط على ما يبدو السائق على الفرامل بقوّة لسبب ما، فلمحت في مثل لمح البصر ومن دون رغبة مني ما يقع الى يميني خارج السيارة: لوحات زرق عريضة لتقاطع مروري– معلم لحضارة ملفّقة– عرفتُ من إحداها أننا نقف عند تقاطع (حي الخضراء) المؤدي الى الطريق السريع الذي يربط

بغداد بمحافظة الرمادي، وفعلاً إنسابت الحافلة يميناً، ثم راحت تنهب الشارع شبه الفارغ بإتجاه الشمال الغربي، وكنتُ قد لمحت أيضاً، كيف تتكوم عند التقاطعات المجاميع البشرية وهي تراوح كعادتها، شأن الحيوانات الداجنة بإنتظار أن تمر بها، مصادفة سيارة نوع (TaTa) من سيارات الكويت المنهوبة، التي من دونها لتعطلت الحياة تماماً في بغداد، لتنقلها الى أيّ من الاتجاهين المتعاكسين: الكاظمية، أو البيّاع.

طوال الطريق وأنا أسند ناصيتي الساخنة على حديدة المسند الخلفي للمقعد الذي أمامي، وكان يشاركني مقعدي مواطن مصري، همس شبه باكٍ راجياً إياي أن أرى ما الذي حلّ بكفيه، أنه يحسّهما بحجم السيارة على حد قوله. استرقت النظر إليهما، كانتا زرقاوين وارمتين، يكاد ينفجر منهما الدم في أية لحظة إذ ربطوا الحبل على معصميه بقسوّة، ولكي لا اصيبه بالرعب، هوّنت عليه الأمر، غير أنه ظل على عادة الأخوان المصريين حيث يستشعرون الألم مضاعفاً، ظلّ يلح إذ يرجوني، كل خمس دقائق تقريباً، أن أطمئنه من أنّ كفيه مازالتا في مكانيهما من ذراعيه، وإن الحبل الرفيع الذي لفوه أكثر من مرة، وبعدائية شرطة العراق المعروفة حول معصميه لم يقطعهما، ولم يكن أمامي وقد زاد من إلحاحه وإضطرابه، غير أن أتحلى بالصبر، وأهون عليه المسألة، على فظاعتها، فهمست له:

"– دقائق يا أخي، دقائق قليلة ونصل، شدّ حيلك يا باشا!"

كنتُ أطمئنه، اشجعه وإلا فقد صوابه ونهض صارخاً، حينها يكون قد وضع أمامهم، على طبق من ذهب، مُتبل ومُسلفن مصيره، إذ كما عرفتهم بالتجربة سينهالون عليه بالضرب المبرح، وقد يمعنون في عذابه أكثر فيضاعفون من شد وثاقه– مثلما فعلها معي ضابط معاونية شرطة حي صدام، ذو الوجه الشبيه بوجه الخروف– ويتخذون منه وسيلة تطوّعت من تلقاء نفسها، لتمضية الوقت وتأديب الآخرين حتى وأن كانوا مثلما هم الآن، محنطين على مقاعدهم، رؤوسهم نحو أحذيتهم، لعباً مطاطية مُضحكة، فضلاً عن سيول عبارات الفحشاء، بحيث يظل يتذكرها الى آخر يوم في حياته، تنال منه ومن شرف أسرته وعشيرته ومدينته ومن مصر بأكملها، وقد يسمعونه كلاماً موجعاً، مثل:

"– ما الذي يبقيك معنا ونحن في الحصار؟ إسرائيل هه!."

توقفت الحافلة، وهبط منها بعض الحراس لوقف السير القادم من جهتي الشمال

والغرب، فاستدارت الحافلة الى اليسار بدرجة ١٨٠، فلمحتُ خلسة منارة جامع عرفتُ منها ومن صف الدكاكين الفقيرة القذرة المحيطة بها، إننا قد وصلنا منطقة (خان ضاري) لحظات وإنحرفت الحافلة يميناً، ثم توقفت، وعرفتُ إننا عند البوابة الرئيسة لسجن أبو غريب المركزي، فتذكرت قصتي القصيرة (بلا أبواب ونوافذ) التي إستلهمت أحداثها من عالم هذه المتاهة الرهيبة، التي حين تمكنتُ من نشرها في جريدة القادسية أثارت إعجاب ودهشة الكثير من الأدباء والقراء، وسخط الحزبيين البعثيين، ثم نجحت بضمها ضمن مجموعتي القصصية الثانية ضباب كأنه الشمس عام ١٩٩٤ بفضل من خبيرها الرائع، المرحوم د. علي جواد الطاهر.

إبتسمت في مرارة لسخرية القدر الفجة، فهذا المكان الشرس الذي زجوني به أكثر من ست سنوات [بناءً على مقتضيات المصلحة العامة..] وتحوطاً من نشاطي اليساري، ثم جاهدت طويلاً لأتخلص من أجوائه المرعبة أيام الحرب الصدامية، الايرانية الضروس كموظف في المؤسسة الصحية للسجن، ها أنني أعود اليه، لكن سجيناً هذه المرة.

دخلت الحافلة الى باحة السجن الواسعة، وكانوا قد سمحوا لنا أن نرفع رؤوسنا، ونتخلص من الحبال وشرائط البطانية التي غارت عميقاً في لحم المعاصم، ذلك لأننا أصبحنا داخل مملكتنا، وكان الحراس يضحكون منتشين فقد أوصلوا بضاعتهم سالمة، ومن دون مشاكل.

الأرض السبخاء نفسها، ونفس نعيب الغربان المشؤوم الذي يستقبل الداخل الى المقبرة، الكلاب السائبة نفسها وقد زاد عددها، المناظر القابضة للنفس حيث الجدران المتينة العالية، والأبراج وقد نشر الحراس على محيطها أسمالهم من ملابس وأغطية عتيقة قذرة، طرق متربة، وفراغ شاسع موحش، وقد نبتت متباعدة عن بعضها خمسة مبان ضخمة مثل توابيت خرافية من الحجر الرمادي هي مجموعة أقسام السجن: الخاصة الى الجنوب، الثقيلة الى الغرب، الخفيفة الى الشمال الغربي، وبين الاثنين الأخيرين يقع قسم الافراج الشَرطي، والى الشمال المبنى الخاص بالسجناء من غير العراقيين.

أنزلونا عند بوابة إحداها، وبالضجة ذاتها رتبونا وفق النسق العسكري المعروف إثنين إثنين، ثم أدخلونا من باب متين وضخم كتب عليه بخط أنيق:

[قسم الأحكام الطويلة] والى غرفة الى اليسار أدخلونا وبقية أمتعتنا التي سلمت من

سرقتهم، كانت جدرانها وأرضيتها من القذارة بحيث تنبئ بوضوح عن الأعداد الغفيرة التي مرّت بها من السجناء.

لحظات وقادونا واحداً واحداً الى غرفة مسؤول أمن القسم، في الثلاثين من عمره، تعلن حركاته ونظراته ولهجته عن غطرسة وتحلل أخلاقي. تأكدوا من صحة أسمائنا، ومدد أحكامنا، وعناوين مساكننا وما الى ذلك.

كانت أسماء بعضنا قد أصابها التحريف بسبب رداءة خط الموظفين والموظفات في دوائر الشرطة أو المحاكم أو التسفيرات، وهنا نشط فريق الحراسة المرافق لنا، إذ صححوا الأغلاط بالاتفاق مع مسؤول الأمن مقابل مبالغ مالية طبعاً، كان المسجونون الذين يعنيهم الأمر يدفعون بسخاء خشية إعادتهم مرة أخرى الى جحيم التسفيرات، وكان كل ذلك يتم بطريقة صريحة ومكشوفة مثيرة للسخرية بقدر ما هي مثيرة للأسى:

"– إدفع يولو، لو إصعد للسيارة من دون كلام–"

هكذا يقول المفوض وهو ينخس المعني بهراوته، وكان السجين يستدين من الآخرين وقد ركبه رعبٌ كبير.

لعل الأشنع من كل ما حدث حتى الآن منذ تركنا التسفيرات بطريقنا الى سدوم المهلكة، إن المفرزة التي رافقتنا وأسمعتنا أسوأ أنواع الاهانات والتجريح، عندما إنتهت من تسليمنا الى المسؤولين الجدد، وأخذت وصلاً مصدّقاً وموقعاً ومختوماً بذلك، ما أن شرعوا بمغادرتنا حتى أخذوا بصلافة دونها صلافة المأبونين، يصافحوننا، ويرددون عبارتهم البليدة المعهودة: [سامحونا شباب عن التقصير، إنها الأوامر كما تعلمون..] قادنا مسؤولنا الجديد عبر ممر طويل غطّت جدرانه عبارات لا حصر لها، بعضها لآيات قرآنية تنذر بالقصاص، وأخرى تكثر فيها مفردات محددة مثل:

الرئيس القائد، ممنوع، الهدوء، الأمة، الحزب القائد، الطاعة...

تقع على جانبي الممر قلاع كبيرة من طابقين، مكتظة بالسجناء الذين راحوا يتطلعون الى رتلٍ جديد من السجناء، كان منظرنا المشوّش بذقوننا الطويلة وأسمالنا القذرة وسحناتنا المنطفئة وأفرشتنا على ظهورنا قد ذكرّهم بأيامهم الأول قبل أن يستقر بهم المطاف أخيراً في واحدة من قلاع السجن. دفعوا بنا الى قسم الاستقبال الداخلي، وكان اليوم هو الخميس، وغداً الجمعة، ثم السبت حيث الموعد نصف الشهري لزيارة ذوي السجناء، وهذا يعني أننا سنمضي أربعة أيام هنا حتى يصار بعدها

إرسالنا كل الى سجنه.

حالما دخلنا إنبرى أحدهم فأوقفنا صفاً واحداً، وأمرنا أن نتخلى عن كل ما بحوزتنا من أقلام وأوراق وكتب، وقال بنبرة قاطعة:

"- الكتابة ممنوعة إلا بموافقة من الدائرة.."

ثم وزعنا على غرفتين عاريتين، شبابيكهما من دون ستائر وزجاج، وهذا أفضل على الرغم من برودة الجو.

كان النهار قد إنتصف وكنت لم أذق طعاماً منذ ليلة البارحة، ولعل الكثيرين منا على شاكلتي.. في الثالثة بعد الظهر، أو هكذا خيُل لي الوقت، إذ لا ساعات هنا، هناك ساعة واحدة يلمع إطارها حول معصم رجل الأمن، لكن ترى من يجرؤ على سؤاله؟ ثم عليّ منذ اللحظة التدريب على نسيان الزمن.

جاءونا بشورباء داخنة، يبدو أن السجناء رفضوها فحولوها، مشكورين نحونا حيث إلتهمنا وكأنها أطباق (مطعم الساعة) في المنصور، لماذا أضرب أمثلتي بأشياء لم أختبرها شخصياً؟ فأين أنا من مطعم الساعة الباذخ الذي لم أدخله يوماً، وإن كنت قد تسكعت أمامه كثيراً برفقة الصديق الصحفي مؤيد عبد القادر الذي يقع مسكنه قريباً منه، يقال أن المطعم يعود الى (وطبان ابراهيم) وزير الداخلية الأسبق، إذ أبناء الموسورين، المراهقين والمراهقات على نحو خاص يؤمونه زرافات، زرافات شبه عرايا، يقول الذين دخلوه وتذوقوا طعامه اللذيذ، أنهم يمضون ضعف الوقت الذي يمضونه في تناول السندويشات الشهية، حين يحصون النقود للمحاسب!!.

بعد ذلك جرت عملية أخذ المعلومات من جديد، وعلى نحو مفصل لكل واحد منا، مسألة أخذ المعلومات هذه، مسألة مُسلية على الرغم من رتابتها وبلادتها وأسئلتها المستفزة، اذ نصفها غن الانتماء السياسي، ليس الشخصي حسب، بل فيما يخص إخوتك وزوجتك وأباك وأمك وجدتك وأصدقاءك، وأبناء عمومتك وخولتك، لم ينسوا الاستفسار عن إنتمائه السياسي، إلا شيئاً واحداً، لا أدري كيف فاتهم ذلك وهم المعروفون لديّ جيداً بذكائهم وفراستهم وفطنتهم، إذ سهوا في السؤال عن الهوية السياسية لسيارتك، إن كانت لديك سيارة، أو حصانك أو حمارك!

حين تذكر أنك مستقل سياسياً، يحدقون في وجهك وقد جحظت عيونهم المخططة بالدم فرط دهشتهم وإمتعاضهم وغضبهم الكظيم.

قلت قضية مسلية أخذ المعلومات هذه، ذلك أنها تنظم الذاكرة المشتتة للسجين بعضاً من الوقت، مستهلكة قسماً من وقته الرخيص الفائض المجاني، إذ أن أبغض الأشياء الى روح السجين وفؤاده، وأكثرها كرهاً واشمئزازاً، إنما هو الوقت سنوات كان أم شهوراً أم أياماً أو ساعات أيضاً فالذي ينادى عليه للتأهب لإطلاق سراحه تراه يدب هنا، وهناك، في كل مكان أو زاوية ممكنة حائراً ما الذي يصنعه بالساعات القلائل التي تبقت واقفة مثل جدار من رصاص يفصل بين عالمين مختلفين إختلافاً مطلقاً، لعل مسألة إختلاف الضوء والظلام لا تمثل سوى جزءٍ بسيطٍ في دلالتيهما الذاتية والموضوعية.

فجأة بادرني ضابط الأمن وهو يقلّب ملخص محكوميتي، ويبدو أنه قرأ مهنتي:

"- أتعرف الأستاذ طراد الكبيسي؟"

"- نعم، وعلى نحو جيد".

"- إنه خالي-"

وكان عليّ أن لا أدع فرصة مباركة كهذه تفلت مني فقد يساعدني في أيامي الثلاثة التي سأمضيها في مملكته، فاشغلت محركات ذاكرتي العاطلة بطاقتها القصوى: [إنه والد المرحوم النقيب عماد، الذي وجد مقتولاً في ظروف غامضة في شقته في الكرادة، أقام الفاتحة في جامع (ملا حويش) قرب نفق الشرطة، أعتقد أنني رأيتك هناك إذ أن شكلك ليس غريباً عني، ثم أنه زوج زميلتي الشاعرة وداد الجوراني، هو الآن مدير عام دائرة الشؤون الثقافية العامة، إنه شاعر معروف، ورجل ثقف نفسه على نحو ممتاز.."

رفع رأسه نحوي لغزارة معلوماتي عن خاله، تبسم في ارتياح واضح، ثم طلب مني الجلوس على مقعد قريب منه، وكلفني في أن أساعده في عملية أخذ المعلومات، لقد تحوّلت في لحظة من سجين مهمل، الى موظف معلومات إذ اصطف السجناء أمامي ورحتُ أرشدهم على كيفية ملء الاستمارات

عند الانتهاء طلب مني كتابة ثلاثة أدعية يرددها اثناء تأديته الصلاة، كانت مفارقة من تلك التي نطلق عليها نعت: المضحك، المبكي: وتساءلت في نفسي حائراً:

"- متدينون ويعملون في مؤسسة أمنية خارجة على كل ما له علاقة بالرب وأديانه فضلاً عن ابسط مفاهيم الانسانية، كيف!؟"

ثم أنني ببساطة لم أعد أقرأ أو أحفظ شيئاً في موضوع كهذا كنت قد قاطعته منذ بدايات وعيي المبكر. لكن ماذا يضيرني لو كتبت له، وماذا سأخسر، ثم ألم أكن قد قررتُ في ساحة التسفيرات بضرورة أخذ الأمور بروح السخرية والدعابة، لئلا ينفجر قلبي أساً أو غضباً؟.

إنتحيت جانباً، وكم كانت دهشتي كبيرة فقد اكتشفت أول مرة إنني أستطيع أن أكتب في هذا الجانب أيضاً على نحو أفرح، أيما فرح ضابط الأمن، فكافأني بأن أعطاني قطعة كبيرة من الحلوى، وطلب من سجين أن ينقل فراشي الى غرفة لا يشاركني فيها سوى سجينين من أفراد الأمن أوصاهما بيّ خيراً.

كنت قد ضمّنتُ، عن قصد الأدعية عباراتٍ كثيرة توصي بالرحمة بالمظلوم، ووضع كتاب الله وسنة رسوله، نصب أعين القيمين على أمور العباد. ما أن حلّ المساء حتى بسطنا أسمالنا على الاسمنت البارد، وتكوم الجميع، كل على فراشه، وغرق في نوم عميق.

كان أشد ما يسليني حفيف أوراق شجرة قريبة وصوت المطر الذي راحت بعضُ قطراته تدخل علينا من الشباك العاري، فألتف أكثر فأكثر بغطائي، وأغمض عيني على أحداث اليوم، وعلى سلسلة من ذكريات بعيدة لا تريد أن ترأف بروحي المطعونة.

الفصل الرابع

بانوراما باتساع حياة شعب مُستباح

عند منتصف النهار جاء من يأمرنا بالتهيؤ لإرسالنا كُلّ الى جمهوريته، حملنا أمتعتنا وسرنا رهطاً، أحد الحراس من أمامنا، وآخر من خلفنا، وأصابع كل منهما مثبتة على زناد رشاشته.

كنا رتلاً حزيناً، مكسوفاً وصامتاً، فقد كنا نعلم أنهما بعد دقائق سيوزعوننا كل الى مصيره، ويعودا يمارسا المهمة ذاتها مع آخرين غيرنا قد يصلون اليوم أو غداً.

في منتصف الطريق، بين قسم الأحكام الثقيلة الذي تركناه خلف ظهورنا، والافراج الشَرطي توقف الرتل، فصلا عنه أربعة توجه بهم أحدهما نحو قسم الأحكام الخاصة المرعب، وهو القسم الخاص بالتهم السياسية والجاسوسية، وما أكثرهما.

إستمر الرتل يتقدم وبعد مسافة أخرى توقفنا أمام قسم الأفراج الشَرطي حيث تم عزلي وثلاثة آخرين، وتسليمنا الى حارس شاك السلاح، وتوجه بقية الرتل، بعد أن ودعنا بعضنا الى قسميّ: الأحكام القصيرة، والسجناء من غير العراقيين. كالأسرى أجلسونا على الأرض، وبعد أخذ ورد مطوّلين بين الادارة ومسؤولي القواطع، كنتُ أخيراً من حصة (الجملون!).

ما أن خطوتُ بداخله حتى غامت عيناي أول الأمر، طرحت فراشي قرب الجدار عند مساحة خلتها فارغة لأستعيد بصري حتى إنتهرني أحدهم بصوت عدائي:

"- أرفع فراشك، وأبحث لك عن مكانٍ غير هذا".

"-......"

"- أطرش؟ خوما أطرش!"

وإنحنى في غضب ليرفع فراشي ويقذف به، لا أدري لحظتها ما الذي حل بيّ إذ فقدتُ في جزء من الثانية كل ما كنت قد وطدّتُ العزم عليه، وهو أن أتحاشى قدر المستطاع الدخول في مشاكل مع الآخرين، فوجدت نفسي أنحني وبالسرعة ذاتها التي تصرّف بها الآخر، وأطبق ذراعيّ على رقبته، وأركل خاصرته بركبتي، تواً، هبّ عدد من السجناء القريبين منا وفرقونا، وعلى صوت الضجة دخل أحد الحراس مستفسراً، وكان

البعض يوبخ المعتدي، ويتهمه بالتسرع، وكانت القاعة على إتساعها قد إزداد ظلامها في عينيّ، وإرتفع طنينها في أذني، حتى أنني لم أكن أسمع ما كان الحارس يوجهه لي من كلام، كنت صامتاً أرتعش من الغضب، وأفتح عيني على وسعهما متوعداً في وجه السجين الصفيق، وأنبرى سجين ينادونه (أبو علي) في الخمسين من عمره – سيكون لي كلام كثير عنه في القادم من الأيام– أخذني من يدي، بعد أن رفع تحت إبطه فراشي وقادني الى مكانه من الجملون، وهناك وبالإتفاق مع الآخرين المجاورين له، أفسح لي مكاناً، بعرض ذراع واحد، أجلسني بقربه، قدم لي سجارة، وطلب مني أن أهدأ:

"– إنه مأبون، لا عتب عليه.."

يقصد السجين الذي تسرّع بحقي وقد غادر الى خارج القاعة، والذي سيظل يتحاشى في الأيام القادمة التعرض لي، وإن ظل يحيك المؤامرات الوضيعة ضدي في الخفاء. مساحة الجملون ٢٠ × ٥٠م، وإرتفاعه أربعة أمتار، كان في الأصل ورشة نجارة لتأهيل السجناء لكن [بناءً على ظروف الحصار الصهيوني الأمريكي على قطرنا المجاهد الصامد..] الى آخر المعزوفة، الديباجة الوسخة الصفراء الجاهزة كلما أرادوا التنصل من مسؤولية ما، صحية أو ثقافية أو غذائية أو خدمية، الأمر الذي تم بموجبه إلغاء أقسام التأهيل كافة، وبيع محتوياتها الى القطاع الخاص، وتحويلها الى قاعات للسجناء الذين هم في إزدياد مضطرد.

يضم الجملون أكثر من أربعمائة سجين، بمعنى أن المساحة المخصصة للسجين الواحد هي بحدود ٢ م٢ فقط.

حين هدأت ثائرتي رحتُ أنقل بصري في (عالم الجملون) العجيب، وكان الخلق المرمي على إمتداد مساحته يبدو جلياً قد تكيّف مع وضعه الجديد، فهناك من يتحدثون وقد جلسوا على شكل مجاميع، وآخرون يعملون في أشغال النمنم، وحياكة الأخفاف، والبعض يقرأ في مجلات قديمة، أو يصيحون على بعضهم بأصوات عالية، أو يضحكون أو يتشاجرون، أو يأكلون أيضاً، وكنت أهتف بداخلي مرتاعاً: [ياالهي! إله الشرق المخصي، أحقاً سأنجح في تمضية شهور محكوميتي في هذا الجحيم، من دون أن أصاب بالجنون؟–].

وكانت الصرر والحقائب التي ثبّتوها بالمسامير تتدلى على الجدران، وقد جلس أصحابُها تحتها واضعين البطانيات الحائلة على أكتافهم، فيوحي منظرهم بمشهد من

مجاميع الأرامل وقد إنقطعت بهم السُبل.

البعض علق حول رقبته خيطا متينا فيه مفتاح صندوقه الحديد الخاص، خوفاً عليه من الضياع، أو السرقة حين ينام فيستولي اللصوص على محتويات الصناديق من متاع كانوا قد تلصصوا على صاحبه وهو يفتح صندوقه.

مرّ النهار الأول وجاء الليل، وكان (أبو علي) يهون عليّ، ويضحك من فترة محكوميتي، محاولاً، في طيبة كبيرة جرّي الى الحديث:

"– كلنا كنا مثلك في بداية الأمر، بعدها إستقر الحال، يا أخي الحياة قسمة ونصيب، هذه قسمتنا منها، وهذا نصيبنا..".

حين نهضت باتجاه المرافق الصحية لأقضي حاجتي، وأغتسل وأتهيأ للنوم، وجدت هناك في الحيز الصغير صفاً من السجناء يرتعشون من جراء برودة الماء حين يغسلون أيديهم أو أرجلهم أو ملابسهم، يصفون قسوة الماء بوخز المسامير أو حطام الزجاج أو الشظايا، بعد نصف ساعة إنتظار بين الجمع المدثر بالأسمال تَعِطٌ رائحة أجسادهم أقوى من رائحة المرافق الصحية، تدبرت أمري، وعدت أتمدد على فراشي وأنا شاعر من ان كل أغطية العالم لن تدفئ جسدي!.

إدارة السجن تمنع إشعال النار حتى وأن كانت نارِ قناني الغاز التي يستخدمونها للطبخ في ساحة خارج الجملون، وقد زاد من برودة المكان علو البناء وإتساعه فضلاً عن شبابيكه التي تربو على العشرين شباكاً عاريا من دون زجاج أو ستائر حيث تتدفق تيارات الرياح الباردة على إمتداد الليل والنهار، بعض السجناء يذكر إن إدارة السجن جمّعت من السجناء أنفسهم مبلغاً لشراء كمية من (النايلون) تكفي لتغطية الفتحات، لكن ها قد مضى أكثر من شهر ولم يأتوا بالنايلون الموعود، وأضيف من جانبي فأقول: مرّ الشتاء بأكمله ولم نرّ النايلون أو غيره، وكانت أجوبتهم في كل مرة يتجرأ أحد السجناء ويسألهم، تسويفية ملّفقة:

[حسناً، لقد أرسلنا من يشتريها.. أو لم نجد في السوق النوعية التي نريدها.. في كل الأحوال الجمعة القادمة ستكون جاهزة..].

وهكذا، وهكذا فأيقن السجناء أن النقود التي جمعوها مما يجود به أهلهم على عوزهم، إستولت عليها إدارة السجن، فأسلموا أمرهم الى الرب القائم في السموات الطباق، ولم يكن في مقدورهم فعل أيما شيء، غير ما أعتاد عليه آباؤهم وأجدادهم من

قبل حين يتعرّضون الى الابتزاز والاذلال من قبل السلطات سوى الثرثرة وترديد [سلّم الظالم الى الله..].

أيام ثقيلة بطيئة ومتشابهة مثل وجوه القردة، تبدو لي على الدوام أنها لا تريد أن تتحرك ولو سنتمتراً واحداً الى الأمام، بقدر ما كانت تركض الى الوراء على مليون ساق طويلة، وهذا يعني أن عليّ أن أقطع الأمل في الغد، وأرضى بالحاضر، الحاضر وحده، وطبعاً كان متاحاً لي بفيضان غزير من الوقت أن أتصفح الماضي بخيباته وانكساراته واحباطاته ومشاريعه المؤجلة أبداً، وطموحاته المضحكة التي لم تمنحني سوى التعجيل بإبيضاض شعري وأنا في سن مبكرة إذ كنت سادراً في سذاجة الانسان العربي وبلادته أشاكس الانكسارات تلك بأن أعمد الى صبغ شعر رأسي بالأسود الفاحم، وأختار لقمصاني الألوان الحارة، وأواظب على عادتي الليلية الذميمة المتمثلة بكرع كؤوس (العرق) المحلي المقزز برائحته الصادمة، رائحة النفط أو النفتالين أو زيت الخروع، وأكتب على هدى من نثيثها الساحر!

وأخيراً إكتشفت، وأسفاه أنني انما أفعل ذلك، فانما هو قانون الاعتراف الصريح والمبطن في آنٍ في أني قد شعرتُ مبكراً بالانطفاء!

وإلاّ ما معنى إقدامي على الزواج، مرة ثانية بعد أن انتهى الزواج الأول الى فشلٍ سريع؟ ألكي أضع المزيد من الأثقال بنفسي حول قدمي طائري الذي كان يتحرّق للطيران في الأعالي، بعيداً، بعيداً جداً، أثقال سوف لا تترك لي لاحقاً مجالاً واسعاً للحركة، أكثر من التجوال حول بيتي، وجر الثعلب، حيث رحتُ أنجب أطفالاً بالهمة نفسها التي تنجب فيها الأرانب، وأخلع عليهم أسماءً رنانة:

نجوى، مسار، سلام، سامر، أنس!

ولولا تحوطات زوجتي التي فرضتها عليها دوافع الحرص بالابقاء على رشاقة جسدها كموظفة، لكان لديّ اليوم عدد كبير منهم! إذ كنت أشعر، وقد زايلني توقد الذهن أثر مجئ مولود جديد، من أنني انما أفعل ذلك مدفوعاً بهمة المؤسسين الخلب من نوع مؤسسي الأحزاب، والنقابات، والنظريات الفنية، والمدن الجديدة، وكنت أطمئن نفسي التي تتوق أحياناً الى الهرب بعيداً، أطمئنها: أنني هنا في بيتي، في وظيفتي، في مدينتي، بين اصدقاء ثرثارين صخّابين سأكون أفضل بكثير مما ينتظرني هناك في الخارج المجهول.

حتى إذا وعيت ما صنعته بنفسي من القيام بواجبات تافهة، منافية لطبيعة الكائنات الخلاّقة التي كنت أحسب نفسي واحدة منها، عبر سلسلة من السنوات المحنطة بين أرتال من المزيفين من ساسة وأدباء ومثقفين ورجال دين ورجال إعلام، كان زورقي قد يبست من حوله الوحول، وأمسى بعيداً عن الشاطئ المرتجى.

ولعل الأقسى من هذا والأشرس صارت تتلبسني رؤى تجريدية للأشياء إذ أن البلاغة الضمنية لكلمات محددة كان للفظها جرس مرح خاص مثل: أدب، إمرأة، وظيفة، صديق، إبن صارت لا تتطلب مني صفات أو نعوت أو شروحات مطوّلة للدلالة على تفردها، أكثر مما تتطلبه كلمات صماء من نوع: باب، كرسي ثلاجة، طين، مكنسة، فقط الحانة وحدها ظلت مضاءة!

في هدأة إحدى الليالي– أهناك ليلة واحدة هادئة في السجن؟– تناها الى مسامعي عبر جهاز مذياع صغير يحمله الحارس الرابض فوق السطح على الرغم من البرد الوحشي، أغنية سعدون جابر الشجية [محمد، بويه محمد..] تذكرت أبي الذي وافاه أجله بعد يومين من إجراء عملية جراحية للبروستات بسبب من أهمال الطبيب الجرّاح، ورداءة التمريض في المستشفيات الحكومية، إستعرضت حياته، حياة بائع جوّال، وكيف كان حين ينادي وحيده، ووريث شقائه إذ يرفق إسمي، أو يسبقه بكلمة (بويه!) باللكنة الجنوبية التي تقطر حناناً ومحبة:

[بويه محمد! محمد بويه..]

وفيما المغني يكرّر لازمة الأغنية، تذكرت أطفالي، فهم أيضاً ينادونني باللهجة ذاتها، وإن كانت ليست بقوّة الحنان التي توحي به العبارة حينما تحررها حنجرة أب، وكان (أنس) آخر حبات العنقود الحامض، ابن التاسعة، هو الأقرب الى ذاكرتي، فرحت أستعيد سلسلة من أفعاله البريئة المُسلية، مثل جلوسه خلف مقود سيارتي العاطلة بإستمرار لأن ليس لدي المال الكافي لإدامتها على نحو سليم، والقيام بحركات السائق، وتقليد أصوات المحرك وناقل السرعة حتى إذا ما أخذ المدعي السيارة كتعويض إذ سحبها عاطلة هو وشلة من معارفه أمامنا دونما شعور بالحياء، إستبدل أنس سريراً مهجوراً في الحديقة المهجورة هي الأخرى بديلاً عن السيارة، وكيف كان يطل عليّ برأسه الصغير ووجهه الوردي المدوّر وأنا في خلوتي الليلية بين الكأس والأوراق، ويهتف قبل أن يهرب ضاحكاً الى غرفة أمه: [إلما يشرب عرق، ما عنده شخصيه، إلما

يشرب عرق..] حين سألت أمه ذات مرة عن مصدر هذه العبارة الغريبة على وعي طفل في مثل سنه، قالت بضحكتها الشامتة المعهودة حين يكون حديثنا عن الأدب أو الخمرة:

[تعلّمها من أولاد أم حسين..]

أم حسين هذه جارتنا تستقبل زوجها ميكانيكي السيارات بتلك العبارات العابثة حين يعود ليلاً وهو مسطول إذ يدق بكلتا يديه على الجدران بدلاً من أن يطرق على الباب أو يستعمل الجرس الكهربائي، وترتفع من جهة زوجتي ضحكة التشفي، في حين ترتفع بالمقابل زفراتي، وأقول لها متسائلاً وأنا أنظر مباشرة في عينيها السوداوين الصغيرتين الحمقاوين:

[تعلمها من الاولاد أم من أمه التي أخذتها عن أم حسين، وربما من غيرها؟]

فيزداد ضحكها، وتطوح بيديها الصغيرتين البضتين في الهواء متصنعة الاحراج، وترد بلهجة مصرية تجيدها من جراء جلوسها الطويل أمام التلفاز:

[زيّ بعضهُ، والنبي يعُمده..].

أبتسم وأشد الأغطية حول جسدي، ومن مكاني المتوحش هذا توسّعت رقعة المشهد في خيالي، وهجمت عليّ رغبات منسية منذ عدة شهور، فأحسست بالشوق، شوق الذين طال سفرهم في الصحارى الشاسعة اللاهبة الى الوصول لأقرب ظل ونبع ماء، ورغيف ساخن، وطاسة كبيرة مملوءة باللبن المبّرد، وكان شوقي يتمدد ليطال نصف قنينة (عرق) من نوع العصرية، يتخلل رشفات إحتسائها البطئ، طبق (لبلبي ساخن) وآخر لبن خاثر متبل بالثوم، وأغنية (فات المعاد)، يعقب ذلك عشاء خفيف ومتواضع: رغيف خبز وقطعة جبن وخضار، ثم الرقاد، ولتكن رقدتي الأخيرة في هذه الحياة العمياء على سرير نظيف ودافئ، فقد أذلني كثيراً النوم ووجهي نحو أقدام السجناء، يخطو من فوقي الرائح والغادي، في هذه القاعة الكريهة الرطبة.

دمعت عيناي، وأحسست بغصة كبيرة لا يسعها صدري، أزحتُ الأغطية واسرعت خطاي نحو (السفريات) لأتخلص من غصتي المجهضة، وأن كان عن طريق البكاء المكظوم!.

وفي فوضى تخيلاتي المتطيّرة هذه، رأيت وأنا أعود أدراجي الى مهجعي بعد أن بكيت طويلاً ليس على نفسي حسب، بل على جموع السجناء التعيسة، وعلى وطن بهي

وعظيم وقد صيّرته حفنة من اللصوص والقتلة خراباً يباباً، وكنت قد غسلت جيداً آثار الدموع لئلا يلحظها أحدهم فأقع في دائرة النكتة المرة التي كثيراً ما أوقع بعضهم البعض فيها، رأيتُ، أو خيل لي أنني أرى مئات الوجوه قادمة بإتجاهي شامتة أو حزينة من أماكن قريبة وبعيدة، وجوه نساء ورجال كنت قد عملت بمعيتهم سنينا طوالا في مستشفيات البصرة، وبغداد، وأخرى لأشخاص ألتقي بهم شبه يومي سواء في مقهى (حسن عجمي) القذر أو نادي الاتحاد، أو كراجات النقل العام، او مبنى وزارة الصحة حيث عملت سنوات عدة في قسم الاعلام والتثقيف الصحي، وكذلك في جريدة الجمهورية، وجوه نسيت في جلجلة حياتي أسماء أصحابها حتى من كانت لي معهم علاقات خاصة، ونسيت كذلك نبرات أصواتهم المميزة، وألوان ملابسهم، شققتُ في صعوبة طريقي من بين جمهرتهم، وأنا أدفعهم بقوّة بكلتا يدي الى الجانبين أنهرهم، وقد أشتم بعضهم، وكان آخر الوجوه التي دفعتها في فظاظة واضحة عن طريقي وجه القاضي الأحمر الصلف والمترفع، وهو ينطق في وجهي الكسير حكمه الجائر الذي لا يمكن مناقشته، فضلاً عن الاعتراض عليه. لقد أطلقه وكفى، وعليك أن تقتنع بذلك وتشكره، وتبدي لسيادته ما يثبت أنك راضٍ ومسرور، وإلاّ ضاعف من مدة حكمك، فهو حر، والقانون بين يديه عجينة أو شريط من مطاط!.

وإذا ما فكرت باستئناف الحكم، فعليك أن تقدم على ذلك من مكانك وأنت داخل أسوار السجن، لأن الاستئناف مسألة تعد تحدياً للقضاء، وطعناً في شخصية القاضي.

وفي كل الأحوال إذا لم يكن لديك من يتابع قضيتك من ذويك بحماس، ويدفع للقضاة وأشباههم في سخاء، فقد تمضي مدة حكمك ولن يأتيك جواب عن طلب الاستئناف الذي يكون قد ضاع بين أكوام البريد المهمل، أو عمد أحدهم من إدارة السجن أو المحكمة الى تمزيقه.

أخيراً وصلت الى فراشي، بعد أن تخطيت بحذر شديد عشرات من جثث السجناء المكوّمة لصق بعضها، فالويل فيما لو اضطرب توازني وأنا أنقل قدمي، ومسست أحدهم، من دون قصد طبعاً لتسببت في إنفجار عاصفة من الملاسنات البذيئة يستغلها البعض ممن يلازمهم الأرق، وما أكثرهم إذ لن ينتهي الأمر بسلام. كانت آخر صورة لوجه رافقني الى فراشي هي صورة زوجتي، التقطتها في ذعرٍ، عضضتُ عليها بأسناني المصطكة من جراء البرد والجوع وزحام الذكريات والشبق المُمِض..

الفصل الخامس

مشاهد من داخل الجلجلة

لا أدري إن كان هناك في العالم بأسره، سجناء في مثل هذه الكثرة؟ ولكن على ال
من أن أيامهم وسنواتهم، ما هي إلاّ عبارة عن بطالة متصلة، غير أنهم وهم يتحر
لقضاء حاجاتهم تراهم مسرعين في سيرهم، يحتكون ببعضهم، ويتدافعون بالمن
والأيدي فتحصل فيما بينهم المشاجرات والملاسنات الفجة، ذلك التزاحم والت
الوحيد الذي جلبوه معهم، دونما نقصان من الشوارع! حتى اذا ما أنجزوا ما يدور،
لا يدور في أذهانهم الممسوخة، جلسوا يثرثرون معيدين الكلام ذاته، والذكريات ذا
ثم يأخذون بالتثاؤب، وينطفئ بريق عيونهم الفارغة، فيتمددون على أفرشتهم اله
أو على الأسمنت مباشرة، البعض يتجه نحو النوم، الباقون يسهرون حتى يصر
النعاس في أماكنهم، والقسم الثالث يخترع أفعالاً، أو ألعاباً لتزجية الوقت.. يا لم
السجين من بشع بشاعة خاصة!.

يحيكون الكلشان، وأعمال النمنم، وتطريز المناظر الطبيعية والحيوانات على قم
الاكياس والحقائب، ثمة نفر منهم يجد راحته القصوى في اللغو الفارغ، فالسجين (
خلاطة) مثلاً، نسبة الى تهمته التي هي سرقة جهاز خلاط مرطبات عتيق من ،
لأحد أقاربه، فقد اخترع طريقة خاصة به للغو، تتمثل بقيامه ما أن يرفع رأسه الكر
من النوم باطلاق النكات تارة، والغناء تارة آخرى، هرباً مما تتكوم عليه من أط
المشاعر المجنونة على حد قوله، مردها جريمته الساذجة التي قادته للسجن،
كاملة، الأمر الذي من جرائه تركته زوجته، وذهبت الى بيت أهلها مصطحبة ،
طفليهما، ورفعت ضده قضية طلاق! كان في البداية يجد من يتجاوب معه، غير أنه
صار يكرر الكلام نفسه، أخذ جمهوره بالتناقص.. إنني أخشى أن يستيقظ في
قريب، ويجد نفسه وقد أنفض من حوله الجميع، فيعمد الى ايذاء نفسه!

أطلقت، من جانبي نعوتاً على البعض ممن يحيطون بمكان منامي، وأن هذه الن
لدّقتها أخذت طريقها للتداول كألقاب شهرة، وإن كان بعضهم يغضب حين يطلق ؛
أحدهم نعته للمزاح، أو للاثارة، فيروح وهو مستعد للدخول في مشاجرة يسمعني ك
خشناً أتجاهله، وأظل مصراً على اطلاق نعوتي حتى يتركني أصحابها أعيش في س

بعيداً عن مناكداتهم، فمثلاً: زامل، سميته (الحولي)- حيوان الجاموس الصغير- وسالم، صخل.. وراضي، طنطل.. وناصر، فأرة.. وعباس، عكركة، بمعنى ضفدعة.. وخالد، حيه.. وهي نعوت لها علاقة قريبة من سحنات وجوههم وتقاطيعها، او تكوينات أجسامهم، أو سلوكياتهم.. دائماً أجرب أن أعزل نفسي عنهم، على الرغم من استحالة ذلك، لأنني أعيش بينهم، فأنجح مرة، وأخفق مرات، ذلك أن حالتنا جميعاً، هي حالة المعزولين في مكان مُقفل وناءٍ، حيث لا أُلفة ولا روابط مشتركة، إذ كل واحد ينشد تسيّده على الآخرين، كلٌ امبراطور نفسه!

كانت البذور في البدء تنمو تلقائياً فيأخذ الناس منها كل حسب حاجته، ثم بدأ السقوط حين شرع البشر يتقاتلون من أجل الحصول على أكثر مما يحتاجونه، ثم جاء السقوط الأعظم يوم بدأ الانسان يقتل الانسان الآخر، أو يتحايل عليه ليس من أجل أن يأكل ليعيش، بل من أجل أن يثري، اذ راح يستحوذ بالقوّة على حق الآخرين بالحياة، حتى انتهى في الأخير وكما نشاهده اليوم، بشعاً لدرجة أنه بات مستعداً ليتآمر على الله ذاته، اذا ما تحوّل وقد تحوّل حقاً عبر العديد من الأفكار والاجتهادات والاطاريح الشريرة الى ورقة نقدية!.

ولذا فحتى أعزل نفسي، رحتُ أدّون ما أشاهده، إذ لا مفرّ لدي غير أن أكتب، ففي الكتابة وحدها، كما خبرتها منذ سنوات عدة، يمكن لروحي اللائبة أن تستكين بعض الشيء، ويهدأ نبض قلبي المتسارع على الدوام، وأنسى ولو لحين من الوقت هذا الصداع الملعون الذي أحس من جرائه أن مخّي يرتج داخل عظمة القحف الهشة، مثل بيضة فاسدة لأيما حركة، خصوصاً حين أسعل او أعطس، وما أكثر سعالي وعطاسي، شأني شأن هذا الجمع من الخلق المرمى بهم بفضاضةٍ وعدوانية سوداء، في هذا المكان القفر اليباب من أيّ شيء ينتمي الى مفاهيم شفافة كالعطف أو الرحمة، اللّهم إلاّ من عطف ورحمة البرد، والقمل والجوع والذل وصراخ الغربان السُحم التي تحوم، في الخارج على أكوام النفايات، وصيحات الحراس الشرسة، وصوت التلفاز الذي لا يرحم، إذ تديمه، ليل نهار مجاميع من الشياطين والسفلة والمخصيين، بكل ما هو مثير للغثيان من الأناشيد الشوفينية، والأغاني البليدة، فضلاً عن الاعلانات التي تعرض في وقاحة وعصابية، على أكثر خلق الله تعاسة: الأطعمة والملابس والسيارات والآثاث..

أكتب وأنا راقد تحت الأغطية، أكتب وأنا أرتجف في الساحة اليتيمة المكشوفة من

أجل أن أنسى في الأقل أحزاني، أحزان الوحيد المهجور والمعزول من أسرته وأطفاله على نحو خاص، وعن كتبه وعلاقاته وأصدقائه- هل بقى أصدقاء لي!؟ وقد انطبق عليهم قول الشاعر، الذي يبدو أنه قد مرّ بما يشبه محنتي، حتى تمكن من أن يبدع مثل هذا البيت الشعري الفاجع:

[وما أكثر الأخوان حين نعدهم

.... ولكنهم في النائبات قليل]

معزول عن مائدتي المسائية المباركة، صيفاً وشتاءً، وفي كل الفصول، مائدتي صديقي الوحيد المخلص الذي ظلّ يلازمني بنكران ذات عظيم، بعد أن تفرق الشمل في طرق عدة، كالسفر خارج العراق، أو الأنصراف كلياً لمهنة ما، ما كان يفكر بها يومياً، او المرض او الموت، مائدتي لها طعم استثنائي بحيث لا أعرف كيف ستكون حياتي من دونها، مثلاً في الشتاء كهذا الشتاء الملعون: غرفة موصدة، الى يميني جهاز مذياع أسمع من خلاله بعض أغاني عبد الوهاب، نجاة الصغيرة، فيروز وعبد الحليم حافظ، ونشرات الأخبار التي اتفقت مصادرها على أن ما يحدث في العالم أمسى سيئاً على نحو مطلق اذ أسمع (عزة محي الدين) مراسلة صوت لندن من القاهرة، التي تنقل تقاريرها بنبرة باكية! و(جمانة التميمي) مراسلة صوت أمريكا من عمّان، التي حين تقرأ تقاريرها، تبدو وكأنها تشرح سفرة قامت بها الى مدنٍ مثيرةٍ!! والى يساري مخطط لكتابة نص قصصي جديد، أريد له أن يكون الأفضل لكل ما سبق لي كتابته، وهذا من باب التمنيات والنوايا الحسنة، لأنه ليس بالإمكان أن يجدد الكاتب، على الدوام نتاجه نحو الأفضل على شكل خط بياني تصاعدي، لأنه قد يبدع أديب ما نصاً قصصياً او شعرياً جيداً، ثم يظل يضلع في القادم من كتاباته حول ذلك النص اليتيم المميز، غير أنني سأبذل في كل الأحوال قصارى جهدي، وخلاصة فهمي للنص المعاصر، إذ سأعكف عليه بهمةٍ مضاعفة، ذلك أنني- كما أزعم دائماً- ليس من صنف الذين يكتبون تحت الطلب، أكتب بمزاجية خاصة، أسميها بالمزاجية الارستقراطية حيث النبش، من دون تردد في كل ما هو مسكوت عنه، ولذا فان إيماني من أنني لن أستطيع نشرها بسهولة، وقد يتأخر هذا الأمر سنوات عدة، هو ايمان قائم، إذ أحيل نشرها الى زمن آخر قادم يطول، ليس مهماً، المهم انني في الأخير أتمكن من نشرها من دون تشويه، ثم أنني في أمرٍ حساس كهذا أتمثل قول (مارسيل بروست، [أنا إنما اكتب

لأستمتع أولاً بما أكتبه، أما القارئ فيجئ في المقام التالي..].

ولذا فأنا دائماً أقع في مخاصمة مع المحرر الثقافي الانتهازي، أو ذلك المنافق في هذه الصحيفة او تلك المجلة.. وأمامي منضدة واطئة ينتصب عليها مثل علامة تعجب كأسي المترعة، والى مسافة قريبة مدفأة نفطية، يابانية الصنع نوع (فوجيكا) كثيراً ما أحتويها بين ساقيّ بعد أن أرفع (دشداشتي) القطنية المخططة بالقهوائي، ولا أتركها إلاّ إذا شعرت أن حرارتها تصعد من زيق الثوب بعذوبة الى أُذنيّ.. وعلى فتراتٍ يهرع نحوي أطفالي الأربعة مسار وسلام وسامر وأنس، وكي يتركوني وشأني أرشيهم بملاعق الرمّان أدسها داخل أفواههم الوردية، وأحياناً بعض النقود.

أسمع في هذه اللحظة رجل دين مسربل بالسواد يطل في التلفاز، يطلب من المشاهدين الصلاة لينزل المطر. أضحك في سري لأفكار من هذا النوع، فيما العالم من حولنا مشغول باختراع القرن العجيب (الأنترنيت) وأتذكر قول الشاعر نزار القباني، وقصيدته التي يقول فيها:

نجلس في الجوامع

تنابلة كسالى

ونشحذ النصر

على عدونا، من عنده تعالى"

المتسربل بالسواد مستمر في هذيانه، وقد إنعطف بالدعوات الى كسر طوق الحصار، والنصر (للقيادة الحكيمة!)

يعقب رجل الدين، المغني صباح الخياط، لينشد:

"يالبعيد الروح ذوّبها الحزن

والسهر هدها

أسأل الليل بغيابك

هم تجي، وتوصل أحبابك؟"

فيخيم على القاعة صمت مُطبق، على غير العادة، وترتفع الحسرات، ودفعة واحدة تشتعل عشرات السجاير، فيرفع الشباب خاصة، مناشفهم صوب عيونهم الدامعة، ولأن

البكاء من أجل الآخرين، أو من أجل الذات الممزقة هو بداية الشفقة الانسانية الحقيقية التي تربط الناس فيما بينهم أيام المحن، فقيرهم وغنيهم، شجاعهم وجبانهم، نبيلهم وخسيسهم، على السواء، أفرح لذلك وان كنت لا أزال في المشهد، مثلي مثل شظية إنفصلت من قذيفة، أود أن أخرم قلوب الخنازير كافة، المتسيدين على مقاليد الأمور في هذا العالم المأفون. أحياناً لا أجد تفسيراً منطقياً واحداً، أزاء مشكلة الثرثرة المستمرة التي تلازم بعض السجناء، غير تفسير واحد، الهروب من التفكير بواقع حالهم الراهن، فعقولهم كما أتخيلها أشبه بالدراجة الهوائية، ما أن تتوقف عجلاتها عن الدوران حتى تسقط! والتفكير بأوضاع أسرهم التي تركوها تعيش وضعاً اقتصادياً شرساً، التفكير في أي من الوسائل التي من شأنها أن تشفي الذات المطعونة، الوسائل التي أداروها عشرات المرات في عقولهم المضطربة. المشرّحة بسكاكين الندم، لا بل مئات المرات، الندم الذي لن يتوقف نزيفه حتى يقتصوا من خصومهم الذين رموا بهم في غياهب هذا الجحيم الأرضي، بتهم ملفّقة، كما يزعمون، كيدية في معظمها، لخصومة قديمة، أو رغبة بالاستحواذ على شيء عزيز: امرأة، عقار، تجارة، رموا بهم من دون رأفة، أو تأنيب ضمير.. ليال طوال أتخيلهم وهم يختارون من بين عشرات الطرق الانتقامية، التي أخترعوها، واحدة تجمع بين العذاب الجسدي الابدي للخصم، والافلات من القانون!.

(حسين الهبِل) تراه يمضي نهاره، وشطراً كبيراً من الليل في الانكباب المرضي على ممارسة لعبة الدومينو، أنه مستعد للعب مع كل من يطلب منه ذلك، ناسياً حتى تناول الطعام، ومتجاهلاً سيل التعليقات المؤذية التي يطلقها عليه الآخرون، بمن فيهم من هم بعمر أبنائه..

نزلاء الجملون يفطرون بمناكدة، شاكر المجنون:

"– لماذا تشتم يزيد، يا جاسوس؟"

"– كل واحد منكم، يزيد وأبو يزيد!"

ويستمرون بمناكدته:

"– جاسوس! تحجي على الحجي؟" والمقصود بالحجي هنا: صدام، فينسحب وقد استشعر الفخ. يلّوح بيديه جزعاً:

"– حقهم يابه إذا اتخبلوا، كل واحد منهم محزّم بثلاث قتول!"

حين تجري أعمال الفلقة للمشاغبين من السجناء، يكون شاكر المجنون الوحيد الذي في القاعة يبتسم مسروراً لما يحدث أمامه، ويلعب بشعر شاربه الخفيف منتشياً، بل يضحك بصوت عالٍ حين يتوسل المعاقب من السجان، يقترب شاكر أكثر، ويرجو السجان الاستمرار بالضرب، ويشده أكثر، وأن لا يترك المذنب الاّ بعد أن يردد عشر مرات"أنا مرة، أنا مرة"..

وحالما يخف اللغط بسبب الانهاك الجسدي والمعنوي، أو لتقدم الوقت حتى يرفع (ثامر النشّال) رأسه من تحت الغطاء، وكأنه يترصد حالة السكون هذه منذ وقت طويل، لأن أكثر ما يثير أعصاب السجين، هو السكون! ويعوي، عواء ذئب جائع، وتواً يردد الجميع العواء، فتعلو أثر ذلك الضجة من جديد!..

أما حين يقوم (سلمان هنديه) بتأدية آذان الفجر، يكون ثامر أول من يستيقظ ليقوم بدور ديك الصباح، بمهارة لا تقل عن مهارته بتقليد صوت الذئب، فينهض المصلون بين ضاحك وشاتم، وكان يكسو وجه ثامر تعبير شيطاني مستديم من الدهشة والتهكم، إذ يجعل أحد حاجبيه مرفوعاً أكثر من الآخر، وزاوية فمه اليمنى متقلصة، فيظهر على شكل مهرجي السيرك المحترفين! يقال انه حتى حين ينام، يظل قناع المهرج ثابتاً على وجهه، مثل عاهة حقيقية!..

الطبيب لازم، والمهندس رضا، والمحقق العدلي فالح، وقد جيء بهم منذ أسبوع الى السجن بتهمة (تجاوز الحدود) إذ القوا عليهم القبض ليلاً وهم بطريقهم الى الأردن سيراً على الأقدام، يثرثرون، ويدخنون بشراهةٍ، بعد أيام قليلة ستراهم يتخلون طواعية عن (جلسة النخبة!) هذه ليختلطوا شأن من سبقوهم بالجنود الهاربين، وباللوطيين، والمهربين، واللصوص، وما شابه ذلك، ممن لم يكن الواحد منهم فكر يوماً قط، أنه سيجالسهم، يا لقانون الضرورة العادل!.

سجين مصاب بالشلل النصفي يتوكأ على كتف ولده السجين هو الآخر، ليقوده هنا وهناك داخل ممرات السجن، كنوع من العلاج الطبيعي، حسب توصية الطبيب...

جلال، سجين مسيحي بعد أن أمضى ثلاثة أيام في السجن، فأرعبه ما يجري أمامه، قال لي وهو يبكي:

"-لا أصدق أنهم سيطلقون سراحي، حتى لو أتممت محكوميتي!!"

ضحكت متذكراً حالتي المتطيّرة في أيامي الأولى:

"- لاعليك، فقط تحلَّ بالصبر، وخذ الأمور بشيء من اللامبالاة، وجِدْ لك عملاً تتسلى به، فمن دون ذلك ستفقد عقلك!"

فأخذ بالنصحية، وراح يتدرب، وهو المساح في أمانة العاصمة، على أعمال النمنم التي تتطلب تركيزاً ذهنياً وبصرياً مستمراً...

وكان السجين (غريب) قد دفعت به وشاية أحدهم الى الحجز، مدة أسبوع في المحجر. تقول الوشاية: أنه شتم الصلاة والمصلين، فأهتزت القاعة على ضخامتها من هذا الحدث الخطر، ولكن ماذا يفعل، غريب مع المصلين الذين لا يحترمون إعتراضاته المستمرة على وطئهم فراشه بأقدامهم المبتلة بماء الوضوء، الذي هو في الأصل،- ماء المراحيض أيضاً؟ اذ ليس هناك مكان مخصص للوضوء في السجن! حتى إذا تمكن من دفع مبلغ من المال للضابط الخافر وخرج، راح يعلن بصوت عال: أنه قد ترك الصلاة، حيث لم تعد مباركة مع جموع الخنازير الذين لن تفلح صلاتهم، حتى لو أقاموها خلف الرسول نفسه، من أن تضع حداً لمنكراتهم التي لا تحصى!.

أكاد أكون أنا، ومجنونان، ومسيحي واحد، ومريض بالسل لا يقوى على الوقوف، وحدنا الجالسين، في قاعة كل ما تضمه من مئات السجناء، يقيمون الصلاة، صلاة من المؤكد أنهم جميعاً سينسونها حالما يسمعون خبر اطلاق سراحهم، إذ أنهم انما يصلون فذلك كجزء مهم صار لزاماً عليهم تأديته كطقس يومي من ما يسمى: بالدورة الأيمانية، التي أوعدوهم أن من يتممها بنجاح، فسوف يسقط من أصل محكوميته نسبة ١٠٪، وطبعاً لم تطبق إدارة السجن مقترح وزارة الأوقاف والشؤون الدينية هذا، سوى مرة واحدة، وعلى نسبة محددة من السجناء، شملهم بدوافع الرشوة، والعلاقات المختلفة، وليس لثبوت رسوخ إيمانهم الديني، أو أي شيء آخر من هذا القبيل! (رعد مشاكل) يكثر من الضجة أين ما وجد والثرثرة الفجة حتى لتحسبنه مجنوناً، ولعل الأفظع من هذا، تشبعه بروح عدوانية خطرة، ولعدم وجود عيادة للأمراض النفسية والعصبية في السجن، على أهميتها القصوى، أتوقع له أن يستيقظ ذات صباح ليس بعيداً، وقد إنمسخت ملامحه شبه الآدمية، وتحوّل الى كلب مسعور، كان يمتهن في حياته المدنية، الجزارة، وقد فعل بشقيقته مثلما يفعل بالشاة، قطّع جسدها الى أربع قطع، أودع كل قطعة في مكان! قاد رجال التحقيق الى ثلاث منها، وظل الجزء الرابع مجهولاً حتى الآن، كل ذلك التوحش بمثابة عقاب إجتماعي لما يسمى: بغسل العار! (ر)

أحد أقاربه يشاركه الطعام ويرقد الى جانبه، يفخر هذا (ر) القزم أنه استولى على أموال شركائه في عمل تجاري كان يجمعهم، لعله يحمل أبذأ لسان من جميع البذائين الذين عرفتهم في حياتي، اذا ما طلب منه أحدهم شيئاً مهما كان تافهاً، كعود ثقاب مثلاً، يكون جوابه الشروع بسب أبيه وأمه والأنبياء والأولياء، دفعة واحدة، ومن دون أن يتنفس!! أربعة من شباب البدو، يجلسون القرفصاء لصق حائط المخبز، يتسلّون بالحداء بأصواتٍ خفيضة، بأشعار البادية، وقد أبيضّت عيونهم من شدة الحزن، إثنان من شباب مدينة الثورة الشعبية جاءا ووقفا يناكدانهم، حيث راحا يغنيان لحاتم العراقي، البدو يوقفون حداءهم الشجي بين ضاحك ومتذمر، ولأنهم عرفوا بالتجربة أن لا حيلة لهم بمجاراة هذين الشيطانين، تهامسوا وتفرقوا..

(أبو روكان) يقف عند باب الردهة الثالثة، يصيح بصوته الحاد المنفعل، وقد رفع عينيه العمياوين نحو السماء، متوسلاً إعادة شرشفه المسروق، أنه يرجو ويشتم في آن، لأنه يعرف أنهم لن يعيدوه له، مثلما لم يعيدوا من قبل: منشفته ونعاله ومسبحته، مهما توّسل، او استنزل عليهم غضب الله.. أبو روكان هذا تهمته: تهريب الماشية: أيعقل أن يعمل أعمى، وفي الستين من عمره، بمهنة كمهنة التهريب الخطرة!؟.

ثمة شابان يثرثران، يبدوان من وجهيهما القرمزيين مسطولين من جراء أبتلاعهما الأقراص المخدرة.. و (فاضل) النصّاب البدين على جلسته الكسولة، بعد أن التهم، كعادته كل ليلة صينية من الثريد والرز، ورأس كبير من البصل، وآخر يلقي على مجموعة تحلّقت من حوله، قصائد من الشعر الشعبي العاطفي، يزعم أنه واضعها.. (رعد مشاكل) أسمع، في هذه اللحظة صوته يلعلع على نحو قبيح، انه في واحدة من مشاجراته التي لا تنتهي، وآخرون يلتمون وقوفاً يتحدثون عن ذكرياتهم التي لا تنسى لبشاعتها خلال الحرب الصدامية الايرانية، أو غزو صدام للكويت، وآخرون يتوسلون بائع (البسطية) ليبيعهم السجاير والشاي وفق ما أصطلح هنا على تسميته بـ (الفاتورة) غير أنه يرفض على نحو قاطع لأنهم لم يسدّدوا ما بذمتهم من ديون سابقة.

كثيرون يقيمون الصلاة، فرادى أو جماعة، ومن الزاوية البعيدة ترتفع ضجة (الدليم) وهم يمارسون لعبة المحيبس.. وآخرون منهمكون بإعداد عشائهم الفقير في الساحة الضيقة المخصصة لذلك، والمجاورة للمراحيض، وغيرهم يتابعون في ضجر واضح مسلسلاً مصرياً يعرضه التلفاز..

كريم، وناصر (العنقرجيان) يلوّحان بعلب سجاير (الأسبين) يبيعانها عوضاً عن الحراس الذين حصلوا عليها رشوة من بعض السجناء، مقابل قضاء حاجة ما، ثمة من يتكوّمون كالخرق تحت أغطيتهم العتيقة.. وقبالتي يتمدد سجين جيء به اليوم من قسم الأحكام الثقيلة، حيث خفضت محكوميته من قبل محكمة التمييز، من المؤبد الى ثلاث سنوات فقط!! وهي ظاهرة شائعة في السجون العراقية، اذ تتوقف (الدرجة القطعية) لمحكومية السجين على (نشاط وفاعلية!) أهله وذويه في الخارج، وقد يحدث العكس فترتفع محكومية أحدهم ممن لا يملك من يتابع قضيته لدى محكمة التمييز من سنة أو سنتين الى خمس وربما عشر سنوات أو أكثر..

الحارس الشاب، ذو الشارب الذهبي، يسخر اثناء التعداد العام من (علي كاشيه) شقي الكرخ المخيف، اذ ينعته بـ (القشمر) كاشيه، وقف يداري حرجه الشديد أمام السجناء، أحس أنه أزاء تخرصات هذا الطائر الغر، يقضم الأرم، كما يقول العرب! فهو الذي يصرّح، بمناسبة ومن دون مناسبة (لم تمر ذبابة على وجهي!) ليس هذا فقط، بل يؤمر بالوقوف على ساقٍ واحدة إمعاناً في اذلاله، ويسمع كلاماً لم يسمعه العاديون من السجناء، فكيف علي كاشيه نفسه،! كل ذلك بسبب ثرثرته أثناء التعداد، انه يتوعده في سره، يتوعده بالعودة، مرة رابعة الى السجن حالما ينهي محكوميته ويطلق سراحه، وستكون عودته، هذه المرة، كما صرّح عقب انتهاء التعداد، وبصوت عالٍ: (بدعوى اللواطة من حارس إصلاحية، ذي شارب ذهبي، تم إغتصابه!!).

سمعته ذات مرة يتحدث ضاحكاً وفي زهو، عن النساء الذاهبات الى زيارة العتبات المقدسة أيام المناسبات الدينية، حيث يكون الزحام شديداً، وكيف كان يضاجعهن (بالتراضي) على حد قوله، مقابل السماح لهن بالجلوس في غرفته كموظف خدمات في القطارات!..

الكل هنا يؤمنون أنهم ضحايا قوانين جائرة، مشرعوها من دون قلب وضمير، ومنفذوها قضاة جبناء ومرتشون، غير أن العديد منهم صحح لي معلومة كانت تقول: إن الشخصيات الشريرة التي كنا ولانزال نطالعها على شاشة السينما او التلفاز، وفي بعض الأعمال الأدبية والمسرحية، والتي كنا نعتقد أن الكثير من شراستها وساديتها وعوقها الروحي متأتٍ من خيال المؤلف، إلاّ أننا هنا صرنا نطالعها على الطبيعة، حتى بتنا، بعد أن كنا نتعاطف معها. نتمنى لها، أن تظل الى الأبد سجينة، وفي مكان أكثر

سوءاً من هذا المكان، من دون أسف او شعور بالندم..

كريم بزونه، عادل دعبلَه، علي كاشيه، محسن مسمار، ستار لادا، حسن شوريه، سالم جرادة، فلاح كالوسه، عصام الأعضب، أحمد حكومه، هذه الألقاب لعدد محدد من السجناء، في معظمها لا أحد يدري من أطلقها عليهم، ولماذا؟ وكيف التصقت بهم حتى صارت جزءاً متمماً من شخصياتهم لكن على طرافة بعضها، وخشونة البعض الآخر، صار أصحابها، بمرور الوقت يتقبلونها في زهو واضح، فقد أستحقها عن جدارة، ما في ذلك ريب، اذ لكل نعت حكايته، ثم انها بمثابة شارة تميزهم عن الآخرين، وتكون المسألة مدعاة أكثر للإثارة، متى ما علمنا أن ادارة السجن ذاتها، حين تنادي على أحدهم، لسبب ما، عبر مذياع السجن، فانما هي تنادي عليه بلقبه هذا على الرغم من معرفتها أسماءهم الحقيقية! وهذا يجعلنا نتخيل كيف يخرج الجميع، بما فيهم الادارة عن السياقات، المتعارف عليها إجتماعياً، أنها في البعض من جوانبها تكاد تشبه في انحرافها عن الواقع، عملاً إبداعياً!!

ولعل ألقابي ونعوتي التي أطلقها على بعضهم، ستصبح ايضاً بعد حين من الزمن، جزءاً متمماً لشخصياتهم!.

•••

بطالة مطلقة لا تساويها غير بطالة الموتى، وحتى أعيد لعقلي شيئاً من حيويته، وإلاّ تَحجُّر، شأن آلاف العقول هنا، ذهبت الى مكتبة السجن، علّني اجد فيها ما يمكن قراءته، فماذا وجدتُ؟

عشرات من الكتب البائسة، الرديئة معظمها روايات وقصص وأشعار (حرب القادسية) الملعونة– الكتب من دون اغلفة، او بأغلفة ممزقة، حواشيها مليئة بتعليقات سخيفة، لكن ماذا أفعل وقد صادروا الكتب التي أوصيت زوجتي بجلبها من مكتبتي الخاصة؟

طيلة ثلاثة شهور قرأت أفضل ما في المكتبة، وكنت أحصل من بعض السجناء على كتب كانوا قد هرّبوها بالاتفاق مع بعض الحراس!! أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث" قرأته بشغف كبير، وهو كتاب يجدر بالعراقيين جميعاً قراءته، لقد سدّ فجوة واسعة في معلوماتي، وأكد لي أن من كنتُ أحسهم من أصول غير عراقية، وغير عربية، لما عرف عنهم من جشع وحب جارف للوظائف، لدرجة أن الشاعر كان يقصدهم حين

قال:

"مدن تأكل الله من جشع.." أولئك الذين منذ قرون عدة وأسرهم تستولي، بالوراثة على خيرات العراق، منذ جاء أجدادهم نازحين من شرق، وشمال العراق وغربه، هرباً من جوع أو من حرب، او من أوبئة، او من جرائم كانوا قد أرتكبوها، فوجدوا حدود البلاد مفتوحة، وخيراته مشاعة، فندق مشرعة أبوابه لكل من هبّ ودبّ، وليس هناك رقيب أو حسيب، نصبوا خيامهم المهلهلة، ثم بالخديعة، والمسكنة، والعمل في أحط أنواع المهن، وشيئاً فشيئاً، صاروا أسياد البلاد!!

ولعل هذا هو الذي دفع بالشاعر الشعبي العراقي المجهول الى أن ينشد ملتاعاً:

"الغريب أصبح يزاحمني إبلادي

الأهل أهلي، وبلادي تعزّ عليّ"

إذن، صدق حدسي، فهاهو كتاب، مهم بإمتياز، وضعه مستشرق بريطاني، مثقف منصف وشجاع، يقدم قوائم بالأسماء، الصريحة لتلك الأسر الدخيلة، التي هي اليوم، مثلما كانت بالأمس، وستبقى حتى المستقبل غير المنظور، تتمتع بالامتيازات الطبقية العليا، والتي في معظمها قدّمت ولاءاتها صراحةً، لكل حاكم نذل، أو مسؤول حقير، في داخل العراق أو خارجه، عمل ويعمل على ايذاء الوطن وابنائه الأصليين، منضوية تلك الأسر تحت القاب طنّانة رنّانة: على العراقيين الأصلاء جميعاً، ضرورة التعرّف عليها..

وكتاب آخر عن (عبد الرحمن النقيب) وهو رسالة دكتوراه بائسة لرجاء الخطيب. اذ يتكون الكتاب من خمس وتسعين صفحة فقط، ليس هذا حسب، بل أن هناك خمسا وستين منها بحكم الفارغة(!؟).

وإن هي أظهرته، دون قصد منها رجل دين مخلص، وسياسيا وطنيا، فقد عرّفت به الرسالة بإقتضاب شديد، كيف انه من مؤيدي الحجاب المتشددين، لدرجة أنه كان يفرض على عائلته ارتداء الحجاب وهي داخل دارها، خشية أن يراها الطيارون من الجو!!! وكيف عرف بهلوسته وهوسه المرضي للنظافة، إذ كان يتقزز من ملامسة أي شخص، واذا ما فرض عليه لأسباب اعتبارية مصافحة شخص ما، فانه يعمد، على الفور الى غسل يديه بالماء مراتٍ عدة، لذا فلا عجب ان هو اودع بريده، حتى الخاص والسرّي منه، لخادمه يفتحه ويقرأه عوضاً عنه!!

وان لديه ميولاً عثمانية واضحة، وعواطف دينية مذهبية على غرار المذهب الحنبلي، وكان يقبل الأوسمة والهدايا من الأتراك والألمان معاً، وكان موقفه السلبي من ثورة العشرين واضحاً، وللسبب الأخير في الأساس، ولأسباب أخرى ممثالة، والتي من بينها موقفه المتشدد القاضي بعدم عودة المبعدين من رجال ثورة العشرين من منفاهم الى العراق، وأنه كان يرى مادام أن الانجليز فتحوا العراق بالقوّة، فمن حقهم التمتع بحكمه، جرياً على قانون الفاتحين، لهذه الأسباب مجتمعة يعود ترشيحه مرتين لرئاسة الوزارة، وجعل الانجليز مطمئنين ليكون بمثابة الند للملك فيصل الأول، اذا ما تنصل الأخير عن أطماعهم..

عموماً، الكتاب بحجمه الصغير، ومعلوماته الفقيرة، ولغته البائسة يعطينا دليلاً واضحاً على بؤس ومجانية ما يسمى: بالدراسات العليا في العراق، في الثمانينيات من القرن العشرين وما تلاها!!..

وجدت رواية (نابكوف) الشهيرة (لوليتا) كانت ممزقة في أكثر من مكان– لعل مرد ذلك أن السجناء يعمدون الى اقتطاع بعض صفحاتها ذات الاثارة الخاصة، عزفت عن قراءتها لا لأنني سبق وقرأتها قبل سنوات عدة، ولكن لأن قراءة هذا النوع من الأدب المشحون بالإثارة الجنسية، تحتاج الى مزاج خاص، أين منه المزاج الذي يمنحه السجن للسجين؟.

أمضيت وقتاً ممتعاً مع كتاب الشيخ شهاب الدين المعنون بـ (المستطرف) وكتب من هذا النوع، على ثقل عبارتها، وخشونة أسلوبها، وغموض بعض مفرداتها التي سقطت منذ عقود عدة، من قاموس لغة الكتابة المعاصرة، غير أنها لا تخلو من المتعة والفائدة والطرافة، فهو حين يتحدث عن النساء مثلاً، يشخص صفات المرأة الجانحة بعين عالم اجتماع مميز، سبق عصره قرون عدة، اذ يقول: [لسانها حربة، تضحك من غير عجب، وتبكي من غير سبب، كلامها وعيد، وصوتها شديد، تدفن الحسنات، وتفشي السيئات، ان دخل زوجها، خرجت، وإن خرج، دخلت..نبّاحة عند بابها المزبول..]

فليجرب، كل واحد منا مثل هذا الوصف (المستطرف) على من تعرّف اليهن جيداً من النساء!.. ثمة كتاب يفضح زيف المتحزبين من ضيِّقي الأفق، والذين يسودون الكتب الرديئه انتهازاً لمغنم ما، حتى من كان منهم يدعي الانتماء الصميمي للقومية، اذ حين يتناول اللواء الركن المتقاعد حسين مصطفى في كتابه (الجبهة الشرقية ومعاركها في

حرب رمضان) قضية ذات حساسية وطنية خاصة، مثل استعادة القوات السورية بعض من أراضيها من الاحتلال الاسرائيلي في حرب عام ١٩٧٣، فبدلاً من أن يطلق على ذلك، وهو الذي على ما يبدو من (أقحاح اليعاريب) كلمة تحرير، وهي المتعارف عليها في جميع الأدبيات من هذا النوع، نراه يصفها بالاحتلال!!؟ فتصوروا أي غلوٍ عقائدي خطر هذا؟!..

وضحكت كثيراً مع "وعي" الجنرال الانجليزي (غلوب باشا) وهو يسرد مذكراته، وكيف يفخر كونه (من سلالة النورمانديين الفاتحين!) وأن لديه على الدوام، وعلى خلاف الملايين من البشر الذين تمزقهم الفاقة، ويطحنهم العوز (ما يكفي من الطعام والملابس، وحماماً ساخناً كل يوم) وينسب ذلك، بعقلية الانجليزي المحافظ الى (بركات الله!) لكن، بالمقابل يجب أن لا أنسى إسلوب الكتاب الشيق والممتع، وبعض الحوادث المهمة التي أوردها بأمانة عن العراق ابان فترة العشرينيات، وعن تاريخ جماعة الوهابيين السعوديين، وبطشهم الهمجي بالفقراء العراقيين المجاورين للأحساء والقطيف، لدرجة أنهم لا يكتفون بقتل النساء الشيعيات الحوامل، بل يعمدون، ببرودة دم الخنازير الى بقر بطونهن، وقتل الأجنة التي بداخلها!! إضافة الى قرصنتهم المستمرة على العتبات المقدسة في كل من النجف وكربلاء، والقيام بتدميرها ونهب محتوياتها، حتى ليشعر القارئ الحصيف، أن هجماتهم تلك كانت تحصل بالاتفاق السري مع حاكمي المدينتين المستباحتين اللذين هما من أصول عثمانية، وإلا لماذا تقع الهجمات فقط وقت يكون الحاكمان في بغداد (لمهام خاصة!).

كل ذلك وغيره دفعني الى قراءة الكتاب بصفحاته الـ (٣٣٠) في يوم وليلة!

وتصفحت كتاباً آخر بعنوان: بغداد في القرون الوسطى لـ د. جليل كمال الدين، خطابيته العالية منذ الصفحات الأولى، جعلتني أكتشف الهدف غير الرصين، وغير الموضوعي الذي يكمن وراء تأليف الكتاب الأمر الذي جعلني أعزف عن إتمامه..

•••

أثرياء السجناء وحدهم يعيشون في هذا الجحيم الأرضي، حياة خاصة بهم، حتى لتحسبهم مجرد محتجزين بجنح بسيطة وليس سجناء بجنايات خطرة، يستلقون بملابس نظيفة على اسرتهم الوثيرة، في غرف أفردت لهم، بواقع غرفة لكل اثنين أو ثلاثة، في الوقت الذي يتكوم كالاسلاب في غرفة بذات المساحة ما بين ٢٠-٣٠

سجيناً، وقد زوّدوا غرفهم على حسابهم الخاص بالمكيفات والثلاجات والسجاد وأجهزة التلفاز وأدوات المطبخ، وغيرها، يقف بين ايديهم عبيدهم من فقراء السجناء، يقومون على خدمتهم على مدار الساعة، اذ يعدون لهم الأطعمة، ويهيئون الحمامات ويغسلون الملابس والصحون والاغطية، بل يدلكون لهم اقدامهم، ويمنعون دخول الآخرين اليهم إلاّ بعد أخذ موافقتهم، كل ذلك وغيره مقابل أطعامهم والتصدق عليهم ببعض الملابس التي ما عاد يستهويهم أرتداؤها!.

آلهة السجن هؤلاء، يسيّرون من أماكنهم داخل السجن مصالحهم التجارية في الخارج، المتمثلة بسعر صرف الدولار، والمضاربة بالعقارات والسيارات والمتاجرة بالمواد الغذائية المستوردة، وإدارة عمليات التهريب من والى العراق، ويمارسون أيضاً لعبتهم المفضلة: الريسز!

يدخنون الأرجيلات وكأنهم في مقاهيهم المعروفة في بغداد وبقية المحافظات، يتجولون خارج بنايات السجن، يجالسون متى شاءوا كبار موظفي السجن، يتشمسون أحراراً ويخططون لعمليات تهريبهم ليلاً بسيارات ضباط الامن والمخابرات الذين صاروا يحكمون السجن منذ بداية الثمانينيات، على إعتبار إن القوة الاجرائية المدنية، غير قادرة على مقاومة اغراءات بعض السجناء من المتنفذين مالياً، او عن طريق العلاقات الشخصية حيث يمضون يومين أو أكثر في بيوتهم او شققهم الخاصة التي يستدعون اليها عشيقاتهم. وحين يتم إخراجهم في وضح النهار، تكون قد سبقت ذلك شائعة نشرها الذين يقومون على خدمتهم، يضحك لسذاجتها حتى السفهاء من المسجونين: مفادها: لقد أخذوهم بناءً على طلب من (الجهات المختصة) للتحقيق معهم في قضايا مستجدة! أو تم ذلك. على ضوء توصية عاجلة من أطباء السجن لغرض إجراء فحوصات مختبرية او شعاعية، او لتداخلات جراحية في مستشفيات بغداد المختصة!

يتودد لهم الموظفون بما فيهم المدراء، كذلك الموظفات اللاتي معظمهن من العوانس أو أرامل الحروب من أجل التوسط لهم لدى المتنفذين من معارفهم في الوزارات كافة، لحسم قضية ما لصالحهم، وفق منطق العلاقات الخاصة، حين يكون ما يسمى بالقانون يقف بالضد منها.

لذا يعتبر القائمون على ادارة السجن انه لفضل كبير فيما لو تكرّم أحدهم وقام بزيارتهم في مكاتبهم، اذ يجلسون وقد وضعوا ساقاً على ساق، يرتشفون المرطبات

ويدخنون كما لو انهم في بيوتهم..

هناك من يشيع أن لديهم أجهزة (فيديو) يستعملونها ليل نهار لعرض أشرطة إباحية، وراديوات يستمعون من خلالها الى نشرات الأخبار والتعليقات من صوت أميركا، ولندن، ومونت كارلو، والكويت واسرائيل وهي تكيل الشتائم للنظام.

يوجد العديد من السجناء ممن صار إصلاحهم أمراً ميؤوساً منه حقاً، حتى لو عكفت جمهرة كبيرة من علماء النفس والمجتمع على تربيتهم من جديد، وهذا مستحيل بطبيعة الحال. ذلك أن (اليوم الذهبي) الذي تمتزج به الطبقات والقيم في طبقة واحدة، وعُرف واحد لن يشرق أبداً، أبداً، بعد أن أخفقت تجربة الاشتراكية العلمية، بعد سبعين عاماً على قيامها، وما رافق ذلك من آمال عريضة للبشرية، أخفقت بتلك الطريقة المضحكة المبكية، وهذا يعني أن العذاب لن يزول من حياة البشر، حتى فناء آخر واحد منهم!

إن (كرادلة) هذا الزمان، المهووسين بألقابهم التي وصلت لهم عن طريق الوراثة او التي أغتصبوها اغتصاباً، حيث رسّخت في خلايا أدمغتهم- هل للكرادلة أدمغة؟- رمزياً في الأقل منزلة اجتماعية متفوقة على ما عداها، لن يكونوا مغتبطين أبداً، إن هم دعوا للانتظام مع من هم أدنى مرتبة منهم، حتى مع من هو من دينهم، أو عقيدتهم، او عشيرتهم، لذا أرى أن التقدم الانساني الحقيقي هو أن تجعل الانسان المضطهد، بالمعنى السياسي التقدمي، يمتلئ قلبه بالغضب المقدس على كل من يعمل على تشويه المحبة والمساواة والتلاحم بين الناس، إن رجالاً أفذاذا أمثال: لنين، وشكسبير، وسارتر، وماركيز، قد فعلوا للبشرية العمياء، أعظم مما فعله علماء الفيزياء والكيمياء على جلالة ما فعلوه، ذلك أن الرعيل الأول عمل على إيجاد الانسان كقيمة عليا بذاته، في حين كان مشروع الرعيل الثاني: الانسان بمقتنياته.

خذوا هذه الحادثة البسيطة في شكلها الخارجي، العميقة في مدلولها العصابي، الذي حوّل عقول مئات السجناء، الى عقول أطفال، على الرغم مما يبدون عليه من مظاهر جسمانية سليمة ومتينة: ذات صباح شتائي ممطر وبارد، ومثل كل فجر أعلن التعداد الصباحي داخل الجملون وليس خارجه، ولكن كالعادة فشل المراقبون الثلاثة- الذين هم سجناء طبعاً- وعدد من الحراس، على الرغم من عبارات الود التي يقابلون بها تصرفات المشاغبين، فشلوا من تمثل المطلب البسيط من السجناء القاضي بجلوسهم على شكل خماسي، من شأنه أن يسرع في عملية احصائهم على نحو سليم وسريع، فما

كان من الضابط الخافر، وقد رأى ما رأى من عقوقهم، إلاّ ويأمرهم بالخروج الى العراء، مساقين بالشتائم والهراوات، وعلى الرغم من استجابة السجناء وانتظامهم هذه المرة بطريقة لافتة للنظر، غير أن الضابط امعاناً منه بإذلالهم، أجّل احصاءهم ساعة ونصف الساعة، وبعد توسلات وتوسطات استجاب لمنظرهم المزري، منظر الدجاج المبتل بالماء، أعادهم الى القاعة.. ومرّ يوم، يومان والسجناء منضبطون في عملية التعداد ومن دون ضجة ومشاكسات، وفي اليوم الثالث عادوا الى سابق عهدهم من فوضى وتسيّب ولامبالاة ومشاكسات بليدة، ولأنهم لا يفهمون ولايريدون أن يفهموا: أن المرء لزاماً عليه أن ينخرط وفق شروط محيطه الاجتماعي وإلا عوقب بقسوّة.. ولأنهم لا يفهمون الحياة إلاّ بقاء حسب، أما حياة يتخللها فرح غامر، وامتلاء روحي وعاطفي، حياة مطرّزة بالشفافية والاكتفاء الحسي والجسدي، فلا وجود لها في أمخاخهم، أمخاخ العصافير، ومن ثم من أين لأمخاخ العصافير، الذين يصفهم علماء الاجتماع بالكتلة العمياء، نعم من أين لهم بالخيال، الذي يميّز الانسان عن البهيمة، أنهم جمهرة المنافقين والغدّارين، والانتهازيين، حائكو المؤامرات الصغيرة والخطرة معاً، الملقحة دماؤهم بجرثومة الدونية التي سترافقهم حتى القبر!

اذ أيٌّ عقول يمكن إصلاح انحرافاتها الخطرة مثل: الشذوذ الجنسي، أو الممارسات الجنسية بين الأب وابنته، أو بين الأخ وشقيقته، او بين الولد وخالته أو عمته، بل مع أمه أيضاً؟ وقد شاهدت من هؤلاء الكثيرين يوم كنت موظفاً في سجن أبي غريب أبان الثمانينيات، ورأيت كذلك من قتل أباه أو أخاه أو صديقه من أجل المال، فضلاً عن جرائم السطو المسلح، وقطع الطرق، والقتل بالايجار حيث زُهقت الآلاف من أرواح الأبرياء، أضافة الى القيام بجرائم فتاكة تطال عموم المجتمع، كتهريب المخدرات، أو ثروات البلاد، بما في ذلك تلك الممثلة لهويته الحضارية والتاريخية، وأقصد الآثار المهمة، وبيعها لمن ينشطون بالحصول عليها في بلدان شتى!

أنهم يبدعون في حقل الجريمة، وقد أبتليت بهم البشرية عبر العصور، وستظل تبلى بأمثالهم الى الأبد، ذلك أن مشكلتهم ليست غياباً في الوعي الفردي او اللاوعي، بقدر ما هي غياب حضاري جماعي مُعقد ومتداخلٍ بين ما هو مرضي، وبين طموح غير مشروع للأثراء والتسلط. ليتك تراهم وهم يتشدقون بكلمات معدودات جوّفاء عن (بطولاتهم!) خارج السجن مثل علاقتهم بالنساء، أو شعاراتهم في سوق العمل، بل حتى

عن جرائم اقترفوها، دون ان يطالهم القانون، وهي من الخطورة بحيث تفوق عشرات المرات تلك التي حكموا بسببها، والتي جاء اكتشافها، في معظم الأحوال، مصادفة!!.

ليس هناك واحد منهم يفهم أن شجرة الرابطة الاجتماعية، إذا ما حاول أحد أغصانه التخلي عنها، فعليه أن لا يفاجأ، اذا ما أكتشف يوماً، أنه ليس سوى غصن يابس ما عاد يصلح لشيء غير حطب الموقد، وهاهم أخيراً أكوام من حطب رخيص ملقى عند فوّهة أفران القانون! تخيلوا أيضاً عشرة سجناء، إرتضوا أن يسجنوا حركاتهم في سجن ثان اذ يتحركون داخل مستطيل حدوده بالحبال، مساحته ٣ × ٤ م٢ ، يعدون طعامهم يحوكون ويلعبون خلسة طبعاً النرد او الدومينو او الشطرنج، لأنها ممنوعة، بدعوى يمكن أن يستغلها البعض، وهذا صحيح، للعب القمار، تخيلوهم وهم ينبحون بصوت واحد، لمجرد أن يخترق حرمة مستطيلهم النرجسي سجين آخر؟

وتخيلّوا أربعمائة سجين يقفون ويتدافعون لقضاء حاجياتهم الشخصية الضرورية بعد الساعة السادسة مساءً، اذ يتم أغلاق الأبواب، في حيز لا تتجاوز مساحته ٤ × ٤ م٢، حيث توجد ثلاثة مراحيض طافحة على الدوام، انهم يغسلون الأواني او الملابس او أطرافهم بواسطة ثلاث حنفيات فقط، ينقطع الماء، الشحيح على الدوام، والذي يجري قطعه من قبل ادارة السجن الفاشية، بمعدل ست ساعات يومياً كنوع من التعذيب الجماعي، ومن ثم يمكنكم تخيل حجم الضجة، ومقدار الملاسنات والمشاجرات التي تُدمى من جرائها أنوف كثيرة، وتتمزق الكثير من القمصان البالية، وتخيلوا أيضاً، اذا كان لكم متسعاً من الوقت، او القدرة على التخيّل بالمعنى الأدبي، تخيّلوا رائحة قاعة موصدة، مكتظة بأربعمائة سجين يدخنون من دون انقطاع، ويطلقون الغازات من دون انقطاع أيضاً لأن طعامهم في معظمه لا يتعدى البصل والتمر، وأن أكثر من نصفهم يسعلون ويعطسون ويمخطون بين اقدامهم، وأن بينهم عددا كبيرا من المصابين بالأمراض الجلدية كالجرب والأكزيما والحساسية ثم تخيلوا جدران القاعة على اتساعها وقد ازدحمت بالاكياس والملابس والصرر معلّقة الى الجدران بالمسامير، ثم تخيلوا القوم وقد رقدوا على الأرض العارية، مفترشين الأسمال، تحيط بهم حاجياتهم المتنوعة: أواني الطعام، والحقائب والكارتونات، والأحذية، وحاويات الفلين وجلكانات الماء التي ملأوها بشق الأنفس، المحصلة مقبرة جماعية مروعة، حتى وان كانت مقبرة مع وقف التنفيذ! ثم تساءلوا فيما يشبه الاغماء: أي خلق هؤلاء الذين يرا

ترحيلهم، على ما يبدو الى كوكب أسطوري، وعبر وسائط نقل أسطورية هي الأخرى؟ كوكب الاصلاح البعثي!!

بين آونة وأخرى يتسلى الحراس السخفاء برمي قطع الطابوق من خارج القاعة على سطحها المغطى بمادة (الجينكو) ليضاعفوا بفعلتهم الحمقاء هذه، من الشعور بالحجز والعجز المطبقين. ولأننا ننام متلاصقين، جنباً لجنب على الأرض، يعني أينما أدار الواحد منا وجهه فهناك فم مفتوح على سعته، يزفر، بهواء مشبّع بروائح البصل والثوم، ومنخران يشخران، وأنفاس ثقيلة متحررة من أفواه مصابة بلوزات ملتهبة، وأنوف مزكومة، فيغدو تدثير الرؤوس بالبطانيات، أمراً لا مفر منه!!.

[أن تكون، او لا تكون، تلك هي المسألة..] تبدو مقولة (شكسبير) هذه شاخصاً حياً على نحو ملودرامي في عالم السجون، إذ أن ادارة وقوانين وأفراد السجون لا يمكن ان يردوا للسجين المظلوم حقه وكرامته من قبل سجين آخر أقوى منه جسدياً أو مادياً، مهما حاولوا أو تظاهروا بذلك– وان كان ثمة قلة منهم لا تخلو من شرف المسؤولية– وذلك لأن عالم السجن هو صنو لعالم الغابة القديم، يتميز بالعنف وقد أضيفت إليه مسألة قبيحة قبح العنف تسمى: الرشوة، تلكما السلطتان المطلقتان الوحيدتان اللتان تديران دفة سفينة السجن المعطوبة بمخلوقاتها العجيبة، المحتجزة والمبعدة عن أي نوع من أنواع الفرح الإنساني بين الأسوار العالية المطوّقة بأرتال الكلاب الشرسة، وخلف البوابات الحديد الضخمة والثقيلة، ولعل لهذه الأسباب وغيرها يعتقد من لم يدخلوا سجناً في حياتهم، أن السجين مخلوق قبيح، طاعن في السن، معوّق وقذر وأحدب، يتطاير الشرر من عينيه المخططتين بالدم، وأن اصابعه ذوات الأظفار الشبيهة بمخالب الذئاب تقبض على الدوام على السكاكين وقضبان الحديد، ومختلف الأدوات الجارحة!!.

وكان أكثر ما يقلقني أن يقوم أحد السجناء المتهتكين، يخلو خلواً مروّعاً من آي قدر من الثقافة، ذلك لأن الجمع بين الثقافة والشراسة في كيان واحد شأنه شأن الجمع بين الفروسية والبخل، أمران مستحيلان، ويقوم بمضايقتي، لا لشيء إلاّ لأنني أبدو في المشهد المشتبك، وحيداً ومسالماً– ذلك أن المرعب في الأمر، أن المسالم بلغة السجناء، يعتبر شخصاً جباناً، فأفقد بذلك توازني النفسي، مثلما فقدته عند الدقائق الاولى لدخولي، أول مرة الى القاعة، فأقدم على قتله! لأصبح بذلك سجيناً مقيماً سنوات عدة،

في هذا الفردوس الأسود!!

ذات ليلة باردة، ارتفعت في وقت متأخر منها، زخات طوال ومتقطعة من الرصاص، وسمعنا الحراس يركضون مذعورين، ويتصايحون فيما بينهم خلف القاعات، وسرت شائعة مفادها: أن أحد السجناء حاول الهرب، وهي امنية يحلم أن ينفذها الجميع، أقول يحلم، ذلك أن تنفيذها أمر مستحيل.. دقائق وهدأت الضجة.

علمنا، ونحن نضحك مضطجعين على ظهورنا، إن القتيل الذي صرعته طلقات الحراس المذعورين، من دون رحمة: كان حماراً!

ترى من دفع بهذا الحيوان المسكين، الى هذه المتاهة المهلكة؟ وكيف اخترق الأسوار العالية التي تحيط بالسجن، وتسلل من بين الأبواب الموصدة، وافلت من ابراج المراقبة، وكمائن الأسلاك الشائكة، وكمائن الألغام ايضاً، وتوغل هذه المسافة بجسمه الثقيل، وخطواته البطيئة، وذكائه الحماري، من دون ان ينتبه واحد من عشرات الحراس؟

رحت أتحدث مع نفسي: ترى هل هناك من سبب، غير وجود شريط طويل من نباتات القصب والبردي، وشتى أنواع الحشائش البرية الكثيفة سحبت أقدامه باتجاهها؟ أذ أشرف على ما يبدو على الهلاك لكثرة ما تناوله من طعام قوامه: الخرق والتراب؟.

يبدو أن ادارة السجن كانت ذكية هذه المرة، اذ فسّرت الأمر تفسيري ذاته، ولكي تقطع دابر الفتنة أو الغواية لحيوان آخر، أو سجين من الذين يخرجونهم لقضاء بعض الأعمال الضرورية في محيط السجن، فيختبئ في ألاكمات تلك كمشروع أولي للهرب ليلاً، فأمرت على الفور بإضرام النيران فيها، اذ راح رمادها يتساقط علينا وعلى طعامنا وأسرتنا ومائنا النزير أياماً عدة!

وكان منظر الكلاب التي كانت تتخذ من المكان المحروق مأوى لها، يفطر القلب، إذ راحت هذه المخلوقات المسكينة تعوي على نحو فاجع، وتركض في رعب، في الاتجاهات كافة، ساحبة خلفها، أو حاملة بين أشداقها جراءها خوفاً عليها من النيران!

•••

عدد من السجناء يستمتعون اليوم الجمعة بـ(عالم الأزياء) الذي تبثه قناة ما يسمى بتلفاز الشباب المتحللة، حيث مشاهد العري، ومظاهر الأناقة الرأسمالية، غير أنّ سجيناً تهمته (تزوير قسائم زيوت السيارات) وهو رجل قارب الستين من عمره، هبّ

غاضباً وحوّل البث على قناة (تلفاز الحكومة!) حيث تبث الفترة الدينية، استاء الحاضرون، وعلقوا على فعلته بكلام كاد يؤدي الى معركة، وسألني أحدهم عن المعنى من وراء (عمل هذا الثور) على حد قوله، ضحكت وذكّرته ببيت الشعر القائل:

"... حتى اذا ما.. لا صلى ولا صاما"

ضحك بدوره وعلّق (عاش القائل) وانسحب شأن الآخرين ليتركوا خطيب الجمعة: المعافى المتأنق والمعطر من دون شك (يخطب!) ولا من يستمع! بإستثناء مزوّر القسائم إتكأ على الحائط أرى خبّاز القاطع يستلم العجين من السجناء، بينما ينهض مساعده لإشعال التنور، ثمة شيخ يغزل الصوف، وشاب منهمك بحياكة الأخفاف، وحلاق سفري أجلس أحدهم على صفيحة فارغة وانهمك بعمله.. وآخر يعد له شاياً، ومن داخل القاعة الواسعة يرتفع لغط يثير الصداع، اذ أكثر من ثلثمائة، معظمهم من الشباب يتحدثون ويضحكون في لحظة واحدة، والعشرات يتجولون وقد رموا على ظهورهم البطانيات، فيذكرني مظهرهم الحزين، بفقراء الهند في أفلامهم السينمائية. و (خطيب الجمعة) يهذر من دون جمهور، سوى مزور القسائم الذي يتثاءب بإستمرار، (سالم الغسّال) يمضي نهاره بغسل وكي ملابس الموسورين من السجناء، حتى اذا جاء الليل صرف ما حصل عليه من نقود على (حُبه!) الذي ألحظه الآن يتمدد على فراش سالم، يتمرأى مثل فتاة مراهقة، وينتف بالملقط شعر حاجبيه..

(قاسم) متعهد الثلج تراه في الشتاء يقطر منه الماء وهو يركض في الردهات والممرات الطويلة، وقد حمل على كتفيه قوالب الثلج الثقيلة التي يبتاعها بعض السجناء ليحفظوا طعامهم من التفسخ في حاويات من الفلين، ثم يدفع عن طيب خاطر، كل ما حصل عليه من نقود مقابل قرصين من (أبو الحاجب) شاب من الموصل، ناحل وشاحب من جراء سوء التغذية، جيء به الى السجن ستة اشهر، تهمته تجاوز حدود، يملؤه حلم عظيم بالوصول الى (سلطنة بروناي) العجيب في أمر هذا الشاب، انه يعرف عن (بروناي) كما أعتقد أكثر مما يعرف عنها أهلها أنفسهم! صادراتها موقعها الجغرافي تاريخها، ديانتها، لغتها، أقوامها، نوع الحكم فيها، سلالة حاكمها واسمه الرباعي، يعرف كل ذلك، على الرغم من معرفته ان الوصول اليها ليس سهلاً أبداً، بسبب ثمن بطاقة الطائرة المرتفع البالغ (٥٥٠) ديناراً أردنياً كما يقول، أي ما يقرب من (٨٠٠) دولار وان الوصول اليها يتم عبر المرور (بماليزيا) اذ قد لا تسمح لك السلطات

الماليزية بالمرور لأنها جعلتها سوقاً محتكراً لعمالتها..

أجزم أن هوسه العجيب هذا سيمكنه في يوم ما من الوصول الى مبتغاه، واذا ظلت تعاكسه الظروف فسيموت كمداً، وفي قلبه غصة كبيرة أسمها (بروناي!).

وأنا في دَوَخاني هذا اقترب شاب مني، إنحنى وهمس في أذني: [ياعم! هل تسمح لي بنفس واحد من سجارتك؟] فلا أملك أمام حاجته غير أن أتنازل له عن سجارتي كلها، وكنت في أيامي الاولى أقتسم مع هذا النوع من السجناء علبة سجايري، حتى اذا ما أيقنت أنني لن أحل مشكلتهم بمفردي من جهة، ولكثرتهم من جهة ثانية، رحتُ أعتذر!

ناخ المساء مثل بقرة سوداء، كنت ما أزال في جلستي المتراخية أتكئ على الجدار، وقد ملأ ذاكرتي هذه المرة مشهد مثير يعود لمنتصف السبعينيات: مقعد مستطيل وثير مبطن بالجلد الطري، ذو لون أخضر غامق، له مسند عال عند الجهة الغربية من حانة (شمبانسكي) في وارشو، الجو صقيعي إذ ارى الثلج يهمي من خلف الزجاج مثل عاصفة من الريش الأبيض الأمر الذي يضبب منظر العمارة الشامخة ذات الشكل المخروطي والتي يقال أنها تضم مكاتب (حلف وارشو) العسكري، الى يساري امرأة تجلس وحيدة، تدخن وترشف من كأسها وتحدق بعينين خضراوين وسيعتين الى الجو خارج الحانة، من دون أن تعيرني إهتماماً على الرغم من محاولاتي المتكررة لفت انتباهها، كأن أومئ نحوها برأسي، .ابتسم بود لا يخلو من خجل شرقي، او أرفع كأسي صوب الغابتين الخضراوين.. وثمة ثلاث فتيات يلتمن حول مائدة وسط الحانة، على بعد مترين من مكاني، احداهن التي تجلس قبالتي مباشرة فتاة مثيرة، ترتدي كنزة خضراء زاهية، مفتوحة الصدر، لها عنق مشرئب مثل علامة تعجب، فأتذكر قول الشاعر الشعبي وحالته حين مرّت به واحدة لها العنق العجيب ذاته ولئلا ينفجر قلبه، تحايل على ذلك بالشعر، اذ قال:

"الركبة من تلتاف للبوسه، جسر!"

تزداد وحدتي، وأحس أن نتف الثلج في إزدياد، وأنها لن تتوقف حتى تغطي المدينة فأشعر بالرغبة للعودة الى شقتي في شرق وارشو، او بالاحرى الى غرفتي النظيفة الدافئة التي أجرتها من مالكتها وابنتها (آنا) اللتين تسكنان الغرفة الثانية من الشقة نفسها، وذلك قبل أن يدلهم الظلام، فأضيّع المكان مثلما حدث أكثر من مرة، أمضي سهرتي هناك أرتشف خمرتي، وأدون مشاهداتي وملاحظاتي لهذا اليوم، او أأجلها الى

اليوم التالي وأنضم اليهما، لتسمعني صاحبة الشقة، المرة العاشرة قلقها من أجلي حين أسهر الى ساعة متأخرة من الليل في واحد من ملاهي العاصمة الكثيرة، فضلاً عن تبذيري النقود، دون أن تعلم أنني انما أفعل ذلك فلكي أغسل حراشفي وحراشف أجدادي لأجيال عدة، من غبار البداوة الثقيل الذي هبّ عليهم وعلينا، وسيظل يهبّ على ذريتنا من الصحارى التي تطوّقنا حتى قيام الساعة، تلك الصحارى المهلكة التي لا أمل في أن يشق فلواتها الفظيعة مجرد نُهير صغير، فضلاً عن قدوم طوفان شرس، لا يبقي ولا يذر!.

الى هنا وتنطفئ ذاكرتي، اذ لا أدري على وجه اليقين هل غادرت الحانة، أم جاء بعض العراقيين ممن تعرّفت إليهم هنا وأصطحبوني، مثلما في كل ليلة الى احد المراقص، وكما في كل مرة من هذا النوع نصطحب من المرقص فتيات من تفاح ونمضي واياهن الى شقة أحدهم نسهر حتى الصباح؟ أو استطعت أخيراً أن أجلب انتباه المرأة المتوحدة فتعاطفت بروح المرأة الأوربية المجبولة على حب الحياة، وعدم اضاعة فرصة قد لا تتكرر، يمكن أن تجلب لها، ولهذا الشرقي اللحوح المتعة والفرح الغامرين، فتأبطت ذراعها ونحن بطريقنا الى المرقص القريب من المقهى/ الحانة، ولسان حالنا يقول: [طز! بالثلج والضباب والظلام، مادام هناك ويسكي وفير، ونقود، ورفيق يشد خصري بذراعه، ويوشوش في محارة أذني كلمات بلغةٍ لا أفهمها لكن هذا لا يعني أنني لا أفهم ما يريد!؟].

ثم بعد المرقص هل ذهبت مع السيدة (دشكا) الى شقتها، أم تسللنا، خلسة، حفاة الى غرفتي لأن صاحبة الشقة تمنع علي جلب الفتيات، غيرة أكثر مما هو تعفف؟ لا أدري!. فجأة أعود الى واقع الحال على أثر موجة ضحك عالية، وتعليقات ساخرة يطلقها عدد من السجناء، أثر سماعهم مذيع التلفاز ينقل ضمن نشرة الأخبار المسائية: استشهاد مواطن فلسطيني بسبب انفجار لغم مشاة، في مدينة رام الله.. ويزداد حزني جراء تحوّل نضال الانسان من أجل حياة أفضل، الى مادة للسخرية الصفيقة!.

وتذكرتُ أشخاصاً أعرفهم، وآخرين سمعتُ وقرأت عنهم، وهم بالعشرات، كيف قدموا بنكران ذات تليق بالانسان الحرّ، وليس الانسان المسكون بشهوات الاستحواذ على المناصب أو الثراء، قدموا حياتهم من دون منة أو تردد، من اجل انتصار فكرة نبيلة كانوا قد آمنوا بها بصدق وقوّة وعنف، مساوياً لعنف موتهم، وهاهم اليوم نسياً منسياً

وربما أصبحوا محط سخرية وازدراء حتى من قبل أولئك الأغبياء الذين ماتوا من أجلهم، او ماتوا من أجل أن تبقى الفكرة النبيلة دائمة متوهجة ومستمرة في ضمائر الآخرين، حتى وان كانوا قد سمعوا أو قرأوا كلاماً أنانياً مثل: لم تخلق الحياة للتضحية مهما كان مدلولها الانساني والحضاري، إنها فوق كل شيء، أغلى من كل الأشياء، لأن الحياة اذا ما ذهبت لن تعود مرة أخرى...

ورحت أنظر الى السجناء المحصورين داخل القاعة/ التابوت، أنظر لهم ليس كأفراد من البشر بل أكوام من السكراب الصدئ لا فائدة ترجى منه، أكوام مركونة الى الجدران القذرة المنقوعة بالرطوبة، جالسة كانت الأكوام أم واقفة أم نائمة في أحضان الحزن والمذلة، أكوام خرساء على الرغم من ضجتها وضجيجها.. جثث لمخلوقات نافقة، طيور مذبوحة، حيوانات مجزورة، متفسخة بانتظار من يطمرها بتراب النسيان، نعم ميّتة منذ عقود من الزمن ولا أمل في اعادة الحياة بمعناها المشع اليها على الرغم من حركاتها المتسمة على الدوام بالبلادة والغباء والتفاهة، ورأيت الأكوام تتململ وشمل القاعة صمت غريب، وتنبهت للأمر. لأن انقطاع الضجة العمياء على نحو مفاجئ يوقظ الغارق بلجتها، مثلما يوقظ صوت انفجار طلقة في مكان يشمله الصمت المطبق.. وكان التلفاز هو المصدر، انه يهدر بصوت (وحيدة خليل) العذب، عذوبة الديرم على شفاه القرويات في الجنوب:

[ماني صحتْ يُمه أحوه،

جاوين أهلنه! جاوين،

جاوين أهلنه!؟..]

حتى اذا ما انتهت الاغنية، ارتفعت آهة، طويلة وعميقة ظلّ صداها، عدة دقائق يتردد في جو القاعة/ الجبّ، وغطى أسى عميق، وكفكف البعض، صراحة دموعه. ولأن الجميع غير قادرين على فعل أيما شيء حتى وان كان بحجم ذرة رمل، يقرب من لقائهم الذي طال أكثر مما توقع له الجميع، سجناء وغير سجناء بأهلهم وأحبتهم غير الصبر، سلاح من لا سلاح لديه، فقد اشتعلت، دفعة واحدة أكثر من مئتي سجارة!.

...

غالباً ما أشعر كأنني ورقة أنتزعتها، عنوّة عن شجرتها يد مجنونة بفضاضة مريعة ورمت بها في استهتار بغيض على الطرق التي تسلكها حوافر الدواب، فتضبب

الموجودات على فقرها من حولي، بما فيها وجوه السجناء، فجأة أنتبه الى وضعي الخطر فانجرف في سَورَة الكتابة التي أحسها وقد صعّد جبروتها عصير الحياة في بقايا غصن وجودي الآيل الى الانكسار، إنها الكتابة وحدها الممسكة بعقلي مهما حاولت ثعالب الليل، وكلاب النهار تمزيقه وادافنته في التراب!

وكنت قد وطدت العزم منذ بداياتي الأولى في الكتابة، إذ حذرني الناقد الجليل د. علي جواد الطاهر برسالة مازلت محتفظاً بها، على الرغم من مرور أكثر من ربع قرن على استلامها، صارخاً بي اذ اضطرب فؤادي يوم فسرّ السياسيون المتعصبون، يساريون ويمنيون ومن منهم في الوسط، مضمون قصتي (الوصية) تفسيرات سياسية ضيقة وغير منصفة على أثر فوزها بالمرتبة الأولى لمسابقة اذاعة صوت الجماهير الابداعية عام ١٩٧١، صرخ بي: [الكتابة مسؤولية جسيمة، وليست عملية تنجز للتسلية، او التفاخر الاجتماعي، أكتب كما تفكر أنت، وليس كما يريد الآخرون أن تفكر، وإلا انصرف الى عمل آخر غير الكتابة] أقول وطدت العزم في أن أتحلى بقدر كاف من اللامبالاة للسياسة وعرّابوها، وبقدر أكبر من الأمانة والصدق والشجاعة والعنفوان فيما أكتب، وذلك من أجل أن أديم كبرياء الانسان مهما كثُر الطاعنون، فبهذا وحده يمكنني أن أحد، ولو قليلاً من الفوضى والتوحش والجهل المحيطة بي.. هذا الثالوث الذي كان ولا يزال المسؤول الأول عن عدم وصول انسان هذه المنطقة، على الرغم من وجوده الممتد لآلاف السنين، الى غاياته المثلى في الحرّية والعدالة والسلام، وكم سيكون مقدار راحتي لو ظنني الجميع هنا، وانا منهمك في الكتابة مخبولاً، او شيء من هذا القبيل، مقابل ان يتركوني وشأني وأنا من جانبي لن أدفع هذه التهمة الكريمة عني لولا خشيتي المؤكدة عما ستجلبه لي من متاعب جمة، على أيدي العشرات من المتحللين، والذين لا عمل لهم غير إطلاق المناكدات البليدة، وصنع المقالب الجهنمية!.

...

ترى ما الذي يبتغيه هؤلاء المتحجرون من وراء اقترافهم المتكرر للجرائم؟ ولِم هذه الجرائم؟ ومن أجل ماذا؟ أهي بمثابة احتقار للمجتمع، أم احتقار لذواتهم أم أحتقار للقوانين، أم أنه احتقار مستتر للرب الذي قرر أن تكون ولاداتهم، حصراً في هذه البقعة الدنسة من العالم؟ حيث يتسابق على احتلالها ونهب ثرواتها واذلال أهلها منذ مئات السنين أرد الأقوام، وأكثرهم وضاعة وتوحشاً.. أرض وهبها الرب خيرات وفيرة

ومتنوعة لكن بخل عليها بحكيم واحد من وزن: لنين، أو غاندي، أو ماو، أو ديكول أو تشرشل أو لنكولن!!..

لماذا ينشطون في الليل، وغيرهم نيام؟ لماذا يرافق أعمالهم الصمت والكتمان والحيلة والقلق، في حين يكون عمل الأسوياء مصحوباً بالغناء والصيحات والمكاشفات والمهاتفات والأمل بيوم قادم أكثر عطاءً؟.

لماذا مملكتهم مرّسمة بالطرق الملتوية والمتداخلة والأزقة المظلمة، والخطى الهامدة، وعلى بطونهم تركت المسدسات والسكاكين والهراوات آثارها شاخصة، وغيرهم يثمرون في الحقول المكشوفة للريح، والأسواق الضاجة حيث عملهم تحت ضوء الشمس الساطع ووهج المصابيح المنوّرة؟.

نعم، لماذا هم الرفقاء المثاليين لقلب الظلام ودماغه وضميره المستوحد المستوحش المقصي المنبوذ الفاجر الملّفق المغموس بالدموع والدماء والتنهدات الكظيمة؟

لماذا لا تصهل خيولهم إلاّ في الظلام، وعيونهم لا تبصر إلاّ في السواد، وفي السواد فقط، شأنهم شأن طائر البوم وفتيات المواخير الرخيصة؟.

لماذا لا تزدهر قاماتهم إلاّ خلال العراك الدامي، المسبوق بملاسنات قصيرة قصر حجم حويصلات صبرهم المحشوة بحصى العدوانية والعنف؟

ما الذي كانوا يأملون أن يجدوه وهم يتسوّرون الجدران، ويحتالون على فتح الأبواب، أهناك فقط يكمن المعنى الحقيقي الوحيد لشجاعتهم؟ تلك الشجاعة المزعومة التي لم يتم تجريتها سوى على الضعفاء والعزل من الناس، إذ لم نسمع أنهم يوماً هجموا على مسؤول في السلطة او على واحد من أثرياء الحروب، أو تصدوا للذين أجاعوهم وأذلوهم من مئات المجرمين الذين يتجولون في شوارع المدن من المزينّة أكتافهم وصدورهم بالنياشين المذهبة، أولئك الأسياد الأردياء الذين كان الطاغية يفتح عليهم حنفيات خيرات العراق ويمنعها على الشعب!!

لماذا إذن مزارهم دائماً نحو الأنشوطة، واللعب داخل الدوائر المسوّرة بالأصفاد.. يتجمعون بإستمرار وعلى نحو مباغت عند الزوايا البعيدة والمنعطفات، يطيلون النظر بعيون مفتوحة الى لطخة الدم الكبيرة على الجدران، ويتحدثون همساً، بينما المراوح تعيد عليهم في دفقات لا تنقطع أنفاسهم العطنة وروائحهم التي تترشح من أجساد لم تغتسل منذ عدة شهور على نحو جيد، لماذا هذا الميل العنيف الى التصادم مثل حيوانات

البراري الذي حلّ حلول اللعنة في دمائهم؟

الكثير منهم، وا أسفاه يتمتع بدرجة ذكاء فوق المتوسط، يمكن أن تجعل صاحبها مؤهلاً للنجاح في الحياة السوية، لكن وقد انحرف بهم (صوت الشارع) وما نسميه اصطلاحاً: رفاق السوء، وما أسميه أنا (صوت الغابة) فحوّلهم الى مجرمين عتاة، حيث يبدع بعضهم في الأساليب الجرمية على نحو مثير!

العتاة منهم يشعرون، باطنياً بخستهم، لكن بعد فوات الأوان، فيبدون عاجزين حتى عن الشعور بالندم، فتزداد عزلتهم عن الآخرين، وتغدو انسانيتهم في تناقص مستمر، وأخيراً يبدو لا سبيل أمامهم سوى اللجوء الى تناول اقراص المخدرات، التي يدخل في تركيبها الأفيون والحشيشة، وشيئاً فشيئاً تنكمش منطوية على بعضها كالحلزون بقية الأنا العليا لديهم وتشارف على الاضمحلال، بعد نقص وضمور مستمرين..

لقد عاف كل شيء، عاف الطعام، وجافاه النوم، وإنقطعت عنه الرغبة بالحديث مع الآخرين وهاهو (سيدع) يجلس لصق الحائط متوحداً مستوحشاً، حزيناً حزناً يفطر القلب كما يقولون، صامت يحدق في الفراغ بعينين مطفأتين، مثل من خسر كل شيء، بما في ذلك حياته برمشة عين! فقد تدَخل (الأنذال!) حسداً أو غيره ووشوا به للدائرة عن علاقته بسجين شاب كان يطعمه كما تطعم الطيور افراخها، فنقلت الدائرة حياته (حبه!) الى قاطع آخر، في الوقت الذي كان يأمل أن ينساه الجميع وحبه، حشاشة روحه ليمضي بقية محكوميته بهدوء وسلام أنه يخطط منذ يومين، يساعده في ذلك أحد أصدقائه للانتقام، من دون شك انتقاماً مساوياً في قسوته لما حلت به من كارثة، ولا أقول من عار، فأمثاله عارهم القاتل يكمن في السكوت عن الآخذ بالثأر، ذلك أن التسامح، ونسيان الأحقاد والضغائن والسعي لإقامة علاقات متكافئة، ومن دون أغراض خسيسة، تعتبر في مجتمع السجن جبناً يهون دونه الموت!!

(علي بلطه) الذي دوّخ مكاتب الشرطة والانضباط العسكري، والذي استحق لقبه عن جدارة حين هزم أثنين من شرطة مكافحة الإجرام حاولا أن يلقيا عليه القبض، كانا مسلحين بالمسدسات، وكان هو قد سلَح نفسه، في رمشة عين ببلطة أختطفها من محل قصابة قريب منه. هم وأن تمكنوا بعد ذلك من كشف هويته، ومن ثم القاء القبض عليه ثملاً بعد أن أحاطت قواتهم بيت عشيقته، لكن هذا لم يأت عن (ذكائهم الشديد!) كما كان يسخر دائماً في طرقهم لكشف الجريمة والمجرمين، بقدر ما جاء عن طريق وشاية أحد

(الجبناء) من الذين أكل قلبهم الحسد لنشاطاته الجمّة ونجاحه المتواصل في السطو على دور الموسورين وإبتزاز التجار، حيث أصبحت أمنيته الأخيرة، قبل أن يموت، هي في أن يتمكن من أصطياد هذا (الفأر) الذي وشا به للشرطة، والقيام بقطع أذنيه ولسانه!

وها هو الحسد، وها هي الغيرة تناصبانه العداء من جديد، ولعل مرديهما هذه المرة، فوزه برضا الدائرة اذ جعلته مراقباً على أكبر الجملونات في قسم الافراج الشرطي حيث يقضي عُتاة المجرمين أشهرهم الستة الأخيرة في السجن..

لقد تخلى عن مسؤولية ادارة الجملون وما تغدقه عليه من امتيازات كثيرة لآخر غيره لا يجيد غير الصراخ وكتابة التقارير، في حين كان هو يؤدب المشاغبين على طريقته الخاصة المتمثلة بالضغط على رقبة الخارج على تعليماته بكلتا يديه الفولاذيتين، ولن يتركه إلاّ اذا قبّل، أمام الجميع حذاءه، وردد واللعاب يملأ فمه، ثلاث مرات بكل ما بقى لحنجرته الممزقة من قوّة: [آنا مرة.. آنا مرة.. آنا مرة!!].

لقد وصل الى علمه أن (حلوه!) قد اشتراه أحدهم بخمسة عشر الف دينار، فازداد تبعاً لذلك حرقه السجاير واحتساء أقداح الشاي، زاده الوحيد! مرّ يومان وجاء من يعرض عليه التوسط للمصالحة مع الواشي وترتيب كل شيء، كما يريد ويطلب، لكنه ظلّ على صمته ولم تدم القضية، وتلك مسألة أثارت فضولي أكثر من يومين، إنهم لا يتركون ما يسيء لهم لحكم الأيام التي ستعمل دون شك على تجريدها من حرارتها!! كان الوقت مساءً، وكنت أجلس كعادتي حين تشتد علي الأحزان قريباً من بائع (النمنم) الذي يعرض بضاعته داخل قناني زجاجية صغيرة تحتوي على أكثر من خمسين لوناً، بأشكال وأحجام مختلفة، حتى أن بعضها من الصغر بحيث تصح مقارنته برأس الدبوس، غالبيته من صنع تايوان: الأحمر ومشتقاته، وكذلك الأزرق والأخضر، والأصفر، والقهوائي، والبنفسجي والأبيض والأسود، بمشتقاتها جميعاً، أحدق فيها مأخوذاً بألوانها فتمارس معي لعبة التنويم المغناطيسي، فحين تنعكس عليها بقايا أشعة شمس الغروب، أو أضواء المصابيح تتفجر مجرات من الألوان التي لا يمكن إخضاعها لتسمية محددة أو توصيف معين، حتى ولا الوان قوس قزح متكسرة على صفحة ماء جدول رقراق، فجأة، وبينما كنت غارقاً في لجة الألوان السحرية، ارتفع صوت كالبوق.

[كلب أجرب!...] تبع ذلك صرخة مدوّية جمّدت لغط السجناء وحركاتهم فهبوا مذعورين بإتجاه الصرخة، ورأيت (علي بلطة) الذي لم يكن يبعد عن مكان جلوسي أكثر من مترين، رأيته يصرع أحدهم بعد أن ضربه على رأسه بمقعد صغير من الخشب الصلب كان يجلس عليه، ثم يقفز عليه كالنمر، ويغرس سكينه في ظهره، وكان أحد أصدقاء المصروع يحوم حول (علي بلطه) وهو شاهر سكينة وكان (بلطه) يصرخ به، وقد فتح امامه صدره ودفع ذراعيه الى الوراء، والدم يقطر من سكينه متحدياً: [ياالله! أنطيها حقها!]

يقصد بذلك أن الذي يحمل سكيناً يجب أن يستخدمها عند وقوع ظرف كهذا، لكن الآخر (لم يعط سكينه حقها!) مكتفياً بالدوران والشتائم، فانقض عليه (بلطه) ولطمه بقبضة يده المتينة على وجهه فأدماه! وكان السجناء والحراس قد اندفعوا متدخلين لفك الاشتباك، ونقل المصاب الذي كان يتنفس بصعوبة واضحة، إذ طالت احدى رئتيه الضربة المحكمة، ورأيت (بلطه) يرمي بسكينه الى أحدهم وقد تلقفها وهرب بها وسط الضجة العارمة!!

وهكذا أجاب (سيد،ع) أو (ع بلطة) على أسئلة المتوجسين والرعاديد من أمثالي الذين يحسبون ألف حساب لنتائج أفعالهم، خسائر وأرباحاً مهما كانت تفاهتها! أجاب بوضوح وصراحة، ومن دون إبطاء، وهو في قبضة سلطات السجن التي لا ترحم..

أذن، أنت في مكان لا تفسير فيه للبقاء، فضلاً عن (الرجولة!) بمعناها البدوي، غير العنف والفحولة!

ما أن هدأت الضجة، وأدخل (بلطه) الى المحجر كعقوبة انضباطية حتى توافد العشرات من السجناء على معارفهم من الحراس والضابط الخافر ليوصلوا (لصديقهم) بلطه فراشاً وسكاير وطعاما، وعدداً من أقراصه المفضلة نوع (الايراني) أيضاً، وقد افلحوا في مسعاهم! وهكذا استلقت أخيراً (فروسية السجن) ممثلة بابنها البار (بلطه) متمددة مرتاحة وقد زايلها الحزن، محاطة بالرعاية والاعجاب الشديدين من قبل الجميع، وأرسل خصماه: الأول الى أحدى مستشفيات بغداد لإجراء تداخل جراحي عاجل، أما الثاني فانزوى في فراشه يلعق جراحه ويداري عاره، وبكمادات من الثلج يغالب نزف وورم أنفه!.

عالم من المناكدات المتبادلة، سرعان ما تتحول الى عداوات متبادلة، حيث تستخدم

الشفرات والسكاكين، وأذرع الملاعق التي يشحذونها على الأسمنت لهذا الغرض، وبذا أحالوا حياتهم الى عالم خشن مقزز أجوف ومتعال، بعد أن جردوه من الخيال والشفقة، فلا يملك المتطيرون من أمثالي إلاّ أن يتساءلوا في عجب: كيف استطاع سكان هذه المدينة الملعونة، مقاومة أسباب الفناء، وسط متاهة الخراب المرّ هذه؟

ويأتيك الجواب من المرضى والأصحاء، من الجياع والمتخمين، من الباكين والضاحكين من اليائسين من عدم انتهاء مدد محكومياتهم، ومن الذين يحلقون ذقونهم، ويكوون ملابسهم استعداداً لإطلاق سراحهم غداً، إن الحياة مستمرة تدب مثل سلحفاة هرمة، أو مثل نمر يقفز نحو طريدته، سواء بنوع ما من النظام، أو من دونه، فأتساءل بدوري عن سبب نفوري الشديد منهم، أهي أفعالهم الخرقاء وحدها التي تقيم الحواجز بيني وبينهم؟ أم أن مئات الكتب التي قرأتها، والتي هم قطعاً لم يسمعوا بها، ويمكن أن يكونوا قد مرّوا بها في تجوالاتهم اليومية في الأسواق، لكن من دون أن يتعبوا أنفسهم، المأخوذة على الدوام بكل ما هو يومي عابر، مجرد النظر نحوها، هي المسؤولة عن ذلك؟

إن كلاما كهذا سيؤخذ من قبل العديد من المثقفين وعلماء النفس والاجتماع، على انه نوع من انواع الانشاء الساذج غير المسؤول، والطرح غير الحصيف، إذ كيف أطلب من الناس، كل الناس القيام بما لا قدرة لهم على إتيانه؟ متجاهلاً ثلاثين عاماً متصلة من كذب وتخويف وتآمر ومطاردات وحرمان وفساد يخجل الكلاب لسلطة يقودها رعاة وجهلاء وفاسقون؟ أليس أن أعتى الصخور وأصلدها يمكن أن تثقبها قطرات متتالية من الماء، ظلت تسقط عليها من دون توقف ثلاثين عاماً؟

حسناً، فكيف إذن أريد لروح الانسان العراقي أن لا يطالها العطب، وقد حوصرت بالطائرات والصواريخ والألغام والقتلى والأرامل والأيتام والأسرى والمفقودين والمتسولين، وناخت عليها وسائل اعلام تنبح على امتداد الليل والنهار، يقودها ويوجهها نفرٌ من عصابات المافيا، متخذة من الخطاب الوطني الملفَق، والقومي الشوفيني، والديني السلفي معاً براقع يستترون وراءها..

نعم، وسائل اعلام تهذر من دون حياء أو شعور بالعار، تعوي وتنبح وتفح وتثغو وترغو بكل ما من شأنه ان يدفع الحجر، وليس البشر حسب الى الجنون!؟

•••

كعادة الدوائر العراقية الرسمية منذ نشأتها، ولا أدري إن كانت هذه الحالة الانتهازية معمول بها عند الدول الأخرى، أم هي خاصة بالعراق؟

أجلبها الأتراك الجشعون الكسالى المسطولون بأرجيلات الأفيون، على عادة ولاتهم في اسطنبول وبغداد، أم الايرانيون، حيث يذكر لنا التاريخ كيف نزحت أرتال طويلة من كلا الطرفين بسبب الفقر في المقام الأول، وجاءت بجهلها وطمعها وعدائها الدفين لترتع في الوادي الخصيب، اشتغل أفرادها على عادة المهاجرين الجياع بأوسخ المهن، ثم شيئاً فشيئاً أستولوا على الدسم من الذبيحة، وبمرور السنوات صاروا أهل البلاد واسيادها، وأمسى أهلها الأصليون مجرد: عبيد، جنود شراكوه معدان وشعوبيون، الى آخر ألقاب المحتل!!.

بكرّ القائمون على ادارة السجن بالحضور، عدّونا على عجل، وعلى عجل أيضاً أخرجونا الى الساحة العامة مع صررنا واسمالنا، وكل مالايجب أن تقع عليه أنظار (الزائر الكريم!) خشية أن يصاب بالغثيان أو الاغماء لقذارة ما سيرى ويشم، وليس خوفاً من دمغهم بالاهمال، ذلك أن الاهمال في الخدمات وغيرها، حالة عامة يغرق فيها العراق من شماله الى جنوبه!..

وعلى الفور جرت عملية تنظيف واسعة شملت القواطع كافة، وتم تنظيم الأسِرّة والأمتعة وكل ما لا يمكن اخراجه الى الساحة!

السجناء بأسمالهم ولحاهم القذرة وسحناتهم الكئيبة، وأمراضهم المزمنة، وتثاؤبهم المتواصل من جراء الأرق، أرق البرد، أرق الجرب الذي تنشط دويبته الملعونة في الليل، وفوق كل ذلك، أرق الجوع!

هاهم يلوبون في الساحة الترابية الضيقة، يبدو ان شريحة الأكراد من السجناء- معظمهم يشتركون، بجريمة التهريب- وقد سدوّا الباب الوحيد للساحة من خلفنا، خرجوا ببضائعهم وسيكون اليوم يومهم، وهذا واضح إذا أوقفوا بيع السجاير على (الأسبين) حصراً، ثلاث سجائر بمئة دينار، وقدح الشاي بخمسين ديناراً، ولفة الفلافل بمئة وخمسين ديناراً، و... الدين ممنوع! وكان العربي الوحيد بينهم (أبو نور) فقد خمن على ما يبدو هو ايضاً بذكائه. ذكاء ضابط اعاشة سابق، كان يحوّل أرزاق سريته الى السوق مباشرةً، بدلاً من مطبخ السرية، فقد نجح بإخراج عدة شايه وبسطيته، وتربع خلفهما ضاحكاً!

ثمة من يتساءل: لماذا لا تجعل ادارة السجن من مثل هذا الاستنفار للنظافة تقليداً اسبوعياً، لا سيما وأن السجناء هم الذين يقومون بذلك؟ فلا أملك إلا أن أضحك من تساؤلات أمخاخ العصافير!

حسناً لقد تم تنظيف السجن، كما لم ينظف من قبل، وها نحن الآن نشم رائحة أعواد البخور التي أشعلوها بسخاء في الممرات والقاعات الخائسة. لم نرَّ الوزير الزائر، ولم يرنا أيضاً، وهذا يعني: لا سؤال من مسجون، ولا جواب من مسؤول، سمعنا بوصوله عن طريق مكبرات الصوت وهي تهتف: [ادارة الاصلاح الاجتماعي في أبي غريب، تشكر بمنتسبيها كافة السيد "الصائغ" وزير العمل والشؤون الاجتماعية لمقدمهِ الميمون..] تقطع الكلمة هتافات: "يعيش يا.. يعيش يا] ثم تستكمل بالديباجة الثورية المعهودة: [وإننا سنظل جنوداً أوفياء، سيوفاً بتارة، بيمين القائد المنصور بالله، صدام حسين حفظه الله ورعاه..] ثم سمعنا الوزير يشكر مدير عام السجون، ومدير عام السجون يشكر مدير سجن الافراج الشرطي، والأخير يشكر المراقبين على الأقسام، والمراقبون يشكرون بدورهم زملاءهم السجناء لتعاونهم اللامحدود، وهكذا، وهكذا!

وكانوا قد اختاروا عدداً من السجناء ممن يجيدون الغناء والعزف على الالات، والقاء قصائد من الشعر الشعبي، واستنفروا الموسورين من السجناء إذ ذهبوا لاستقبال الوزير ومن بمعيته بأزياء تليق بالمناسبة، ثم سادت فترة صمت، وكان النهار قد انتصف، وعذَّب الجميع العطش والجوع والحاجة الملحة للذهاب الى المراحيض، وكان البعض يصبِّر البعض من اللجوجين، بلهجة ساخرة:

(إهدأ، إنهم الآن يأكلون أكباد الخرفان، وسينتهون سريعاً!).

وكانت ادارة السجن قد فرضت شأنها دائماً حين يحتاج السجن الى اصلاح بعض المرافق، كالسيارات المعطوبة، أو مد أنابيب وهمية للماء، أو استبدال المصابيح، أو اعادة طلاء الجدران، وعشرات القضايا التي يتم اختراعها كل يوم، فرضوا على الجميع مبلغ مئة دينار من كل سجين (لاقامة حفل استقبال، وغداء يليق بالسيد الوزير..) والهراوات بإنتظار الممتنع.. أخيراً تنفس الجميع الصعداء، بإستثناء الأكراد وأبي نور طبعاً، إذ رأينا بوابة الساحة تنفتح ويطل أحد الحراس يتجشأ ويدخن مسروراً، فاندفع الجميع يتأبطون صررهم وأسمالهم، وكنت من المرضى وكبار السن آخر من غادر، وحين صرتُ قريباً من الحارس تلبستني روح المشاكسة، فرددتُ بصوتٍ جاهدتُ أن

يسمعه: [يا أمةً، ضحكت من جهلها الأمم..]

فهشني الحارس في لطف بماسورة سوداء يحملها بيده، وتساءل ضاحكاً

[متى نخلص من مشاكل الصحفي؟]

ثم دعونا للتعداد، ورأيت (شيخ مزهر) مهرب الأغنام والسجاير والخمور، كعادته عند التعداد، وعادة من هم في مثل وضعه المميز، يقف أمام باب غرفته الخاصة، بكامل ملابسه العربية الثمينة، يمسد شاربيه اللذين يلصفان جراء لحوم وشحوم المأدبة، وقد بدا وهو يشبك يديه القصيرتين على بطنه الكبيرة، مثل حيوان البطريق!

عند السابعة مساءً نقل جهاز التلفاز، عبر البرنامج اليومي العام (الأخبار المحلية) نقل بالصورة والصوت زيارة الوزير الثورية!.

•••

منذ يومين والسماء تمطر على نحو عنيف ومتواصل، هذا ما نشاهده من خلال فتحات الشبابيك الحجرية العارية، ونسمع رشقه السريع الثقيل على سطح الجملون، الأمر الذي جعل معظم السجناء في وجوم شديد، صغار السن منهم يتسمرون، ويبكون أحياناً، لأن الأمطار ستحول دون مجيء ذويهم لزيارتهم، اذ أن زيارة السجين هي النافذة الوحيدة التي يحسب لها الأيام والساعات في جزع ما بعده جزع، ذلك أن عدم حصول الزيارة يعني جوعا مؤكدا وإذلالا لا سبيل الى وصفه.. لا طعام ولا نقود، يعني لا أكل ولا سجاير، بمعنى أن السجين سيظل تحت رحمة (شوربة الحكومة!) الداخنة في معظم الأحيان والمرة والمليئة بالحصى! وذلك لعدم تنظيفها من الشوائب: من الأكياس الى قدور الطبخ مباشرة! مما يدفع السجناء وقد أرهقهم الجوع الى اعادة طهيها، بعد أن يتم تنظيفها، واضافة القليل من البصل والزيت اليها.. اليوم الذي يسبق المواجهة يكون الجميع في حركة دائمة: ينظفون ملابسهم، ويرتبون أماكن لجلوس من سيأتيهم، وكنت وحدي أرقب المشهد مثقلاً بأوجاع تكفي لإبكاء سكان العالم! ولعل هناك من هو أشد حزناً مني، أقصد (أبو إيمان) في الثالثة والخمسين من عمره، موظف سابق في دائرة الضريبة، تهمته (إهمال وظيفي) العقوبة: سنتان ونصف سجن، متزوج منذ عشرين عاماً من مدرِّسة، أنجب منها أربعة أطفال، أمضى حتى الآن أكثر من سنة ونصف من مدة عقوبته، لم تزره زوجته ولا مرة واحدة، تقرحت أجفان عينيه اذ يبكي صباحاً، ويبكي مساءً لشدة حنينه الى أطفاله، نحل عوده كثيراً، وابيَّض شعر رأسه

وحاجبيه، يتصدق عليه البعض من شرفاء المسجونين.. (أبو حيدر) عمره خمسة وأربعين عاماً، التهمة صك من دون رصيد، سجن ثلاث سنوات، لن يخرج من السجن حتى وان أنهى سنوات محكوميته، إذ يتوجب عليه دفع المبلغ، مضروباً في خمسة!! كثيرون هنا من أصحاب الصكوك من دون رصيد،من دون أمل، الماجدة (أم حيدر) لم تزره ولم تسمح لأبنائه بالمجيء اليه صديقته وحدها تحرص على زيارته إذ تأتيه في كل مرة محملة بالأكياس، من دون أن تخشى اهلها، كم كبُرت فيها وفاءها وشجاعتها النادرتين على المرأة العراقية.. (أبو محمد) العجز عن تسديد دين، سجن ثلاث سنوات، لم تزره زوجتاه الأثنتان، وقد سيطر أهلهما على آثاثه ومتاعه التي جلبها من الكويت بعد أن غزاها (البطل القومي!) حيث عاش هناك أكثر من عشرين عاماً، زار معظم دول العالم- تظل مدينة مدريد الأقرب الى قلبه- أقتنى أفخم السيارات، وكانت سجارته المفضلة (لارك) الأمريكية المعبأ فلترها بحبيبات الفحم المفلترة للنيكوتين، الآن أمسى حاله حال (أبو ايمان) دشداشته مرقوعة عند عجيزته مثلما هو أبو ايمان، غير أنه أخذ على عاتقه غسل أواني الطعام لبعض الموسورين، إذ أشاهده دائماً عند المغاسل يتشاجر مع من هم بعمر أحفاده!

يالجلادة قلوب بعض النساء، الناسيات للذكريات، الناكرات للعهود، فاتذكر نساءً من هذا النوع تحفل بهن كتب الأدب والتاريخ!

ثلاثة أسابيع متتالية والزيارات الأسبوعية لذوي السجناء تأخذ طابعاً شديد الضراوة، فالقوّة الاجرائية للسجون قد استنفرت أقصى طاقاتها للبحث عن المواد الممنوعة، التي يمكن أن يسربها بعض الزائرين الى داخل السجن، إذ راحوا يستخدمون أنطقتهم العسكرية الصلبة والهراوات والمواسير المطاطية لتنظيم صفوف الزائرين والزائرات، وهم بالآلاف في كل مرة! اذ وقعت عدة حوادث خرق خطرة، كما يزعمون منها: القبض على امرأة تحاول تهريب مسدس، بين نهديها لإغتيال قاتل زوجها في قسم الأحكام الطويلة، بعد أن كانت قد قامت بزيارات متعددة تمكنت من خلالها من التعرف على القاتل وتحديد مكانه... وفي قسم الأحكام القصيرة، عثرت الحارسات على كيس نايلون مملوء بألف قرص من المخدرات، مخبأ داخل فرج أحدى الزائرات، أما محاولات إدخال السكاكين والآلات الجارحة، بناءً على توصيات ذويهم من السجناء المتهورين، فأمر لكثرة تكراره ما عاد يثير الدهشة!

وتكون مجاميع الفتيان المهاليس، من أيتام الحروب في الغالب الأعم، قد اندسوا بين الزائرين متسللين الى داخل السجن، بصفة عتالين، ليمارسوا بيع السجاير والخضراوات والصحف أحياناً أو الشحاذة، او البحث عن بقايا الصمون والخبز اليابس، أو سرقة الأواني المصنوعة من مادة (الفافون) حصراً المطلوبة من قبل معامل صنع الأواني المنزلية، فتيان حفاة، شعر رؤوسهم لم يغسل، ولم يمر فيه مشط قط، بعضهم يربط قدمه المجروحة بخرقة قذرة، هم من دون شك أبناء قتلى الحروب، او المفقودين أو المسجونين أو المعدومين لأسباب شتى..

ثمة العشرات رجالاً ونساءً، ممن قدموا من مدن العراق الجنوبية وقصباتها، بحثاً عن أبنائهم أو أزواجهم، يتشبثون بالسجناء، يسألونهم بشفاه يابسة، ووجوه ممتقعة، وبالحراس الذين ينتهرونهم أو يصرفونهم وهم يضحكون.

"– يمه! ما تعرف ولد أسمه فاضل حسون، من أهالي البصرة؟"

"– خاله! ما صادفك ولد اسمه كريم ملا جاسم من الناصرية؟"

"– وليدي، ما سمعت بواحد أسمر مثلك أسمه جار الله سلمان، من الكوت؟"

الأجوبة دائماً: "لا.. لا والله.. لا حجيه.. آسف أختي".

الأجوبة قصيرة وخاطفة وسريعة، تخترق أفئدة المتسائلين والمتسائلات كالطلقات!–

في الممر الرئيس يقف السجناء في زحام شديد، يراوحون فقد أتعبهم الوقوف، يشرئبون أعناقهم يمطّون قاماتهم إذ يرتكزون على أطراف أصابعهم، على أمل أن يكونوا الأطول قامة، ليتمكنوا من رؤية أحدٍ جاء لزيارتهم، البعض ممن مرّت عليه الشهور وربما السنوات من دون أن يزورهم أحد، إذ نسوهم أهلهم أو تناسوهم، تحت ظروف شتى، في مقدمتها العوَز، يجلسون لصق الجدران وقد طرحوا، في قنوط كامل رؤوسهم الثقيلة على راحاتهم من دون أمل.

الأهل ما أن يعثروا على سجينهم حتى يرمون أنفسهم عليه، وينخرطون في بكاء حار، أما السجين وقد مرّت عليه شتى صنوف المحن والعذابات، فتحجرت عواطفه، لذا تراه يتصرف ببرودٍ وحياد مهوناً عليهم الأمر، وكأن المقصود شخص آخر سواه!!.

وألمح المجنون (جاسم) وقد شرَع كعادته ايام المواجهات، قلم الحبر الجاف وأخذ

يرسم، في شيطانية مريعة، خطوطاً من الحبر يصعب ازالتها على أثواب وقمصان وعباءات الزائرين، وفي كل مرة ينجح يقفز منتشياً، وقد غطى وجهه بيديه، ينتبه أحد السجناء الى ما يفعله، ينتهره، ويأخذ القلم منه، يكسره، ويرمي به في وجهه، الأمر الذي يجعله ينخرط في نحيب متواصل!

بالنسبة لي، إنقطعت زوجتي عن زيارتي منذ ثلاثة أسابيع متتالية، وكنت قد أخبرتها أثناء زيارتها الأخيرة أنني لا أملك غير بجاما واحدة، أغسلها ليلاً، وأرتديها في النهار ومن ثم بات من الضروري جلب بعض قمصاني الشتائية، وحاجيات أخرى ضرورية: كأدوات الحلاقة، ومسحوق الغسيل، واوراق للكتابة، وعدد من أقلام الرصاص، أيّ مكروه وقع لهم ومنعهم من زيارتي كل هذه المدة التي أحسها بثقل سنوات عمري الخمسين؟ لاسيما وأنها تفهمت جيداً مقدار الحرج الذي سيعاني وطأته الباهظة السجين الذي تنقطع، فجأة عائلته عن زيارته! بعضهم عرف محنتي فراح يمزح معي:

"- أبو سلام، أنت مصري، باكستاني؟"

فلا أملك غير أن اتماسك، واضحك مدارياً الموقف العصيب، فأقول:

- لا والله، أنا من "بروناي!" وكانوا قد سمعوا بقصة الشاب الموصلي مع بروناي/ الحلم، فيضحكون وقد انطلت عليهم الحيلة، فيدعونني الى مشاركتهم الطعام!

اليائسون تماماً من خلال التجربة الطويلة، من أن لا أحد سيزورهم، وحدهم يتنفسون الصعداء لحظة الاعلان عن انتهاء موعد الزيارة، بل أن بعضهم يسهم متطوعاً بالتعجيل باخراج الزائرين من الردهات والممرات والغرف، ثم يجلسون وهم في شبه غيبوبة من جراء الجوع، مستغرقين في أفكار غامضة ومشوّشة، لا يفكرون قطعاً بأهلهم أو زوجاتهم أو أطفالهم، يفكرون بإمرأة كائن من تكن، تزورهم وبيدها كيس يحتوي على عدد من أقراص الخبز والتمر، حسب، يأملون برجل يصافحهم، ثم يمنحهم علبة سجاير، وقليلاً من النقود..

ألمح بعضاً من السجناء ممن يتخمون بطونهم بالطعام أيام الزيارات فقط، كما تفعل بنات آوى حين تتاح لها وليمة دسمة من الدجاج، يلتهمون الطعام بيديهما الاثنتين، من دون أن يرفعوا رؤوسهم عن فوهات القدور، حتى اذا انتهوا، حرصوا على الاحتفاظ بالمتبقى لليوم القادم، ثم يتمددون، يتجشأون على أفرشتهم القذرة كالجواميس، وقد

عاد لهم شيء من فرح مفقود!.

بعض السجناء يودعون زوجاتهم بطريقة فاضحة، يحتضنونهن ويقبلونهن من أفواههن على مرأى من الملأ، وحين تساءلت، في أيامي الاولى عن سبب هذه التصرفات التي تفتقر الى الحشمة، ومن سجناء مشهود لهم بالتزمت، جاءني الجواب سريعاً، ومن أكثر من واحد:

"- ولم لا؟ ثم أنها واحدة من تقاليد السجون!".

الآن وقد هدأت سورة الزيارة، نام من نام، وجلس بعضهم يثرثر، وارى (الحلو!)، (ت) منزوياً تعيساً، فيوم كان (رفيقه) يلازمه، يصرف عليه، ويعتني به، مثلما يصرف ويدلل العشيق الولهان عشيقته، كان دائماً يحرص أن يكون دائماً بمظهر مثير، اذ تراه على الدوام بيد يمسك المرآة، وبالأخرى الملقط، يحف به شعر حاجبيه وشاربيه الخفيفين وذقنه، يترك مقدمة شعر رأسه تتأرجح على ناصية كالحال عند المراهقات، يمضغ اللبان ويتعطر، حتى إذا ما هجره (ملتزمه) وانتقل الى قاطع آخر استعداداً لإطلاق سراحه، هاهو الآن قد أهمل نفسه مثل امرأة تركها زوجها الى امرأة أخرى، أو الى جهة بعيدة..

أما (ك) البالغ من العمر خمس وخمسين سنة، السجين منذ عشر سنوات، بتهمة قتل زوجته المنحرفة، يجلس بوجهه الشبيه، يا سبحان الله، بوجه إمرأة من الهنود الحمر دائري وقرمزي على نحو لافت! الجلسة ذاتها ليل نهار، او يتقرفص على قطعة صغيرة من الأسفنج، هي كل ما تبقى من فراشه، لم يتذمر في الشتاء، ولم يتذمر من حرّ الصيف، لم أره ولو مرة واحدة يكلم أحداً، ولا أحد يكلمه، يعد على أصابعه، ويحدق في السقف العالي بعينين أبيضتا من فرط الحزن وطول لياليه، ترى أيعد ما تبقى له من أيام لا تريد أن تنتهي، أم أنها لعبة يسلي بها نفسه، ويهرب من نيران ذاكرته في آن؟

حين نادوا ذات صباح باسمه ليغادر السجن، لم يتزحزح عن مكانه قيد أنملة، ثم جاء مراقب القاعة وطلب منه أن يهيء نفسه للمغادرة، ظل الرجل على صمته وجموده، يحدق في السقف العالي، ويعد على أصابعه!

أخيراً تمكنوا من إقناعه، وتم دفعه خارج أسوار السجن، بعد مدة جاء من يقول أن (ك) لايزال يجلس على رصيف الشارع المقابل لبوابة السجن، جلسته ذاتها داخل الجملون، يحدق في السماء، ويعد على أصابعه.. وأن أصحاب المطاعم المجاورة وقد

أذهلتهم حالته، أخذوا يتصدقون عليه!

يا للمكسين لقد فقد عقله من دون أن نعلم، بل ومن دون أن يعلم هو نفسه حتى الآن!!.

ما أن يغادر الزائرون عائدين الى بيوتهم، حتى أن معظمهم لم يصل الى الشارع العام بعد، وأن معظم السجناء لم يهنأ بتناول طعامه، حتى تهرع الى القاعات مجاميع الدائنين، ممن يتعاملون وفق مبدأ (الفاتورة) يحملون سجلاتهم: خبازون، حلاقون، وبائعو أدوية، متعهدو الحمامات وطباخات الغاز، ومؤجرو أجهزة التلفاز، والثلاجات، ومبردات الهواء، وما يسمى بـ (العنقرجية) وهم طائفة عمال النظافة، وجالبو وجبات الطعام النزيرة من المطابخ العامة، جمهرة غفيرة من الدائنين، فترتفع ضجة صماء من الملاسنات والشكاوى والتوسلات والشتائم والتهديد والوعيد، وأنت إن أقنعت أحدهم بأن لم يأت أحد لزيارتك، صدقاً أم كذباً، فكيف تقنع الدائرة، وقد دخلت مجاميع من الحراس بعصيهم، مطالبين بـ (٢٥٠) دينارا عن كل سجين، وذلك لإدامة محرك السيارة التي تقوم بنقل الموظفين والموظفات؟!.

يتقدم جمع الدائنين بعض من الكرد، غالبيتهم العظمى من الشباب، إذ يسيطرون على معظم أعمال البيع والشراء داخل السجن، حيث رست عليهم المناقصة، نصف السنوية، بعد منافسة ساخنة ضد الأثرياء من السجناء العرب.

طالما أثار حبهم، غير الطبيعي للمال نفوري، خصوصاً وهم في هذه السن، مثلما أثار تساؤلي الذي لم أجد له جواباً مقنعاً، عن السبب الحقيقي وراء قطع أصابع أيدي بعظهم، الذي يبدو أنه جاء نتيجة تعرضهم لآلات حادة، لكن كيف، ومتى، ولماذا؟ لا أحد منهم يفصح عن ذلك، وإذا ألححت فستثير غضبهم، اذ لا جواب غير العبارة الغامضة:

[كاكه! ما يسكت خاطر الله؟!]

إحتقارهم للآخرين من غير الكرد واضح، على الرغم من محاولة إخفائها لسبب يتعلق من دون شك بتمشية قضاياهم التجارية من دون مشاكل، ولاحظت رجلاً منهم بملامح حجرية، يكثر من الصياح، يتجول بشرواله الواسع مذكراً مديونيه أنه لن يمنحهم فرصة تأجيل أخرى، وسيوقف التعامل معهم بالفاتورة اذا لم يسارعوا ويسددوا ديونه في الزيارة القادمة!.

•••

يبدأ الصباح مثل كل الصباحات التي انقضت، والأخرى القادمة، فبعد أن تنتهي عملية التعداد يلتم بعض السجناء ممن يشتركون بالأكل سويا، اذ يتحلقون حول موائد الافطار الفقيرة باذنجان أو طماطم مقلية والخبز الذي دبّت البكتريا على حافاته، لكنهم يمسحونها بأثوابهم ويتناولونه بشهية أثرياء الشورجة للصمون الفرنسي الذي تعده أفران خاصة، ثم يأتي طقس التدخين، اذ يشترك أكثر من ثلاثة في سجارة واحدة، يمتصون فلترها في شراهة! وبحكم المعايشة الطويلة لعالم الهراوات والحرمان والشتائم والتعليقات بالكلمات التي لا تخطر لبذاءتها على بال أحد غير بال مؤلفيها المجهولين، تستمر الحياة بدوائرها المغلقة المتداخلة، وليس بدائرة واحدة، كما يبدو للآخرين، تستمر بالدوران الميكانيكي من دون توقف، وتستمر بالمقابل مكبرات الصوت وهي تبصق اعلاناتها وتوجيهاتها وأوامرها والتي تختتم بعد كل نداء بكلمة واحدة محددة، تلفظ بنبرة استفزازية، تحذيرية [فوراً] النزيل كريم الكهربائي، يجب حضورك الى السيطرة، فوراً. النزيل حسن الحلاق، يجب حضورك الى السيطرة، فوراً، فيهمس البعض: ترى، سيحلقون شعر مَن؟ على النزلاء التالية أسماؤهم، الحضور أمام السيد ضابط الخفر، فوراً. وتبدأ قائمة طويلة بالأسماء الثلاثية أو النعوت، تعرف من خلالها هوية اصحابها: (بندرجية) يعني مروجي أقراص المخدرات، أو (نكرية) بمعنى (نشالة) أو من الشاذين جنسياً.. على النزلاء كافة عدم التجول في غير أقسامهم بأمر السيد الضابط، فوراً.. على مراقبي الردهات تقديم أسماء المخالفين للسيد ضابط الخفر، فوراً..

وبين نداء وآخر يتسلل صوت المذياع ناقلاً خبراً سياسياً أو رياضياً أو أغنية:

"أعلن مصدر مسؤول في وزارة التجارة عن عدم احراز تقدم ملموس، حول مذكرة التفاهم بين العراق والأمم المتحدة، بخصوص مبيعات النفط مقابل الغذاء والدواء.. اسمع سجيناً يتمتم": لقد احترق السوق.. لعنة الله على الملموس، والمحبوس، وإكيوس، وجماعة التيوس.. مؤامرة قذرة" أعجبني كلامه فسألت أحدهم عن تهمته، فاجاب: "طلّق زوجته، وحين عجز عن دفع النفقة لأطفاله الأربعة، حزّموه بثلاث سنوات سجن!" ثم خبر آخر يقول: صرح قائد القوات الروسية في الشيشان، عن مقتل سبعة من جنوده، في كمين جنوب (بروزني) العاصمة.. فأضحك وأقول لمن يجلسون قريباً مني:

"- ذبح ناقته الحلوب، ثم راح يركض وراء أرنب في غابة!!"

يبدو أنهم فهموا ما أرمي اليه، فضحكوا بدورهم، وهزوا رؤوسهم على وفاق معي..

ثمة رجل في الخمسين من عمره، دائماً أراه منكباً على قراءة كتاب جيد، غير أن ما يفسد رغبتي بالتقرب منه، شكله الغريب المضحك الذي يذكرني بطائر (الكرسوع) ومظهره المرتبك اذ يبدو كالمجنون وهو يقرأ او يدخن أو يسير.. منذ يومين أراه ترك الكتب. وانشغل كلياً بحياكة الأخفاف، فأقول: حسناً فعلت أيها الرجل الكرسوع، اذ يمكن أن ألتحق بك آنا الآخر بمجرد أن أجد من لديه الوقت والمزاج ليقوم على تدريبي!..

وارى (الكرخي) وهو يكسب لعبة المنضدة المرة تلو الأخرى، يشاع أن جريمته هي من أكثر الجرائم إثارة وغموضاً: ممارسة الجنس مع شقيقته وحملها منه جنيناً، وضعته وهو في السجن لكنها دفعت عنه التهمة اذ أسقطتها على رجل مصري اغتصبها، وغادر العراق، لكن هذا لم يمنع السلطات من حجزه لحين القاء القبض على المصري، بمساعدة السلطات المصرية الجنائية التي لم تستجب للطلب حتى الآن، وقد مرّ على الحادثة أكثر من سنتين.. الوشاية جاءت من الأم، ولعل الأغرب أن (شقيقته) مواظبة على زيارته في الفصول كافة، تأتيه محملة بأكياس الطعام والمستلزمات الأخرى، يجلسان بعيداً عن الآخرين في الساحة العامة، يأخذ منها الطفل يضعه في حضنه، وبمحبة كبيرة يتشممه ويقبله ويداعبه، كما لو كان ابنه حقاً! وقد شاهدتُ ذلك شخصياً أكثر من مرة!..

وأشاهد الأخوين من الرمادي، مع ثلاثة آخرين، الخمسة أبناء قضية واحدة، هي إغتصابهم فتى في الرابعة عشرة من عمره، بالتناوب، ثم القيام بتعذيبه بالكي بالنار حتى الموت!

ومع فظاعة تلك الجريمة ووحشيتها، فقد حكموا بخمس سنوات سجن لكل واحد منهم!! أهلهم وزوجات المتزوجين منهم ياتونهم من دون انقطاع، يتبادلون واياهم القبل والنكات، يقال أن الفتى المجني عليه أبن لإمرأة كانت عشيقة الأخ الأكبر، وقد قررت إنهاء العلاقة معه، فثأر (لرجولته المهانة!!) أما بقية الشلة فهم من أصدقائه، جميعهم يتناولون الأقراص المخدرة، وجميعهم يغطي الوشم كفوفهم وسواعدهم وصدورهم، وجميعهم أيضاً لكل واحد منهم (حلوه!) الخاص به!!

الشعور الانساني المذبوح، العطف الفائض عن الحاجة، الرأفة الكاذبة، التفاهم بين الطرشان، طاروا كالدخان من قلوب الجميع، اذ هاهو (أبو ناصر) في السبعين من

عمره، الذي فشل في أن يقنع أبنته بالعدول عن جادة الانحراف، فاضطر الى ذبحها.. يتجرأ القصاب (أبو حيدر) على اهانته إهانة غير مسبوقة، فقد عمد الى اسقاط (القرآن) من بين يديه وهو يقرأ فيه، بحركة من قدمه أراد لها أن تكون غير مقصودة، فهب (أبو ناصر) مثل لغم موقوت، فراح ينتف شعر لحيته الطويلة البيضاء، بياض الثلج المسرّحة والمعطرة وفي حنق عظيم يضرب صدره، ويلطم وجهه، ثم ذهب مولولاً يرتجف من الغيظ وجسامة الاهانة الى مدير السجن، الذي ما أن علم بالأمر حتى هبّ من فوره وأصطحبه الى الجملون ولكي يتماسك دفع (ابو ناصر) يديه خلف ظهره، وقد أمسكت الواحدة بالأخرى بشدة، وكان جسده الطويل النحيل يتأرجح مثل شجرة في الريح، وكان يدل على الفاعل الذي جلس جامداً في مكانه، وقد اصفر على نحو مريع، وأكاد اسمع من مكاني الذي لا يبعد عنه أكثر من مترين، طبول قلبه وهي ترعد!

(أبو ناصر) الذي أخشى أن يصاب في أية ثانية بالشلل، قد أبيضّت عيناه، وأخرست جسامة الحادثة لسانه، وتوقع الجميع وقوع عاصفة من العقوبات الجماعية لا أحد يستطيع تقدير دمارها، فانكفأنا منكمشين على أفرشتنا، وعلمتُ أول مرة، ماذا تعني عبارة: وعلى رؤوسهم الطير! وجاء خلف المدير عدد من أفراد القوّة الاجرائية يتقدمهم الضابط الخافر ممسكين بهراوتهم الغليظة، وعوى المدير مثل ذئب جريح:

"- من من الخنازير فعلها؟"

فخطا (أبو ناصر) ،امسك المذنب من أذنه ونترها بقوّة، وفي مثل لمح البصر قفز الحراس مثل مجموعة نمور جائعة صوب طريدتها المستسلمة على نحو ساحق، وكل واحد منهم يناضل بإمساك قطعة من جسده، ثم ربطوا يديه خلف ظهره، وكذلك فعلوا بقدميه، ثم علّقوه الى عتلة (الفلقة) وتناوبوا على ضربه بالعصي والمواسير المطاطية، ضرباً مبرحاً، ويبدو أن الفاعل شعر بنهايته الحتمية، فراح يستنجد بصدام حسين، وينتحب مثل امرأة تعيسة، وأخذ دمه يتناثر، على أثر كل ضربه على الجدران، وعلى القريبين منه، بينما وقف المدير وقد باعد بين ساقيه، ودفع يديه داخل نطاقه العسكري، وكل شيء فيه يصرخ: (مزقوه!).

أخيراً وكأنهم خشوا أن يموت، أنزلوه وفكوا وثاقه، ورموا به ممزقاً في غرفة المحجر. وفي اليوم التالي عرضوا أمره على مسؤول البحث الاجتماعي، الذي أمر بحجره شهراً كاملاً، تمنع خلاله أي نوع من أنواع الزيارات عنه، مع حجب الافراج الشرطي، وهو

ثلاثة أشهر تسقط عن كل سنة حكم يمضيها السجين من دون مشاكل.

وهكذا عمَّ المكان الذي كان يرقد فيه (الجزار) وكنت أرقد داخل مستطيله الملعون، عمّه الهدوء، وتمنى له الجميع البقاء في مكانه الجديد حتى يفطس!.

ذات مساء مبارك(!!؟) هل في السجون صباحات ومساءات مباركة؟

علت همهمة واسعة، واندفع السجناء بصحونهم صوب القدر الكبير الذي جاء به (العنقرجيان) وهما يضحكان، وكنت أنا الآخر قد خطفت كوبي المعدني، وهرعت باتجاه الضجة، ولأن العنقرجيين الخبيثين كعادتهما ملأا قدرين لهما ولمعارفهما وانسحبا تاركين الجميع تتقاتل حول القدر، كل حسب قوّته وشطارته، أتخذتُ موقف المتفرج، حيث رأيت أحدهم ممن تربطني واياه علاقة طيبّة، يخرج وسط المعمعة، وقد غرف لنفسه كمية لابأس بها من محتويات القدر، حين شاهدني أومأ لي فتبعته، وفي زاوية بعيداً عن أعين الآخرين ملأ كوبي بمادة الحمص المطبوخ!.

جلست مسترخياً مع من فازوا بالحصول على حصتهم، ورحنا نتناول حبات الحمص اللذيذة في نشوة عظيمة!

ولأن (اللبلبي) يُعد المزة المفضلة لجميع روّاد الحانات في العراق، فلك أن تتخيل زوابع التعليقات التي دارت بين الجميع أثناء تلك الفترة الخرافية من الزمن.

كان بعضهم ينادي، كما هي الحال في الحانات الشعبية:

[جورج! يا جورج أما تسمع ربع عرق أسود، بسرعة رجاءً !]

[شمعون، يمعود! بطل بيرة فريدة بارد..]

[أبو مايكل، ربع ويسكي، بلاك اند وايت، مختوم لا تنسى؟].

•••

في الليلة التي تسبق الافراج عن أحدهم ممن أنهى مدة محكوميته، يقيم له أصدقاؤه حفلاً توديعياً بسيطاً، شبه سرّي، فهو عادة يتم بعد العاشرة ليلاً اذ يكون الحراس قد أتموا وضع الأقفال الثقيلة في الأبواب الداخلية والخارجية، وتجمعوا حول التلفاز لمشاهدة فيلم السهرة..

حفلات إطلاق سراح الموسورين، تتم أثناء النهار، يجندون لها كل من يجيد العزف والغناء، وما أكثرهم في السجون.

يحضرها موظفو وموظفات السجن، يتقدمهم (السيد المدير!) تقدم في نهايتها وجبة غداء دسمة، وتوزع السكاير والقهوة والمرطبات والحلوى!

في الحفلات التي نحن بصددها، حفلات السجناء المهاليس، يمارس السجناء خلالها بعضاً مما يدور في دواخلهم من أرهاصات نفسية شتى، فما حفلة توديع صديق عزيز، سوى ذريعة إذ ما أن تبدأ الأغاني التي تبرع بتقديمها مجاناً من يجيد الغناء، حتى تبدأ طقوس المأتم التي كانت تقيمها أمهاتهم اللاتي من أصول جنوبية، أيام المعارك الطاحنة، حيث يرتفع صوت المنشد بنبرة يختلط فيها الحزن بالغضب والسخرية المريرة:

[بالله عليك يسايق السمتيه

خذني وياك لخطوط الأماميه

مضيعتلي ولدْ

خريج كليةْ

حلوين وناموا بلهيمه[١]

أحاه.. أحوّه..]

[يآمر الفوج

وين الولد وديته؟

دوّرتْ السرايا عليه ما لكيتهْ

يذكرولي بالبسيتين، بالمحمرة[٢]

بنهر جاسم، بالأنفال

جبته وياك، لو بالفاو خليته؟

حلوين وناموا بالهيمةْ

(١) الهيمة: كلمة شعبية عراقية، تعني الأرض البعيدة المقفرة و الموحشة.

(٢) البسيتين و غيرها أسماء لاماكن عراقية و إيرانية، دارت عليها رحى معارك طاحنة، راح ضحيتها الآلاف من القتلى، من جنود الطرفين، أبان حرب سميت، حرب الخليج، بالنسبة للعام، والقادسية الثالثة بالنسبة للبعثيين الذين أشعلوا أوارها الرهيب

أحاه.. أحوّهْ..]

أما وقد أرتفعت حماة الأصوات بأكثر مما هو مسموح به، متبوعة بالتصفيق المنغوم، والضرب على الصدور، يهب مراقب القاعة، وهو سجين انتخب، لشراسته من قبل الدائرة، ليكون سجاناً متمرساً بالنيابة

يوقف الحفل، ويدعو الجميع الى التفرق، ويصيح في تحدٍ:

[يامشاكل! كفى مشاكل وإلا..]

يفهم الجميع الرسالة، ويتفرقون كل الى فراشه.

*** مخطط لمكان الكاتب من المربع الذي شغله وسط الآخرين**

تهمة السجين	السجين	السجين	تهمة السجين
هروب من العسكرية	○←──	○←──	قتل
غسل عار	○←──	○←──	نصب وأحتيال
تهريب	○←──	○←──	قتل
تزوير	○←──	○←──	(الكاتب) مرور
قتل	○←──	○←──	سرقة

ملاحظتان:

١- النوم على الأرض، الأفرشة والأغطية من ذوي السجين نفسه.

٢- لا توجد مسافات بين سجين وآخر، فهي متلاصقة من الجهات كافة.

ليلة الكالوسة

مثل كل ليلة وأنا مرمي بين الأسرّة التي حصل عليها بعض السجناء عن طريق الرشوة، وفيما أخذتني بعد أرق طويل اغفاءة قصيرة، شعرتُ بدبيب مقلق على معصم يدي اليسرى، انها حشرة من دون شك، همست في سري، ولأن كلمة (حشرة) في السجن تعني في مقدمة ما تعنيه الاصابة بمرض جلدي ما تصعب معالجته لفقدان الأدوية في مستوصف السجن الفقير، من جهة، ولإرتفاع أثمانها عند أصحاب (البسطيات) من

جهة ثانية، رفعت جسدي بهدوء وعرضت كفي على ضوء المصباح، فهالني ما رأيت: حشرة سوداء، كروية، بحجم حبة الماش، نفضتها في خوف، فارتطمت برقبتي، ثم طفرت الى صفحة خدي الأيمن، حيث قصفتها بضربة محكمة، لحظات وشعرت بوخز في الأماكن التي مرّت عليها، نهضت في جزع ورحت أغسل الأماكن بالماء البارد والصابون، لكن لا فائدة، اذ احمّرت الأجزاء المصابة وأصبح ملمسها مؤلماً، ولأن أكثر من نصف السجناء الذين يشاطرونني المكان لم يناموا بعد شأن الكثيرين في السجن، على الرغم من أن الوقت كان متأخراً جداً، راح معظمهم، حالما وصفت شكلها ولونها يسرفون في شرح أصلها، ومنشئها الأصلي، وطريقة حياتها، اذ كان لكل واحد منهم ذكرى حزينة، أو أكثر معها:

- أنها تعيش ملتصقة بالأسِرّة الحديد، تتغذى على الصدأ..
- وتعيش داخل الأسفنج أيضاً.
- حشرة لكل الفصول!.
- مستوردة (!؟).

إستفزتني المعلومة الأخيرة، فرحت أبحث عن معناها، فتوصلت الى أن (السلطات الثورية) قامت بإستيرادها خصيصاً للسجناء السياسيين، لتجعل من عذاباتهم في السجن. عذابات مضاعفة!!

يبدو أنها انتقلت الى بقية السجون عن طريق الموظفين، خصوصاً العاملين منهم في حقل الصحة، اذ يزورونهم في زنزاناتهم كلما دعت الحاجة الى ذلك، ثم انتقلت الى المدن العراقية عن طريق السجناء المطلق سراحهم..

أعرف أخصائيا بالأمراض الجلدية، كان يقول لي، انه في حرج من أمره، اذ يكثر المراجعون لعيادته الاستفسار عن سبب أصابتهم بهذا المرض الخبيث، فاكتفي باخبارهم بضرورة تعريض أسرة الحديد لديهم الى النار، والتخلص من الأفرشة والوسائد الاسفنجية، وذلك خوفاً من أن يصل كلامه الى السلطات الأمنية، فترمي به في غرفة مبنية من حشرة الكالوسة، ويضحك! عند الصباح كانت المناطق وارمة، صلبة ومؤلمة، وشعرت بعدم الشهية والارهاق، وسوء الهضم، وبكل ما أملك من نقود اشتريت عدة أنواع من الأدوية، ورحت أكثر من غسلها بالماء والصابون، وبعد ثلاثة أيام كالوسية، بدأت علامات المرض بالتحسن التدريجي!!.

أخيراً صار لي سريري الخاص

بعد خمسة شهور حصلت على سرير خاص بي، ابتعته من سجين أطلق سراحه، وبموافقة من مراقب القاعة، حينها فقط نظمت أول مرة أوقاتي: وقت للنوم، وقت للقراءة، وآخر للكتابة، ورابع للاسترخاء، ومن دون تخطيط من جانبي طبعاً، صارت قواي الجنسية، خصوصاً في الليل تستعيد شيئاً من حيويتها!

ثم، وبمرور الأيام بدأت أحلامي الجنسية تعود الى سابق عهدها، اذ كثرت الزيارات التعويضية للنساء المشتهيات أثناء اليقظة، البعيدات المنال، فاستيقظ ناشف الفم، مغموماً، ألعن الشيطان، أستعرض حلمي، فأضحك بمرارة من عوالم الانسان الداخلية الغريبة، غرابة الحياة نفسها! وأحاول جاهداً ايجاد تفسير منطقي للذي حدث في الحُلم منذ قليل، لكن من دون جدوى، فأي منطق سليم يمكنه أن يعطي تفسيراً لزيارة امرأة كنا قد تعرّفنا اليها منذ سنوات بعيدة، وما عدنا نتذكرها في اليقظة على الاطلاق، ولماذا هي حصراً دون غيرها من النساء الآخريات قدّمها ما يسمى بالعقل الباطن هذه الليلة؟ وفي دور عشيقة مطوّاع، وهي المتنمرة اللامبالية كما أتذكرها؟ وكيف جاء لقاؤنا في حقل واسع معشوشب، إذ هي كانت في الواقع تسكن في مدينة (أم قصر) القذرة المطوقة بالصحراء؟ وأسئلة كثيرة من هذا النوع، بالقليل مما استطعت توفيره من الماء نظفتُ جسدي وملابسي، ثم جلست لصق الجدار، وقد راحت تشع في ذاكرتي وجوه وابتسامات وتسريحات، بل حتى نغمات أصوات النساء اللواتي تعرفتُ اليهن في عملي، في العديد من المستشفيات المكان المثالي لإقامة علاقات من هذا القبيل!

أتذكرهن خافق الفؤاد، دامع العينين، وأتساءل في جزع: ترى أين هنَّ الآن؟ مَنْ ماتت، ومن ما زالت على قيد الحياة؟ أتزوجن وأنجبن أطفالاً في مثل جمالهن؟ أم تراهن شأن الاف الفتيات العراقيات طالتهن العنوسة، إذ اختطفت الحروب الفاشية التي أشعل أوارها الطاغية، فالتهمت الآلاف من الشباب، الذين كانوا مشاريع زواج منهن؟ نجوى في الفاو، حبيبة في أم قصر، ثريا في صفوان، شمائل في خمسة ميل، هاجر في الزبير، منتهى في البصرة، غيداء في الناصرية، سعاد في الديوانية، وياسمين، واسماء، وماغي في بغداد..

وبين هذه الوجوه المشرقة، تخفق على حافات شريط الذاكرة، وجوه أخرى من دون أن أستطيع الامساك بها.. حيث الجميع حزمة غليظة من أزهار نادرة على نحو مستحيل، من نرجس وياسمين وقرنفل وجوري!..

جـنون البقـر!

جاءوا بسجين جديد ظهر هذا اليوم، منقولاً من قسم الأحكام الخفيفة، كان السجين وهو في الثلاثين من عمره يقف عند الساحة الجانبية للجملون، وسط مجموعة من السجناء، يتناول عشاءه: بيدهِ صحن شورباء مرّة وداخنة، وفي الثانية صمونة من حجر، فجأة سقط الأناء والصمونة من يديه، وخرّ جاثياً على ركبتيه وقد أدلى رأسه الى الأسفل، حدث ذلك بجزء من الثانية، بحيث لم يشعر المحيطون به، ثم استقام واقفاً ليسقط بعدها لافظاً أنفاسه! وقد سبقت سقوطه ورافقته نافورات من دم أنبجست من أنفه وفمه وأذنيه.

حدث له ذلك من دون أن يترك له وقتاً يتأوه أو يصرخ أو يستنجد بأحد من الذين وقفوا يرمقونه في فزع شديد، بعضهم غير مصدق لما يجري أمامه، ينظرون نحوه بحيادية وفضول من دون عطف أو شفقة، بل كان هناك من ينكت في حقارة وعلى نحو بغيض.

وبينما كان الضحية منكفئاً على وجهه وسط بركة من دمه، ارتفعت ضجة كبيرة في الساحة امتدت الى الجملون الملاصق في مثل لمح البصر!

ولأن الحادث كان غامضاً على نحو مطلق، فقد ترددت شائعة، لا أحد يدري على وجه اليقين من هو بطلها، مفادها: أن السجين المسكين قد أصيب بمرض (جنون البقر!) أما من أين جاءوا بمثل هذه الشائعة المفزعة، لاسيما وأن طعام السجناء لا يتعدى الحساء والصمون والشاي والقليل من الرز؟ وان كانت يومها الأخبار تتحدث عن انتشار هذا الوباء الخطر في العديد من دول أوربا التي تستهلك لحم البقر الانجليزي، تتناقلها وكالات الأنباء العالمية كافة!

ثمة من يقول أن مصدرها أحد الزائرين ذكر أن هناك اصابات عديدة، بهذا الوباء ظهرت في بغداد وبعض المحافظات، من دون أن يكون للسجناء من الوسائل ما يؤكد ذلك أو ينفيه. انتشرت الشائعة في أنحاء السجن، وتخطت الجدران العالية والحراس وأرتال الكلاب المتوحشة لتصل الى بقية السجون التي يضمها سجن أبو غريب الكبير، وكأي شائعة تنفجر في مثل هذه الأجواء قيل أن قسم الافراج الشرطي يجتاحه وباء جنون البقر، وأن الصرعى بالعشرات!

في اليومين التاليين كان بعض السجناء قد أنهوا مدد محكومياتهم فأطلق سراحهم، يبدو أنهم ضخموا من الشائعة الأمر الذي أرغم المئات من ذوي السجناء أن يأتوا مذعورين، ويخيموا خارج أسوار السجن!

وسط تحوطات أمنية وصحية مشددة نقل الميت على عجل الى دائرة الطب العدلي في بغداد، وكان الجميع قد قاطع الطعام والماء خوفاً من العدوى، وأن بعض السجناء المشاكسين ينظرون وقد ملأتهم فرحة عظيمة، ويعلقون في شماتة مسموعة، وهم يرون خدم السجناء الموسورين يرمون أكياساً مملوءة بلحوم الأغنام والدجاج والأسماك الشهية في حاويات النفايات، وكان (ثامر الديك) المعروف بطرافته أغوى أثنين من السجناء برفع أكياس اللحوم المرمية، وجلبها، لكن ما أن شرع بطهيها حتى جاءه أحد الحراس، جلده على ظهره بماسورة سميكة، وأمره بإعادة اللحوم الى النفايات..

يقال أن الأثرياء المنكوبين هم الذين وشوا به الى الدائرة، أنهم لا يريدون أن يستولي ثامر وغيره على لحومهم حتى وان كانت ملوثة بأشد جراثيم الأوبئة فتكاً فضلاً عن أنهم كانوا قد تخلوا عنها مفزوعين!

حين سكب الحارس النفط على اللحوم وأشعل فيها النار، كان ثامر يعلق على الأمر قائلاً:

"- محبة؟ لا والله، أنانية.. لا أغنيك، ولا أخلي رحمة الله تجيك!!"

يبدو أن الحارس سمع تمتمات الديك، فسأل سجيناً:

"- ماذا يقول هذا الحمار؟"

"- أستاذ، اذا تعرفه حمار، ليش تخلي عقلك وياه!؟"

ضحك وابتعد وهو ينتر عصاه متوعداً ثامر الديك.

أحتاجت إدارة السجن الى جهود مضنية لإقناع السجناء بعدم صحة الشائعة. وكان المدير العام شخصياً يخطب بتجمعات السجناء الذين يرونه ويراهم أول مرة، يخطب ويقرأ، ويعيد التقرير الطبي الذي يوضح أن (سبب الوفاة حصل من جراء طلق ناري جاء من خارج السجن، اخترق الجمجمة عند منطقة النخاع الشوكي واستقر هناك) وكان وهو يعيد قراءة التقرير بوجه محتقن، يلوّح بالرصاصة الصغيرة التي أحدثت، يومين عصيبين وكل هذه الفوضى، بين أصبعيّ السبابة والأبهام، ويقسم (بشرفه!) على صحة

ما يقول..

وعليه فان المصدر المؤكد للطلق الناري، هو ما يطلق عادة وبإستمرار في الأحياء السكنية المحيطة بالسجن لأسباب شتى!

ولعلها المرة الأولى والأخيرة التي تصدق فيها ادارة السجن مع السجناء، وهكذا تم تسجيل الحادث، لموت سجين مسكين أمضى ثلاث سنوات في السجن، ولم يتبقَّ لإطلاق سراحه غير أربعة أسابيع، سُجلّ على ذمة: القضاء والقدر.

كلاب بافلوف!

هاهو نهار آخر يظهر وأنا مازلت أخوض في البالوعة، ياللفظاعة! صحيح أنني منذ سنوات عديدة لم أنهض يوماً وأنا أهتف مسروراً:

يالهُ من صباح جديد مشرق ومبارك!

ولم أنم شاعراً أن غدي سيكون أفضل من يومي الذي مضى، أنها، على أية حال، حلقة مفرغة من التفاهة والخواء والعقم.. أيام خُرّس، بلهاء، لها لون واحد، ورائحة الفطيسة!

غالباً ما أمرر في يقيني فكرة مستحيلة، استحالة وجودي فادخل في الحسبان أن فرصة نشوء خلية منوية سليمة في سائل أبي المنوي، وبويضة صالحة للإخصاب في رحم أمي، وفي ظروف بايلوجية ملائمة للإتحاد والاخصاب يقع في حساب [٧٠٠ مليون الى واحد كما يقول العلم، وعلى الرغم من الاستحالة العلمية لوجودي ووجود ملايين البشر، غير أنني قد تخلَقتُ، مثلما تخلَق ملايين الناس، فأتساءل: أهي مجرد مصادفة عمياء؟ واذا كانت كذلك اذن لأرضى بما حصل لي من مشاق، وما سيقع في القادم من الأيام، من دون تذمر او قلق أو شكوى، وحتى يكون الأمر محتملاً فيتوجب عليّ أن اسعفه بالخيال فاردد مثلاً: [أنا جزيئة كروية تفوح برائحة الأثير.. أنا جزيئة قرصية تعبق برائحة المسك، أنا جزيئة قضيبية تفوح برائحة الكافور، أنا جزيئة أسفنجية لها رائحة النعناع.. الخ]

أرهق نفسي بذلك ومن دون رحمة، غير أنني سرعان ما أكتشف سذاجتي، سذاجة الانسان الذي كم هو، عجيب وغريبة أطواره، وسيظل كذلك حتى فناء آخر جنسه، أنا مثلاً جائع وقد مللت تناول الباذنجان ثلاث وجبات أكثر من ستين يوماً، نفسي تريد إفطاراً يتكون من بيضة وملعقة مربى أضعهما داخل صمونة ساخنة، فهل أمنية كهذه،

في بلد له ثروات العراق، رغبة بطرة، غير مشروعة؟

البارحة توقفت كالحصاة لقمة الخبز البارد والباذنجان، حاولت معالجتها بان آخذ جرعات متتالية من الماء، لكن من دون جدوى، فبصقتها، ورميت طعامي في القمامة وشتمتُ تاريخ العراق السياسي، منذ قيام الدولة العباسية حتى هذه اللحظة، وحين حاولت التخلص من وضعي النفسي الصعب بالتسكع في ساحة القاطع وحرق لفافات التبغ المرّ، شاهدت سجينين يقومان على خدمة سجين تهمته تهريب ماشية، وهما يشويان له ولضيوفه من موظفي الدائرة والسجناء الموسورين، أسياخاً كبيرة من اللحم الطازج، وثمة قدر كبير مليء بالدجاج يغلي على النار، كانت رائحة الشواء تسحبني كالمغناطيس من دون رحمة، تمنيت لحظتها أن أتحول الى حيوان مفترس لأختطف كفايتي من اللحم، وأسكب القدر، وقد أهجم على المهرب وضيوفه وأشبعهم عضاً، كان لعابي يستحلب داخل فمي بغزارة مريعة، لدرجة أنني لم أتمكن من الكلام مع شخص توقف ليحدثني، اذ تجاوزته وأنا أسد فمي وأنفي بكفيّ، مبتعداً بخطوات واسعة الى فراشي، وهناك أوقفت تدفق اللعاب بتناول ملعقة سكر! وتذكرتُ وأنا آخذ أنفاساً من فمي عميقة ومتتالية، نظرية (بافلوف) الروسي، في الانعكاس الشرطي، وجرسه وكلابه!!. هناك مجموعة من السجناء ينتظرون المهرب وضيوفه الانتهاء من تناول الطعام، ليهجموا، وهم يتشاجرون على القدور والصحون يخطفونها، علّهم يحصلون على عظمة يقضمونها ويلحسون بقايا ثريد عبثت به اصابع الآخرين!!

وكالعادة أهرب في مثل تلك الأزمات الى الكتب، فهي وحدها القادرة على تحويل مجرى أفكاري المتطيّرة الى ما هو أكثر واقعية!

كم أمقت كلمة (واقعية) لإبتذالها، ولكونها المسؤولة عن تدجين الانسان: روح واقعية، تفكير واقعي، حياة واقعية، طموح واقعي، حتى باتت المرادف للغباء والبلادة والتحجر!

أنت لا تفكر بطريقة واقعية، يعني أنك ليس عبداً مثلما هي حال الجموع العمياء.. يا أخي كنّ واقعياً، وعالج المسألة معالجة واقعية، بمعنى كنّ مثلما أريد لك أن تكون كمسلم وعربي معاً، يفكر على طريقة الأقوام التي مازالت تعبر شوارعها الحيوانات، تاركة خلفها أكوام الروث والسرجين، ويسدّ طرقاتها المخبرون السرّيون والبغايا الصغيرات! تناولت كتاب (كيف تنتهي الحروب؟) للكاتب أ. تايلر، وفي كل مرة أتصفحه أحاول رميه في

القمامة، انه يتناول موضوعاً حساساً: أوضاع أوربا العسكرية والجغرافية أيام نابليون بونابرت، وفصلاً مطوّلاً عن كيف انتهت الحرب العالمية الثانية، غير أن المترجم تحسين علي رضا الزبيدي، سخفّ الكتاب تماماً، اذ جاء مليئاً بالأخطاء اللغوية والأسلوبية الشنيعة، يضاف الى ذلك ترجمة ركيكة وساذجة لدرجة أن هناك الكثير من الأحداث المهمة، يلتبس لهذه الأسباب على القارئ فهمها على النحو المرتجى!

تستهويني كتب التاريخ على نحو خاص، أنها أمدتني وتمدني على الدوام بالكثير من روح السخرية واللامبالاة التي جبلت عليها حياتي، والتي اليها يعود الفضل في عدم وضع حدٌ مستعجلٌ لحياتي، كما جعلتني أقل تطيراً قياساً الى أمثالي، فعبر العشرات من كتب التاريخ التي قرأتها، وهذا واحد منها، تطالعني وجوه ملايين الضحايا التي شوهها الرعب والفزع قبل أن تطحنها عجلة الموت الزؤام، من الجنود والمدنيين، بل والمارشالات المجنونين لمرأى الدماء، فضلاً عن اشباههم من السلاطين والأباطرة والملوك المهووسين بالحروب لضآلة أمخاخهم، وتدني ثقافاتهم، وانتماءاتهم الأسرية التي تعود الى أصول وضيعة، كان لدينا الكثيرين منهم، وكان لدى الأوربيين الكثير أيضاً: انجليز، وفرنسيين، وألمان وطليان وأسبان على وجه الخصوص، اذ ما أن تُباد جيوشهم الجرارة حتى يسارعوا من ساعتهم الى تشكيل جيوشٍ أخرى من المغلوبين على أمرهم مرّة بإسم الدين، ومرّة باسم الوطن، ومرّة باسم الأمة يجمعونها من الطرقات والبيوت والمزارع والمعامل والأسواق، ثم يدفعونها الى محرقة الموت، وهكذا، وهكذا، الأمر الذي يجعلني أجزم. أن من يتخذ من العسكرية مهنة له في الحياة شخص مريض بالمازوكية والنرجسية معاً!.

جاءت البقرة!

أحد السجناء العاملين في دائرة السجن، جاء على عجل، وهمس في إذن زميل له كان منكباً يلضم مسبحته، فانتفض قائماً وقد إنفرطت حبات مسبحته من جديد على الأرض وتساءل في فرح كبير:

"- هل هو حقاً؟"

"- هو بشحمه ولحمه.."

-" وشواربه العنترية!"

"– نعم، وكرشه البقري وقد أزداد كثيراً.."

وسرعان ما انتشر الخبر في مثل سرعة البرق داخل أقسام السجن كافة، فتجمهر العشرات من السجناء عند الممر المؤدي الى قاطع الادارة، وقد خبأ بعضهم شفرات حلاقة داخل قبضاتهم، وكان الهياج قد تلبّس الكثيرين على نحو واضح، فهمس أحدهم بصوتٍ مسموع: "– سأجعله لن ينظر، بعد اليوم لوجهه في المرآة!"

ولوّح بقبضته المطبقة على شفرة حلاقة..

وقال آخر:"– سأفري كرشه!"

وقال ثالث وهو يكزّ على اسنانه: "– سيكون قضيبه من نصيبي!"

فعابثه الخباز ناصر الأعرج، وهو يغمز بطريقة ماجنة:

"– يبن الحمولة! على بختك إمبارك بس راسه! "فيرتفع الضحك.. ولأن هناك بعض السجناء قد جندتهم ادارة السجن للعمل كمخبرين سريين بين السجناء، فسرعان ما أحيطت الادارة علماً بالموضوع، الأمر الذي أرغم المسؤولين على عدم أرسال السجين الجديد القادم تواً الى أي من الأقسام، وأدخلته الى القاطع الخاص بالسجناء من منتسبي أجهزة: الأمن والمخابرات والحرس الجمهوري، فبذلك وحده يمكن أن ينقذوه من بطش السجناء الذين سبق وتعذبوا كثيراً على يديه، ثم أمرت السجناء بالدخول الى قواطعهم، ووضعت على أبوابها الأقفال، والحراسة المشددة.

غير أن السجناء ظلوا يتدافعون على الأبواب الحديد الكبيرة المشبكة، بانتظار مروره، أخيراً أطلّ وسط موكب صغير من الحراس، فمست الجميع هستريا رهيبة، وأخذوا يضربون بأيديهم على حديد الأبواب، ويصرخون:

"– حسن بقرة، سأنال منك حتى لو وضعوك فوق القمر!"

"– ابن العاهرة، ستموت قبل أن تنهي بقية محكوميتك!"

"– ترى ماذا فعلت يا كديش، من جرائم أخرى حتى زالت حظوتك عند مسؤولي التسفيرات!؟"

وكان (البقرة حسن) وهو يمسك بقوّة بذراع أحد الحراس يبدو مرتبكاً، محني القامة، ممتقع الوجه، شديد الخوف والفزع.

الفصل السادس

حقول الحنظل

ومثلما أفقد الأرق والاهمال والحزن العميق عيونهم بريقها، وصفاءها الانسانيين، ذهب الجرب بنصف شعرهم، وبنعومة جلودهم وطراوتها!

ومثلما تنتزع كؤوس الويسكي، وفروج الجانحات ورزم الدولار بقايا ضمائر العملاء، إنتزعت هنا أقراص (ابو الحاجب) وأعمال اللواطة أسمال ضمائر المجرمين، ليرقدوا بدورهم عند الفجر على أفرشتهم العطنة مثل تماسيح هالكة، حيثُ الخطيئة أفعوان خرافي متعدد الرؤوس والأطراف.. إقطع خطيئة واحدة من هذا الخنزير، وسترى كيف سينبت مكانها حشد جديد من الخطايا! يجلسون وقد تبلدت أحاسيسهم- يهرشون، من غير طائل لحم أجسادهم الوارم الملتهب، فهذه المخلوقات البائسة والشريرة، نصف المشلولة، بات أصلاحها أمراً ميؤوساً منه، حتى وان استولدتهم، من جديد من فروج أمهاتهم!.

ما أتعس تجمعات النسوة، وما أفحش ما يدور في تجمعاتهن تلك من أحاديث متهتكة، هنا يوجد قرين تلك التجمعات، إنهم جماعة مدمني القمار واللواطة، حتى أن رغبتهم بإطلاق سراحهم، المرة الثانية، وربما أكثر، ليس من باب التوبة النصوح، أو القيام بمحاولة اصلاح ذاتية لتعويض تلك السنوات السود الطوال، الصماء الخرساء، الممزقة مثل أوراق قذرة مرمية في الفراغ او العدم، التي أمضوها بين الجدران الموحشة والمتوحشة، من دون أن يروا وجه امرأة وسيمة، أو يسمعوا صوت طفل يضحك، او يمارسوا حياة أسرة متماسكة ملتمّة، في حميمية حول مائدة بسيطة على نحو جماعي في واحدة من وجبات أيام الجمع او العطل الرسمية، ناهيك عن تلمّس المشاعر المفعمة بالانسانية التي تثريها سفرة في باخرة، في ليلة مقمرة، او التجول الحرّ على رصيف مفتوح في مساء خريفي يوشوش من حولك ورق الأشجار المتساقط، ويتكسر في لطفٍ تحت قدميك، لقد رهنوا أنفسهم من دون رجعة الى الدوران في حلقة مفرغة من الشقاء المقيم صحيح أن لسان حالهم يقول: [من الخير لنا أن نثق بالرب، على أن لا نضع شيئاً من ثقتنا بالانسان..]

لكن، انما يعيشون وسط بعضهم البعض، مثلما تعيش مجاميع الثعابين او النمور، بمعنى عالم من فقدان مطلق للثقة بالنفس وبالآخر معاً، اذ يحيكون من دون هوادة، لبعضهم المؤامرات الرخيصة والمكائد المؤذية، واذا ما نصحتهم، او حذرتهم، ضحكوا عليك ودفعوك بعيداً مُشيّعاً بعبارتهم الأثيرة: "أوو..ه شكد إنتَ قديم!؟".

إذن، ليظلوا في جحيم مقيم حتى حفرة القبر، ولأن الانسان مهما كان متوحشاً، فلابد أن يصمت في الأخير بغض النظر عن قدرته العجيبة على الصراخ والعويل والثرثرة، فانك تراهم عند الفجر، حيث أستيقظ لأقضي حاجتي قبل أن توقظهم صافرات التعداد وضجته بأكوامهم لصق الجدران، او على امتداد مساحة الجملون يرقدون الواحد الى جنب الآخر، مثل حقل شاسع من القبور المهجورة، حتى وان كانت تغطيهم البطانيات، بدلاً من التراب!.

وكنتُ أردد في لياليّ الأولى، وأنا مكظوم وأرتجف تحت اغطيتي الرطبة من الجوع والبرد والشعور بالهوان: [أسألك اللهمّ، اذا كنتَ قررت موتي، فلأمت في هذه الدقيقة مثلاً وليس في الدقيقة المقبلة..].

ولأني منذ الأيام الأولى لقدومي الى السجن، وجدت نفسي، فجأة في (واقع دسم جداً) بالمعنى الادبي، لذا وجدت لزاماً علي، كأديب أولاً، ومثقف ثانياً- كما أزعم!- أن أضع كتاباً، أهدف من خلاله تحقيق مسألتين مهمتين- كما تراءى لي وقتها- الأولى أن يترك الكتاب أثراً قوياً في نفس ومشاعر كل من يتسنى له قراءته، والثانية: أن يتضمن ما يطلق عليه علماء الاجتماع: الوثيقة الميدانية، التي يمكن أن تستفيد منها جهات متعددة في مقدمتها الجهة السياسية: المبادرة والعمل على انقاذ ما يمكن انقاذه، ولو مستقبلاً، لفلسفة السجون المتدنية عند العرب، ثم الجهة الفنية، السينما والمسرح على وجه الخصوص، اذ يمكن اعتبار الكتاب بما يزخر به من مشاهد، عنيفة وطريفة في آنٍ مادة غنية في هذين المجالين..

لذا رحت من فوري أنسى، أو أتناسى ما أنا فيه من عوز وحزن وإغتراب، مرتفعاً بإنسانيتي فوق كل ما هو يومي وعابر على ضرورته لإنسان مسجون مثلي، أدوّن الملاحظات الميدانية، دون أن أنسى حذري الشديد من أن يشي أحدهم بي الى ادارة السجن، ثم جاءتني رسالة رقيقة من الكاتب العراقي الكبير مهدي عيسى الصقر، لتؤكد ضرورة ما وطدت العزم عليه، اذ يقول:

[أخي محمد،

يؤلمني أن تمر بهذه التجربة اللعينة..

كان بودي أن أزورك، إلاّ أنني لم أشأ

أن أتجاوز على حق العائلة في أن تنفرد بك

لتتشاكيا هموكما الراهنة، التي أرجو أن تتبدد

في وقت قريب..

آمل أن يكون لهذه المعاناة المؤقتة جانبها

النافع فتطلع علينا، فيما بعد، بأقاصيص رائعة.

قلبي (الضعيف) معك]

المخلص

مهدي عيسى الصقر

السبت: ١٢ نيسان، ١٩٩٧

...

كثيراً ما أخذني الوقت الذي يتمطى من دون توقف، الى التفكير بأن تكون لدي قوّة سحرية أحولها الى (شيء) مادي، ألتقطه وأضعه على صخرة صلدة، ثم أسكب عليه حامض النتريك المركز، لأرى ان كان قابلاً، مثل بقية الأشياء على الذوبان، او التفتُّت أم لا؟ حيثُ يتلبسني إحباط عام شرس، يدفعني الى المضي بمشروعي الداعي الى الترفع عن الآخرين، ورفض مجرد فكرة الدخول معهم في حديث ما، عابر أم جاد، كنت أنظر اليهم كجمع متوحش خال من أي حديث مثمر، او قضية مهما ضؤل حجمها، اضافة الى ما تضفيه عليهم حركاتهم الخرقاء، وأحاديثهم المكررة البليدة، التي تنم عن الجهل والغباء والوضاعة!

وفي كل مرة تطلق وجوههم الشوهاء، انطباعات مشؤومة، حتى أنني كنتُ أتخيل نفسي قادراً على قراءة ما يدور في جماجمهم، بيسر مثلما يقرأ المرء صحيفته! وكان هذا بطبيعة الحال يثير حزني وأساي على الدوام!

كنت أخلو تماماً من القلق، ذلك الأحساس الملعون الذي يفتك بعقول الكثيرين منهم،

القلق على ثروة، أو القلق على وظيفة حزبية، او القلق على إمرأة ما، او القلق على عمل قد يضيع، أو ضاع منه الى الأبد.

وكان مرد حياديتي العجيبة هذه، أنني ما أن أشعر قدوم القلق، حتى أناقش حالي على ضوء من الذاتية والموضوعية، أذ أشرع بأن أسأل نفسي مثل هذا السؤال:

[ماذا سأصنع لو أنهم، الآن أطلقوا سراحي؟]

آأذهب الى بيتي؟ وماذا عساي سأجد فيه، بعد أن بعت كل ما يمكن بيعه من فراش ومتاع وآثاث، حتى وصل بي الأمر الى بيع سلوتي الوحيدة، العزيزة على نفسي: مكتبتي الخاصة بثمن بخسٍ، ثم إستولى المدعي على سيارتي الخاصة، ملجأي الوحيد لإعالة أطفالي التي ابتعتها بثمن فوزي بجائزة مجلة (لوتس) القارية، لتسوية القضية التي لم تسوُ، اضافة الى زوجة تحوّلت في السنتين الأخيرتين، وقد شحت مواردي المالية شأن عامة العراقيين، فلم أعد قادراً على توفير متطلباتها، التي ظلّت على حالها كما كانت قبل حصار الخنازير- خنازير الداخل، قبل خنازير الخارج- الى امرأة من سمٍّ، مشاجرات وملاسنات مقرفة يسمعها الجار العاشر، لا لشيء سوى أنني مازلتُ مصراً على (ممارستي البائرة) على حدّ قولها، المتمثلة بالقراءة والكتابة، في الوقت الذي صار فيه أغبى الرجال من أصحاب الملايين!!

كم أسهمت، مع الأسف المرأة العراقية، بسبب من وقوعها التاريخي بين فكيّ: المظاهر الاجتماعية البليدة، والتخلف الثقافي المريع في ضياع آلاف الأسر الجيدة التي ما كان لها أن تتفسخ وتتفكك، ذلك التفكك والتفسخ المفزعين، لو أنها تفهمت، على نحو جدلي، موقف صنوها الرجل، الذي وجد نفسه، فجأة، بعد أن جرجرته على وجهه، حربان قذرتان، قذارة مطلقة، مكتوفاً ومرمياً بإهمال ولامبالاة داخل نفق البطالة المظلم الطويل، الذي جاء، كما أزعم، بثلثي السجناء الى هنا، إن لم يكن أكثر، وأنا واحد منهم طبعاً، فقد سخرت ذات مرة مني، وأنا أسدد لبائع الفاكهة، من أن نقودي من فئة الـ (٢٥) ديناراً، وليس الـ (٢٥٠)، فئة أوراق نقد الموسورين، تصوروا!! ومن ثم سأكون منصفاً إن أنا قلت: لم تتسم المرأة العراقية بالمسؤولية التي كان قد خلعها عليها، قبل الحصار الكثير من الكتاب والمثقفين!.

أم تراني أذهب الى مقهى (حسن عجمي) ملتقى الأدباء والفنانين والكثير من المثقفين، لكن، ماذا سأجد في هذا المقهى المقبرة؟ فالداخل اليها يفاجأ بكومة من

قناني الغاز صدئة وقذرة، مرصوفة تحت مبردة هواء عتيقة عمرها أكثر من عشر سنوات، والى اليسار هرم السماورات العثمانية المتربة، فالمغسلة المهشمة، فصندوق ماء الشرب العتيق الذي تعافه لمنظره المقزز الحيوانات! فغرفة الأركيلات بفوضاها وقذارتها ودوارقها المملؤة بالماء الخائس، وخراطيمها التي تذكر بحزم من افاعٍ مسلوخة، ونارها المستعرة على امتداد الفصول، ثم مقاعدها الخشبية الصلبة المحطمة، المفروشة ببسط الحلّفاء الخشنة المهلهلة، لاعبو الدومينو والنرد من المقامرين، وسحب دخان الأرجيلات الأرث العثماني البغيض، وطلاء جدرانها الأصفر الذي يدفع الى الغثيان، ومراوحها التي تعود لمنتصف القرن، ولأن اليوم جمعة، أخرج من بيتي برماً فطلبات العائلة لا تنقطع، وليس لدي القدرة على تنفيذها، أستقل سيارة قديمة، تتوقف كثيراً، لتهبط منها الناس أو تصعد، أمر على مساجد فأرى كيف أزدحمت الساحات المحيطة بها بالسيارات الفارهة يهبط منها قوم مرّيشون، تنزّ عيونهم دخان الغطرسة، وتَنمُّ حركاتهم عن الترفع واللامبالاة لا أرى فقيراً واحداً، الفقراء يجوبون الشوارع والساحات والأزقة يبيعون ما تبقى من أثاث وأواني بيوتهم، او يعرضون أنفسهم لخدمة ما، أو يتسولون، يقال أن بعضهم يعرض أبناءه للبيع من أجل إطعام بقية إخوته..

الساعة الحادية عشرة يكون مقهى (حسن عجمي) قد أكتظت بزبائن يوم الجمعة في معظمهم من كتاب النظام، الذين يزدادون بدانةً فرط المكرمات السخية التي لا يكف يصفعهم بها (القائد الضرورة، أو القائد الحبيب، او القائد الرمز، أو فارس الأمة) وغيرها من الألقاب التي خلعها عليه. جمع الأبالسة الداجن، وبالمقابل نزداد نحن هزالاً وجزعاً، أنسلّ خلسة محاذراً أن أسلِّم على أيّ منهم وإذا ما أضطررت يوماً الى ذلك، وهو أمر نادر، يكون ليس أكثر من تلويحة، باهتة وسريعة من يدي، من دون كلام طبعاً، أرميها عليهم كما لو أنني رميت عقب سجارة أحرقَ أصابعي! هم يعرفون ذلك، اذ نقَلَ لي أحدهم أنهم يتهمونني بالانطوائية والأكتئاب، وقد أقدم على قتل نفسي! أضحك وأقول: السباهي يقتل نفسه؟ كلا، إنه سينتظر ليكون شاهداً على موتهم هم، أو ضياعهم أو جنونهم! وآخذ مكاني المعتاد قريباً من مبردة الهواء القديمة، لحظات ويلتف من حولي بعض الأدباء الذين على شاكلتي: يمضغهم العوز، وتمزقهم مظاهر عذابات الناس، وتثير غضبهم ثرثرة وضحك (شلة الخراب) كما كنا نسميهم، والتي احتلت وسط المقهى، سادرون في النيل من رموز العراق الابداعية والوطنية،

فالجواهري برأيهم مجرد سارق أفكار من الشاعر معروف الرصافي، البياتي مهووس وليس لديه سوى ديوان واحد (أباريق مهشمة) وسعدي يوسف، لا جديد لديه، أنه يكرر نفسه، مظفر النواب، أكبر البكائين في المناقب الحسينية، وأن (تخرصاته) على التاريخ العربي الاسلامي، ليست سوى قناع يخفي وراءه أصله غير العربي، وأن السياب شأنه شأن شكسبير ليس مثقفاً، وأن إبداعهما وليد ما يسمى بالإلهام الفطري!!

كل ذلك يجري على لسانه المهذار، من دون تلكؤ، وبلهجته العالية التي ما أن يبدأ الكلام الصراخ، حتى يهمس لي الشاعر زاهر الجيزاني وهو يقضم أطراف شاربه: [السباهي، أنفجر اللغم!..] فاضحك وأقول: [لعنة الله على من أستورده.].

ثم أنه يزعم إن المثقف الفلسطيني، أينما حلّ يكون بمثابة (كانتون ثقافي فاعل) و(مشع ومؤثر في محيطه الثقافي أو المهني،) الى آخر الهذار.

حين ينتصف النهار يبدأون بالانصراف الواحد إثر الآخر عائدين الى جحورهم التي أتوا منها حين ذاك فقط يهدأ جو المقهى، نلتم على بعضنا في حميمية أكبر، نتحدث بأصوات خفيضة عن مشاريعنا في الكتابة أو القراءة أو السفر، الأخير هو الاكثر إلحاحاً، اذ صار حلماً عصيا على التحقيق، بسبب ضريبة السفر الباهظة التي فرضتها زمرة المافيا، وكيف تدبرنا أوضاع أسرنا في الاسبوع المنصرم، وماذا ترانا فاعلين في الاسبوع المقبل؟ وتكون الساعة قد جاوزت الثانية بعد الظهر، ويكون الجوع قد خسف بطوننا فامتلأت بالهواء، نجرجر أقدمنا الى أقرب مطعم سفري يبيع سندويشات الفلافل، نجمع نقودنا ونعقد العزم!

بعدها نتشظى عائدين الى بيوتنا، متوكئين على بقايا قلوب عصف بها الغضب والإحتقار، أم أذهب الى (جريدة الجمهورية) حيث أعمل في (النادي الثقافي) ولكن، ماذا سأجد في هذه البناية الخاوية على نحو مريع، على الرغم من طوابقها العديدة، إذ أمست بعد أن تركها الأدباء والصحفيون الحقيقيون الى غير رجعة، مكتظة بمجاميع العوانس والأرامل والمطلقات اللاتي يلتهمن بعيونهن المسهدة المارين على أقسامهن، او الذي يلتقيهن بممرات الجريدة أو في الكافتريا الفقيرة، وأصبحن يتدبرن تحرير صفحاتها الثماني، التي بحجم الكف وهن يلعبن بأقدامهن تحت المكاتب! حتى القسم الثقافي الذي كان مزدهراً، أمسى نهباً لمجموعة من الأميين، وتحولت تلك الصفحة الثقافية التي كنا نحرص على قراءتها، الى ما يشبه (الكشكول) تزدحم بقصائد المديح،

الشبيهة بالفطائس!.

ثم أن الصحيفة نفسها صارت ملكاً مشاعاً لرئيس تحريرها الجديد، الذي جيء به فجأة، اذ كان كاتباً مغموراً، فاستولى على نصف صفحاتها بمقالاته المفبركة، التي لا يقرأها سواه مثلما صارحَتْهُ، ذات مرة مقدمة برنامج تلفازي مشاكسة!!.

أم تراني أتوجه الى مبنى ما يسمى باتحاد الأدباء، وقد أغرقوا عضويته بالزعاطيط و (كتاب!!) من حملة شهادات بعلوم الأسمدة والبيطرة والزراعة والصناعات العسكرية وادارة المطاعم والفنادق والملاهي الليلية، فصار هو الآخر خراباً على خراب، تنعب الغربان في باحة حديقته المهملة، وتتواطأ الكلاب والقطط السائبة في زواياه! واذا ما فكرت بزيارة ناديه الاجتماعي، فلن أجد مكاناً مهما بكّرت بالذهاب إذ الموائد محجوزة مقدماً لمراهقين لاعلاقة لهم بأبسط مقومات الثقافة، يدفعون، بسخاء الى متعهد النادي الذي يشاع عنه أنه ضابط مخابرات، بما جعل الأبواب كافة، بما فيها حمل هوية الاتحاد مفتوحة بوجوههم، وإذا ما أخذتك الغيرة على سمعة المكان وتاريخه، واستفسرت من المسؤول الاداري والمالي عن ظاهرة منح العضوية التي باتت تثير التندر لدى الجميع، أجابك ضاحكاً، وهو شخص مشهود له حقاً، بمهارته العالية والعجيبة في تسخيف كل شيء، وبصوته الجمهوري:

[السباهي، يمعود شمتعب نفسك، هي ظلت على هاي!؟]

عموماً اذا ما تجاهلت مرارة وسائط النقل الشحيحة القديمة والقذرة، والباعة الجوّالين الذين يصرخون بالوجوه عارضين بضاعاتهم القديمة او المسروقة، او المغشوشة، ولفات الفلافل التي تركد عند البلعوم مثل كرات من طين، وأستعنت بالله على الحاح الشحاذين والشحاذات، وخطورة المجانين والمجنونات، ومداهمات النشالين والنشالات، وغير ذلك الكثير، فجأة يشرق خيط رفيع من الضوء، وسط هذه المتاهات الشاسعة المطوّقة بالدخان والسراب، أحدق ملياً وأجمع شتات ذاكرتي التي لم يقضمها بعد، ذباب السجن وبعوضه وضوضاؤه، وقمله ودويبات الجرب، وشظايا برده وجوعه الكاسحين، أخيراً أتبين مصدر الضوء، انه كشك (الحرف) فأبتسم، أول مرة إبتسامة حقيقية مدفوعة بحسرة أسى، وتتحرك في داخلي رغبة ملحة، على صغرها، غير أنها تشجعني أن أذهب اليه، أستخدم عدة سيارات، واقطع مئات الأمتار سيراً على الأقدام، أنه يقع عند مفاصل طرق متباعدة، أصل اليه أخيراً والشمس تشرف على

المغيب، وآخذ مجلسي على كرسي حديد، غريب في حجمه وتصميمه، من عمل الروائي والمهندس المعماري (خسرو الجاف) وتكون مجموعة الرواد المسائية قد اكتملت، منجذبة نحو الكشك من بيوتها البعيدة بفعل مغناطيسية صاحبه (أبو البعوث): الشاعر حميد سعيد، المحامي قاسم الشريف، أستاذ علم النفس د. عبد الأمير الأعسم، العميد المتقاعد محب الأدب والأدباء شاكر الشطري، فاكهة المجالس، الباحث شامل الشمري، استاذ علم الفلسفة د. بدرخان السندي والمكتبي الوسيم السيد عبد المطلب الاعرجي، والهادىء هدوء البراءة فارس الجميلي، والعازب زيدون العمري الذي لا تعرف أيّ محظوظ ستؤول اليه ثروته!!

لكن، ما أن يتم إلتحام شمل المجلس، شبه اليومي الأنيس والعجيب في تشكيلته، ويبدأ جلاّسه الرائعون بتجاذب أطراف الحوار الحرير، عن الأوضاع الراهنة، حتى يحترق الشارع القريب بأبواق السيارات، بنت سنتها، وباطاراتها المتينة وهي تدّخن على قار الشارع، لسوء القيادة التي يتولاها صبية مراهقون من أبناء رجال أصابتهم النعمة في سنوات الحصار، وأبناء كبار مسؤولي النظام وهم يطاردون زرافات الفتيات اللاتي يتسكعن، شبه عرايا، أو ببدلات (التيشيرت) الضيقة جداً، ونساء بسن اليأس، يشتعلن من فرط النظافة وكأنهن بطريقهن الى موعد غرام، فيتململ الجمع على مقاعده الصلبة، فيغادر من يغادر مهموماً مكسوف الخاطر جراء ما آلت اليه الأمور، ويبقى ممن اتفقوا، من دون كلام على الذهاب الى بيت أحدهم من أجل نسيان مؤقت للمشاهد اليومية المريرة، وغسل جلافتها من على أرواحهم وقلوبهم، بطراوة القُبل من كؤوس مترعة بسلوة هذا الزمان الردئ رداءة مطلقة!!...

عموماً، تلك هي (مسرات بغداد!) فأيّ بغل يندم لفراقها ؟

ثم هجمت عليّ مجموعة أمور حزينة، حزناً خاصاً: فقدان الموت، الحنين الى الطفولة المضاعة او المنسية عند مسطحات أهوار الجنوب، ذلك الفردوس المفقود، ثم الصيف الأصفر الحارق والشرس في (أم قصر)، والابحار على بواخر حفر سد الفاو في مدينة (الفاو)، وحزمة من ذكريات كانت مزهرة ذات سنوات موغلة في القدم مع نساء لكل واحدة منهن طعمها الخاص، وأريجها المميز، ثمة وجوه أناس أحببتهم، لكني لم أعرف منذ سنوات طوال عن مصائرهم شيئاً، ورأيتُ بين هذا وتلك وجه مدوّر أسمر موشوم، عرفتُ أنه وجه أمي، ثم وجه شقيقتي الأرملة وطفلتاها اللواتي انقطعت عني أخبارهن،

وفي مثل لمح البصر شقّ الجمهرة وجه أمي، إذ تنحى الآخرون اجلالاً وأفسحوا له المجال، ومثلما في كل مرة أغيبُ عنها بعض الوقت غطتني بحنينها الأبيض العارم، وشعرت بها تهتف في جزعٍ شديد: وحيدي! ما الذي فعله البرابرة، وفعلته بنفسك!؟

تُقبلني على شفتي اليابستين، كانت شفتاها دافئتين، رفعتُ أصبعي الى شفتي فجفلت، ياإلهي! إنني أبكي، فاسرعتُ وغطيتُ وجهي بيشماغ قديم، وطرحت رأسي المشظى على وسادتي الصلبة الرطبة، وغمغمتُ في جزعٍ عظيم، بحنجرة من خشب، ناشداً النسيان المستحيل، ثم اسبلتُ ذراعيّ، كمن يستدعي المخلص، جبرائيل الكريم...

وفيما أصرُّ على أسناني في يأسٍ واحتقار وقد أغمضتُ عيني، أقفز بغضب واحتقار بوجه اللوطي (ابو ستار) الذي جاء يمازحني اذ سكب الماء البارد على ظهري، فأعادني بفعلته الحمقاء هذه من شرودي العظيم خارج السجن.

الفصل السابع

غاليلو العزيز.. شكراً

آدم الزمان الأول

الزمن القدسي

زمن الخلق

حيث يتوسط الأرض والسماء

الملائكة والشياطين

كائنات عليا، الى الفردوس

وكائنات سفلى جرجرت بأيديها

مصائرها الى الجحيم!!

•••

في احيان عدة اكون قد استنفدت طاقتي العصبية باكملها في مجاملات سخيفة لا مفر منها، اشعر على اثرها بالصداع، وألم في الصدر، وحالة من الاحساس بالاحباط الشديد، فأغادر سريري الذي سجيت عليه جثماني عدة ساعات متصلة، مجهضاً لأقف، او اجلس في ايما مكان قليل الضجة والزحام:

(أهنأ مكان بمساحة متر مربع واحد، من دون ضجة او زحام، او جريرة، في كوكب المسرات هذا، على كثرة (جملوناته)، وقلاعه وقواطعه، وردهاته؟!) ادخن واتسكع لصق الحيطان القذرة خيفة ان يصدمني الكثيرون، وهم يسرعون في سيرهم كالمجانين، أو أن يخطفوا بأصابعهم السحرية الملعونة، ما أحمله من حاجات عزيزة، حتى وان كنت قد ربطتها بإحكام الى صدري، فقد خطفوا ذات مرة، بطريقة مازالت محيّرة بالنسبة الي، وغير مفهومة على الاطلاق، حافظة نقودي في داخلها أوراقي الخاصة، من داخل جيب منامتي، اقسم انني لم اكن مهملاً، اذ كنت ممسكاً اياها بيدي!..

أحدق من خلال الفتحات الصغيرة، المعمولة في الجدران الصلدة والسميكة في كل ما يمكنني رؤيته في الخارج، فالمح حيوانات غبراوات سائبة، ومواد بناء متروكة،

ومواسير مياه معطوبة منذ العام الماضي، واكوام أزبال، تنفث، على مدار الليل والنهار، دخاناً أسود تثير رائحته العطاس، وأرض سبخاء، تنتصب عند نهايتها مظلة مثل تابوت غرز في الارض على نحو عمودي، يجلس عند ظلها النزير حارس أشيب، يتثاءب، ويتسلى برمي مجموعة من الجراء الحجارة....

ثمة فكرة لا تريد أن تفارقني، هي: ان الزمن هنا، جبال من رصاص، او قير، او صخور جرد، زمن موتى، اخرس، واعمى، ومجذوم، ومقعد، والا كيف يصدق انني، وبعد كل هذه الايام المشربكة ببعضها كعقد الافاعي، كل هذه العذابات السود، والصفر، والحمر، مازالت أشهر محكوميتي التسعة، تطوق عنقي الشائخ بحلقاتها الثقال ؟!...

تسعة شهور، وليست تسع سنوات، او تسعين عاماً، كما هي أحكام بعض عتاة المجرمين..

وتأخذني قدماي كسيحاً، وأعمى، ادور في اماكن متشابهة في قذارتها، وضيقها، وفوضاها، ولغطها، اماكن سبق ان درت فيها متوحداً، مئات المرات، فما حرّكت مليماً واحداً من عجلة كربلائي!...

اقف وأسير، أسير واقف، فلا قدرة لي على الذهاب الى ابعد من عشرة امتار وفي افضل الاحوال عشرين، وارمق بزاويتي عينيَّ المتورمتين، سجناء يجلسون لصق الحيطان، يحوكون الاخفاف، وليف الحمام، وآخرين يعدّون في قدور مسودة طعامهم الفقير؟، قوامه الباذنجان، والطماطم، وبعضهم يقف وقد عرض للشمس، عضوه الذكوري، الذي يفترسه الجرب او السفلس، واخرين يحفون، بالخيط والملقط، وجوه بعضهم، كأنهم يتهيأون لحضور حفل بهيج.

وكالثعالب يمرق الى قاعة معلومة، في القاطع الثاني، لشراء المخدرات، جمهرة أولئك الذين يلعبون بزمنهم، مثلما يلعب النرد عجائز المتقاعدين، حيث يقيمون حفلاتهم الليلية جهاراً، والويل لمن يشي بهم الى ادارة السجن، اذ يشرطون، وهم يضحكون وينكتون اجسامهم الغضة، بشفرات امواس الحلاقة، او ليوشموا صور الضواري، والافاعي على ظهور، وصدور، وزنود بعضهم، ثم تشملهم نوبة هلوسة فظيعة تدفعهم لأن يقترفوا بحق بعضهم أفعالاً شنيعة! يعقب ذلك رقاد هادئ وعميق، حتى اذا ما استيقظوا عند ظهر اليوم التالي، ظلوا ممسكين برؤوسهم المشظاة، وقد قاطع سحنات وجوههم الحجرية، أي من انواع الانشراح، مثلما فارقتهم الشهية للطعام،

يجلسون وسط اسرتهم كالثكالى، بانتظار قدوم ليل جديد، ليعاودوا شراء قرص، او اثنين، كل حسب نوعه المفضل: ابي الحاجب، ابي الجوب، ابي الروج، (نمبر فايف)، الايراني... الخ...

في حرص شديد، يجزئون الاقراص الى قطع صغيرة، يتناولونها، على فترات متباعدة في نشوة عظيمة، مرفقة بأقداح الشاي المحلى جيداً بالسكر!

انا لا أحب نفسي طبعاً، لكن، وبالقدر ذاته، لا ابغضها ايضاً ذلك البغض المرتجى مجيئه، في اية لحظة كي يلفني في سورته الشجاعة، فيصيرني ثانية، او ثانيتين، رجلاً فارساً، وجسوراً، اشرع من دون ابطاء او مجادلة، بانقاذ بقية اناي العليا المنكسرة، والمجروحة في اكثر من مكان، من مذلتها الشنيعة، كأن انتر، بأمضى الشفرات، وريد ذراعي، الذي آراه اللحظة، كالعقرب، نافراً، متوتراً، يكفي ان امرر عليه اظفر ابهامي لينفجر الدم..

وبينما انا في دوخاني المفجع هذا، ابصر على امتداد الجدران، عشرات العبارات التي خطها سجناء سبقوني، وربما يعايشونني الان المكان نفسه، ويحسون الاحساس المكروب ذاته، احساس الضحية، المكبلة جيداً، وفي عنقها طاحون.. ورحت دفعاً لعواصف الافكار المتطيرة، التي تقطع، راكضة، مساحة عقلي، شرقاً وغرباً، وفي الاتجاهات كافة، اتهجى العبارات الساخنة منها، او الفاجعة معاً... واستهوتني اللعبة، وكان السجناء يمرون بي ويضحكون من (عقل مسجون، افقده صوابه، حكمه الثقيل..) فأخذ يقرأ ما دونه امثاله بأقلام الرصاص، او الحبر، او حفرٍ بالمسامير، ممن فقدوا عقولهم، او هم بطريقهم الى الجنون، عبارات مذيلة بأسمائهم الصريحة، وقرأت:

(يا رب! لماذا عقلي كالخفاش، لا ينشط الاّ في الليل؟!)

جورج البصري في ٢٩/ ٥/ ١٩٩٣

(بالسيوف قطعوني، وبالنار ذبوني، وبالحبل شنقوني، لكن، عن امي لا تبعدوني)

حسين هادي النجفي في ١٤/ ١٢/ ١٩٩٤

انها أفكار صبي مرعوب، أليس كذلك!؟

(وين السمرة يا شطرة؟...)

رزاق مهدي الشطري في ١١/ ٤/ ١٩٩٥

(اذا نجوت من الاسد، فلا تطمع بفريسته..)

حاتم العلواني في ١/ ١/ ١٩٩٤

والعلواني هذا يبدو أنه يجيد الرسم، فقد خطط على نحو جيد، نسراً يشرئب بعنقه نحو الفضاء، مستجمعاً جسده كمن يريد ان يحلق، لكن العلواني ترك نسره، من دون جناحين! والمعنى هنا واضح الدلالة...

(يا عين كافي دمع، راح التودينه..)

سيد كريم البصراوي/ ابو الخصيب/ نهر خوز، في ٢٤/ ٦/ ١٩٩٤

وعلى رسم لبقايا شمعة، كتب احمد التميمي، في ٢٥/ ٢/ ١٩٩٥:

(كما تذوب هذه الشمعة، تذوب اعمارنا هنا، مجاناً...)

ويبدأ اهتمامي في الامر واضحاً، لكن، حتى مثل هذه التسلية على بساطتها، وعفويتها، ووجعها، لا يريدون لها ان تستمر، اذ عوت مكبرة الصوت المنصوبة في الممر الرئيسي، الضيق، والواطئ، وشبه المظلم، نعبت بصوتها الاجش الموحش:

(على النزلاء كافة، العودة الى قواطعهم، لإجراء عملية التعداد، فوراً...)

نعم، انهم، هناك يستبدلون، كلمة سجين، بكلمة، نزيل، على خطأ ذلك اصطلاحاً، مرحى لمن أوحى اليهم بهذه الفكرة المهذبة الرشيدة!!

كنت آخر العائدين على الرغم من عبارات الزجر والوعيد التي يمطرني بها حراس في مثل عمر ولدي، سلام، من كل صوب، يرافق ذلك، الطرق الشديد، لعصيهم الغليظة على حديد الأبواب، واخذت مكاني، في طابور التعداد المسائي بين طبيب، وجزار حمير.. وتكون الضجة التي تديمها المجاميع الصاخبة المحاصرة بالزمن المجفف، والمبتل، قد خَفَتتْ، فجلسوا القرفصاء، أو على مقاعد ابتدعوها من علب الصفيح الصغيرة، وكأن على رؤوسهم الطير، فليس هناك ما يعيد للسجين بعضاً من هدونه، ولو الى حين سوى الخوف من العقوبة الانضباطية!

أربعمائة سجين، عدد رفاقي في القاطع الثاني، بأربعمائة سحنة، بأربعمائة جريرة؟، بأربعمائة مزاج، بأربعمائة ثقافة، بأربعمائة ولاء، من أربعمائة مدينة، وقصبة ومخيم، بأربعمائة مشكلة عرجاء، ستنفجر حال الانتهاء من عملية التعداد، حيث سينفرط شريط الخوف الصمغي، فأين يهرب امثالي، من المسالمين، والمرضى؟

وأي حظ مبارك سيسعفهم ليكونوا في منحى من عبث، وتحرشات، اربعمائة شيطان!؟ اثناء الهدوء المؤقت هذا، الذي كم تمنيت على الله، ان يتواصل، حتى لو تطلب الامر ان امضي شهور محكوميتي بحالة تعداد مستمرة، اكون قد اسقطت رأسي بين ركبتي، علّني أجمع شظاياه، ولو الى حين، ويرجني خجل فظيع من وجودي بين هذا المجتمع الحزين والشرس، والمنبوذ بعيداً، والمسلفن بالاسمنت، والقلق، والهراوات حيث رمى بي، في لجته العاصفة، على بساطة تهمتي، قاض بريء وساذج مثلي، كان يداري ارتجافه المعيب من البرد، داخل رداء المحاماة الأسود القديم، في الضحك، والاكثار من استعمال الهاتف، وزجر المراجعين، ونطق الأحكام، في حيادية مريعة، اثناء احتسائه الشاي!! فتهرب من بين اضلعي كالطلقة فراشة روحي، التي امست من دون ألوانها الزاهية، محلقة، على نحو مباشر، الى مكان احبته منذ الزيارة الاولى له عام ١٩٧٢، انه، رغم كل شيء، بيتي الجليل الثاني، مبنى اتحاد الأدباء.

لم تذهب الى اسرتي كما يتوقع الجميع على الرغم من انها اخذت انذاراً، شديد اللهجة، يقضي برميها، واسمالها، الى الشارع، من قبل مالك البيت، ابن عمي، عضو الفرقة الحزبية ولا لتطمئن على حال ولدي، سامر، بائع اكياس النايلون الرديئة في السوق الشعبي، وهو يعود كل مساء، وقد مزق الصبية من اقرانه، ملابسه! ولا للوقوف على الاسباب الجوهرية التي تدفع ابنتي الذكية، مسار، حيث مازالت مصرة على التعيين بوظيفة مُدرِّسة، لغة انجليزية، على الرغم من بؤس مرتبها، اذ يكون اجرها اليومي، اقل بكثير من ثمن بيضة دجاجة (عراقية!!)

وقفت الفراشة على الجدار البعيد فقد صدمتها رائحة العرق المغشوش، واوجعها منظر أطباق المزة الفقيرة، واثارت نفورها ضوضاء ما يسمى، بلعبة الدمبلة، وثمة وجوه غريبة كثيرة، سمح لها متعهد النادي الاجتماعي، بالدخول، بالعقال، والنعال، بعد ان ظل المكان، منذ أيامه الاولى، خاصاً بجمهوره المميز!...

غير ان الفراشة لا تريد ان تبرح المكان، انها تتفرج بقلب مثقوب، على وجوه احبتها منذ الجلسة الأولى، لكنها- الوجوه!- وأسفاه، صارت تتصرف، وكأن صاحبها السباهي: العزيز، المبدع، النابش بإصرار في كل ما هو مسكوت عنه، القابض على قيمه الاولى، كالقابض على الجمر، كما كان يلقبه اصدقاؤه، قد مات، أو راح في سفر لا رجعة منه!

تلحظهم، وكل واحد منهم يكرع كؤوسه القاتلة، يتأوه، ويهمس في اذن جليسه، يستغوون الذكريات القديمة علها تعود، مثلما يحصل في أفلام الخيال العلمي، بأزمنتهم الوردية، التي افلتت من بين أيديهم، من دون ان يعرفوا، حتى الان: كيف ومتى ولماذا!؟... في اللحظة التي قررت فيها الطيران لتحط على مائدتهم، يكون جزار الحمير قد لكزني في قسوة: (ها استاذ، نمت؟!) ويضحك على عادته الخليعة، ويتركني أُلملم اشلائي! وتكون جريدة الحائط التي حررها السجناء، من دون رئيس تحرير، او موافقات امنية وحزبية، عادت تتراءى أمام ناظري من جديد...

فجأة، ومضت في خاطري الممزق فكرة، ومضت مثل خيط رفيع، أبيض وسط متاهة سوداء، انها التواريخ التي ذيل بها السجناء أفكارهم، فصرخت في داخلي منتشياً: يا الهي! التواريخ متحركة! بمعنى، في بذراتها تكمن حيوات نابضة، حتى وان كانت ايامها، وشهورها، وسنواتها مسمرة على الجدران!

فتاريخ ٢/ ٧/ ١٩٩٣، مثلاً هو غير التاريخ ١٦/ ٩/ ١٩٩٤ والاخير غير ١/ ٥/ ١٩٩٥، وهكذا...

وعلى نثيث هذا الامل، خفق قلبي، وتمطت، وطقطقت مفاصلي المجذومة، ورعشت على شفتي المزمومتين ابتسامة تقول:

(شد من حيلك، فالزمن على غير ما تظن، انه يخطو، نعم، يخطو الى الامام وهذه ليست نكتة، فقد وصلت الى السجن يوم ٢٠/ ١١/ ١٩٩٦، واليوم هو ٢٨/ ٤/ ١٩٩٧.)

وبعملية حسابية بسيطة، اتضح لي، انني قد انهيت اكثر من نصف محكوميتي، تحديداً خمسة شهور وثمانية ايام، من اصل تسعة!!

وكأي مثقف شرقي كان قبل لحظات مرعوباً، ومتطيراً، لما يمكن ان تضرب وجوده، في اية لحظة، كارثة عمياء في الصميم، فطمأن قلقه بالحلم، تشبثت قوياً بما نسميه بالأمل، رميت مرساتي عند شاطئه البعيد، وجلست منتظراً، وقد قررت من فوري، ان اخط، من جانبي، على الجدار، عند المكان الذي اضع وسادتي قريباً منه، كتعويذة لطرد النحس، واستقبال الرجاء المفقود بيت الخنساء الشهير الذي يليق بمن هم ابداً في عزاء مقيم:

(ولولا كثرة الباكين حولي على اخوانهم، لقتلت نفسي)

ولكن، مع معرفتي الكاملة ببواطن الأمور، وليس بظواهرها الخداعة، التي تريد مني ان أظل أدور، الى ما لا نهاية مثل ثور الساقية، وما حشا به جدي، رأسي منذ الصغر بمصابيح القضاء والقدر الوهمية، اذ اراد لي ان اكون امتداداً طيّعاً له، افني عمري بين حقل الذرة، وغُريفَة مثل قن الدجاج، كان لزاماً علي، كي اعود من جديد الى ما نسميه هنا، او ما تسميه ادارة السجن، بعالم الأسوياء، اقوياء كانوا، ام ضعفاء، متسولين، ام مضاربين، ذلك العالم الذي امسى يخفق في ذاكرتي ابعد من نجم الزهرة، ان أُغيّر من مظهري المزري، ومن طباعي السلبية، رحت اتوسل الامل باللهفة ذاتها التي يتوسل بها جاري السجين، ابو حسن، الله، الذي لا يريد ان يصدق ان مسألة طبيعية، كمسألة تجاوز الحدود، الى دولة عربية ومسلمة، من أجل البحث عن عمل شريف يمنع أسرته من ضياع مؤكد، وان هي اغضبت قوانين البشر، لكنها ليست الجريمة التي يمكن ان تغضب الرب.

اتوسل الرجاء، من أجل أن تظل الأرض مستمرة في دورانها حول الشمس، ولد غاليلو، ام لم يولد، مادام في الدورة الواحدة، يموت يوم اخر...

انها قد دارت منذ ان جاءوا بي الى هنا لإصلاحي المرتجى، وان كان من دون بوادر مشجعة حتى الآن، مئة وثمان وخمسين دورة كاملة، ارجو ان تظل حريصة على دورانها حتى بقية الأيام، ليست ايامي فقط، بل أيام الآخرين، كل الآخرين بما فيهم، الثعالب، وحانكو الاخفاف، وسارقو نقودي، والحراس أيضاً الذين يتعبون انفسهم من دون جدوى، أو أمل قريب بإصلاحنا!!

وحتى يتم هذا الرجاء، تكون الأرض حرة في الاستمرار بدورانها الميكانيكي، وان كنت أرى أن من الأجدى لها ان تتوقف، بضعة قرون لإلتقاط الانفاس، فقد دارت على ما ازعم، ويزعم الكثيرون من رجال الفكر من غير المشبوهين، اكثر مما يجب، وهي مثقلة ببضاعتها العجيبة البائرة، من القردة، والطواويس، والضواري، والدجاج المنزلي.

الفصل الثامن

منتجو القمل

غالباً ما اشعرُ أنني ورقة إنتزَعَتها من شجرتها، عنوة وفي فضاضة مريعة، يدٌ مجنونة، أو ريح صرصر، ورَمتْ بها من دون رأفة أو تبصّر على الطريق السالك بالأحذية وحوافر الدواب، فتضبب الأشياء، على فقرها من حولي، بما في ذلك وجوه السجناء...

فجأة، أنتبه الى ما آل اليه وضعي من خطورة، فأنجرف مع سورة الكتابة ودويها إذ أحسها، وقد صعّد جبروتها العظيم عصير الحياة، من جديد في بقايا غصن وجودي الآيل الى الانكسار!

إنها الكتابة وحدها الممسكة بعقلي مانعة إياه من التشظي ونثره على الوحول كما يتمنى العديد من الثعالب والأرانب وصغار المسوخ القيام بذلك!.

دبيبُ القمل الناعم، المثير المقلق، على امتداد الذراعين، وعند الخاصرتين، وحول الوركين، في الظهر، خلف الرقبة، تحت الثديين، على امتداد طيّات الملابس الداخلية، يفعل بي فعل المبيت مع أفعى الكوبرا في غرفة موصدة..

دبيب أشبه بالوخز بطرف شعرة: خفيف ومتكسر، لكنه واضح وعنيد، ومن ثم لا مجال لإهماله ومشاغلته، فضلاً عن نسيانه، فأجلس والجميع بين من يتقلب في مقلاة الأرق وقد تجمع على بعضه تحت الأغطية الرطبة، أو جالس يهرش جلده بيد، وبالأخرى يفتش!

من دون خجل أو تردد، لمَ الخجل من حالة عامة؟ أخلع ملابسي قطعة، قطعة وأنكب أبحث عنهن، عن الدويبات الناعمات الصغيرات، أصطادهن بيسر وسهولة لأنهن كسولات فرط السمنة، ودفء أسرتهن الوثيرة، بين لحم جسدي وملابسي، وبسبب من هشاشة أقدامهن غير القادرة على حملهن والهرب بعيداً عن الكماشة الماهرة المكوّنة من أصبعي الأبهام والسبابة.

وأمضي أعالجهن من دون قسوة أو تشفٍ أو ثأر لأنهن فريخاتي، من دمي، من عرقي، ومن حسراتي.. ثم أنهن رفيقات الوحدة، سميراتي في وحشة الليل وبرده وجوعه

وكوابيسه... أنيساتي ساعة أكون في خضم الندم والقلق وقلة الحيلة.. وفوق هذا كله، شارة السجين المميزة التي إن لم تسم بميسمها الحارق جلده في أكثر من مكان، يكون قد فقد صدق انتمائه، وجهنمية تجربته العنيفة في مدن الليل المهملة البدائية الخانسة المطمورة، المطوّقة بجدران الاسمنت المسلح العالية، المحروسة جيداً باجهزة الانذار المبكر، والوشاة، والكلاب البوليسية المستوردة، وصفوف المخصيين، المدن المدثرة بالخرس، بالصمت المريب، بإستثناء قرقعة السلاح الشرسة إذ تبدو السماوات العشر الطباق من دون شمس أو قمر أو كواكب، وأحياناً بكواكب وشموس وأقمار ملفّقة من طين، طين أحمر فاقع معجون بالدم والدمع وأحبار تقارير المخانيث، مصنوع منه العالم!

أمتلأت الأجساد بحبيبات حمر صغيرة يؤلم لمسها، ثم تطورت لتغدو بثوراً واضحة المعالم، وتحوّل لونها الى الأسود الفاتح، وثمة خيط رفيع من القيح يحيط بكل واحدة منها، فازداد تبعاً لذلك الشرى خصوصاً أثناء الليل، والآلام المبرحة، فقَلَّ النوم، وأنقطعت الشهية، وكثرت حالات ارتفاع الحمى، والغثيان، والتعرق الليلي، وازداد معدل المشاجرات!

قمل سمين يدب مثل بطات آمنة في أجمات أجسامنا وبطائحها، له ألوان باذخة: الأبيض، الأسود، الأصفر، الأحمر والوردي.

وقمل مخطط بألوان عدة، الجميع يمخر عباب أجسادنا: يركض أو يتسكع ويتضاجع أيضاً. ثمة قهوجي جوّال في الستين من عمره، يحرق قطعاً من الخشب، ثم يدفنها تحت التراب، وبعد فترة يستخرجها وقد تحوّلت الى فحم يستخدمه في اعداد قهوته، كنا في غفلة منه نسقط القمل على الجمرات، فنسمع إنفجارها الناعم، ونشيش لحمها، ونشم رائحة الشواء التي تذكرنا برائحة التوتياء، وحين يرفع جمراته نستمر بتسليتنا البريئة، اذ نسقط، هذه المرة عدداً منهن داخل قدح زجاجي مملوء الى منتصفه بالماء، ونجلس نرقبها وهي تسبح بمهارة عجيبة، إذ تجدف الماء بأقدامها الخيطية القصيرة، فيتساءل (عطية) الخباز وقد أخذته الدهشة:

– "يا سبحان الله! من علّم القمل السباحة؟".

ولأن العلاج الفعّال الوحيد لقتل هذه الدويبة الملعونة، ومعالجة آثارها من صنع (العدوة) أنجلترى التي:[تعطي لأعدائنا كل شيء، بما في ذلك أسرار صنع الصواريخ والأسلحة الفتاكة، وتمنع عنا وصفة صنع هذا الدواء، إذن لنمُتْ ولن نستورده وليظل

مرهمهم مكدساً في مخازنه..]

هكذا ينبح طبيب المستشفى وهو يلهث منفعلاً، ويتلمظ مثل سحلية أمام مدير السجن المسرور (لشهامة) الطبيب ويعربيته العالية..

المدير يأكل بيديه الأثنتين من صحن كبير مملوء بالثريد، يسأل الطبيب وفمه مملوءاً بالطعام:

"– تكثور، يولو يشمو هذا المرهم؟"

"– أعتقد سكالب"

يهز المدير رأسه في غضب، ينخر ويواصل التهام ثريده.

ومن دون أن يأخذ الطبيب نفساً يواصل نباحه المسعور وهو يرمق من زاوية عينيه إرتياح مدير السجن، وقد توجه بنباحه نحونا هذه المرة، من دون أن يجرؤ على التحديق مباشرةً في عيوننا المحمَرة:

[يابه! لويش ما تستحمون يومياً، وتغسلوا ملابسكم، وتحلقوا لحاكم وشعر راسكم؟]

فجأة صرخ (كاظم بن العلوية) وتقدم من مكتب الطبيب وهو يرتعد:

"– دكتور! يا حمّام، يا حلاقه! معقوله ما تعرف حتى ماي الشرب بهاي الهيمة بفلوس؟"

ولكن سرعان ما أطفأ فرحتنا، إذ هجم كالممسوس على الطبيب، واستولى على سجارته. أحاطت القوّة الاجرائية برفيقنا كما تحيط شلة من بنات آوى بدجاجة، وكان أحدهم قد أمسكه من اذنيه، يصرخ في وجهه: لك ابن الضرطة، اليوم أسلخك! مددوه على الأرض وسحقوا عشر سجاير مشتعلة بين عينيه، وبهذا العمل المتطرف خسرنا واحداً من أصلب المناضلين، وأكثرهم قدرة على الصمود والتحدي!.

في الأيام المشمسة يسمحون لنا بالخروج الى الساحة الرياضية، أما باقي ساعات النهار فمخصصة لسجناء ينتسبون لأجهزة الأمن والمخابرات والحرس الجمهوري إذ تمنع التعليمات إختلاطهم بالآخرين، هؤلاء يحولونها الى ساحة لكرة القدم.. نهرع الى الساحة حال فتح بابها الحديد الضيق أمام وجوهنا المنطفئة، الشباب منا يتسابقون راكضين بأغطيتهم العطنة يعلَقونها على السياج، مستولين على الأماكن الجيدة، الويل لمن يزاحمهم!..

عند الزاوية الشمالية الشرقية من الساحة وضعوا العتلات والمساطب وأقراص الحديد الثقيلة الخاصة بألعاب رفع الأثقال وبناء الأجسام، أثرثر ضاحكاً: أيّ أثقال يمكن أن يرفعها سجين جائع لا يقوى على حمل ملابسه؟ وأي جسم ينشدون بناءه وطعامه لا يتعدى الشوربـاء المرّة، والشاي المر البارد، والصمون النزير البائت؟ أخرَجوا تلك الأدوات الرياضية من القاعات المخصصة لها، وحولوها الى معتقلات بسبب التدفق اليومي لجموع السجناء الجدد القادمة من مديريات شرطة العراق كافة، التدفق يبدو أنه لن يتوقف، الأمر الذي سيدفع السجناء الى الاستيلاء على كل شبر فراغ في السجن على اتساعه، وقد تتطور القضية فيستولوا على الغرف الخاصة بمكاتب الموظفين والموظفات والحراس، وهذه الساحة اليتيمة، وربما غرفة المدير العام أيضاً!.

الجانب الغربي المواجه للشمس من نصيبنا وحدنا، نحن جماعة (منتجو القمل).. نتسابق لإحتلال أماكننا، نجلس عرايا مثلما ولدتنا امهاتنا، ومن الأعمار كافة. يخلع (عباس) الحلاق ملابسه الرثة، يبسطها على ساقيه العجفاوين، وهو لا يكف يتأوه ويندب: [يمّه! لج ليش جبتيني لهل الدنيا، ليش؟]

وقد بدونا من خلال المشهد حيث نعرض أجسادنا المكسوة عظامها الناتئة بجلد متيبس، وذقوننا المهملة، وشعر آباطنا القردي، وعاناتنا القذرة، كائنات هبطت تواً من كوكب الرماد، الى كوكب المسرات هذا!

وبروح رفاقية عالية، فيها عطف، وفيها شفقة، وفيها محبة، وشيء ليس قليلاً من التضامن، ومع أهمية كل هذا يظل التشجيع أفضلها، التشجيع لمن لايزال قروياً يخجل أما لكبر سنه، او لجدة عهده بالسجون وعوالمها بالانضمام علناً الى عصبتنا، حيث نتبادل النصائح والمشورة والمعرفة المكتسبة عن أمور خطرة مثل طرق اصطياد القمل من دون أن ينفجر بين اصابعنا، وأين تختبئ في العادة مستعمراته، وماذا على الواحد منا أن يفعل في المنطقة التي عثر فيها على قملة، أو عدة قملات كبيرة، اذ لابد أنها تركت وراءها كمية كبيرة من البيوض التي قد لا ترى بالعين المجردة، أو بالتي فقس منها، لكنه يلتصق بنسيج الملابس، وكيف نميّز قمل الملابس من قمل الرأس، أو العانة؟..

بيننا مجموعة من البسلاء، تداوي فداحة الكارثة بروح من الطرافة والمقامرة أيضاً، يدير أفرادها مراهنات طوّعية بسيطة وشفافة، الخاسر يدفع سجارتين أو ثلاث، أو قدح

شاي، أو رأس بصل، أحياناً تأخذهم حمأة المراهنات المعروفة، اذ تكون جائزة من تفوز قملته (لفة فلافل) مرشوشة بالعمبة الحريفة، ومن (بسطية) سلمان النكري حصراً..

يضع المتسابق قملته المختارة عند خط الشروع، وتثقّل بعود ثقاب لحين إكتمال العدد، ومثلما جرت العادة في مباريات العالم كافة، ترفع العيدان دفعة واحدة عند العد ثلاثاً، تترك خيول القمل العراقية تخب حتى خط النهاية المرسوم بالحجارة على الاسمنت..

وبالتجربة المتكررة والصبر الحميد كل يوم، طوال فصل الشتاء إكتشفنا، وبالعظمة الاكتشاف وأهميته لشعب يراد له الانضمام الى النادي النووي العالمي، إن القملات التي يغلب عليها اللون الأسود هي الأسرع والأكثر مطاولة في الدبيب، والأبرع أيضاً في تخطي الحواجز، تليها ذوات اللون الأصفر، ثم البيضاوات حاملات النقطة السوداء المشعة، وتجيء الورديات في آخر القائمة.

وكما هي الحال في سباقات مهمة كهذه، يُصاب أحياناً لنتائجها المفاجئة بعضنا بالأغماء الخفيف، أو الجلطة العابرة، ولعل أجمل ما فيها ذلك التدافع الشرس على مضمار السباق، والتصفيق والصفير والتعليقات الماجنة، والهتافات المسعورة أحياناً، فالسباق شرقي، على أرض شرقية، وبمخلوقات شرقية، وسباق من هذا النوع، لا يحلو ولا يطرب إن لم ترافقه هتافات حماسية ومشاجرات دامية، لاسيما وقد تحطمت أرقام عدة في أسابيع قليلة.

خلع كل متسابق منا اسماً باذخاً على قملته من باب التوثيق ورفع المعنويات مثل: الرفيقة، الضرورة، الصامدة، عزة العرب، أم المهالك، حمّالة الثلج، فخر الشابات، أما قملتي فسميتها (القحطانية) منعاً للمشاكل.

وكان اكثرنا قلقاً (مجيد الفارة) انه يريد أن يدخل وقملته (ثورة) كتاب جينس للأرقام القياسية، على ضوء ما حققته من انتصارات مدوّية!.

أحياناً يشي أحدهم ممن تأكل قلبه الغيرة والحسد، بواحد أو أكثر منا الى الدائرة، بسبب تأويل تصرفاتنا أو تعليقاتنا، أو أسماء قملاتنا تأويلاً شرقياً سخيفاً.

عموماً على السجين الذي وقعت عليه بلوى الوشاية المهلكة أن يتحلى بمعنوية المناضل وصلابته، عناده ومكابرته أيضاً، لا يتأوه وان أوصلوا قضيبه الى سلك

الكهرباء. وأن لا يتذمر أو يشعر بالعار إن هم جاءوا بزوجته وشقيقته وامه أيضاً وقاموا بمضاجعتهن أمامه، فقد درّسوه إن قضية شعب أسمى من مصير أسرة، وأن يضحك في سرور بالغ، راضياً قبل كل شيء عن نفسه، لأنه أغضب المحقق الأمني المتوحش فأمره بالجلوس على فوهة قنينة البيرة التي احتسى محتوياتها دفعة واحدة ودفعها، وهو يتجشأ تحت مؤخرته العارية، ليذبح هذه المرة من شرجه أنّه كائن إستثنائي، لا يمكن أن يكتب النصر لقضيته ما لم يتعامل معها، مثلما كانت الممالك القديمة تشتري رضا الآلهة بدماء الأضاحي السخية.

وإدارة السجن لا تفهم، ولا تريد أن تفهم، أن متسابق القمل رجل يتميز عن غيره من الناس، بالميل الى اطلاق النكتة، واشاعة روح الدعابة والمرح في محيطه، دفعاً للجنون أو الانتحار، فأين منه رجل السياسة وأذنابها المعروف بالصرامة واللفط واليبوسة والخواء والنظرة المتحجرة للحياة؟

ويوماً فيوماً، وأسبوعاً بعد اسبوع إزاداد عددنا، وقوى تنظيمنا، ووجدت شعاراتنا قبولاً لدى الآخرين، الأمر الذي أقلق التجمعات الأخرى، خصوصاً إتحاد الشيوخ المهربين، جمعية المسؤولين المرتشين، منظمة الرفاق المتخاذلين، أما رابطة اللوطيين، وتسميتها الرسمية: رابطة الحلوين ومستثمريهم، فهذه وحدها خارج البانوراما، إذ ينشغل أفرادها تماماً، من أقدامهم الموشومة بعبارات مثل: أمشي على الشمات، وحتى شواربهم المقصوصة بعناية، بوفرة لحم الفتيان الطري البخس، يغترفون منهم ملء شهواتهم المدنسة، دونما خشية أو خجل! البدو المساكين وما أكثر ما يؤتى بهم هذه الأيام بتهم متنوعة: تجاوز الحدود، التهريب، التهرب من خدمة العلم، رفض دفع الضرائب عن مواشيهم، التجسس لصالح دول الجوار، هم أول من يقمل، ويصيبهم الجرب، لخوفهم الشبيه بخوف أباعرهم من عبور الأنهار... يهرشون أجسادهم الضامرة بقسوّة مضاعفة، يضربون على أماكن اللسعات، يلتقطون القمل من بين طيّات سراويلهم الطويلة، يقصعونه مثل العجائز القرويات على أظفارهم، ويمسحون دمه القاني على ملابسهم أو لحاهم التي لا يكفون يشذبونها بمقص صغير لا يفارقهم، يفعلون كل هذا من دون أن ينقطعوا عن الثرثرة، أو الضحك، أو انشاد أشعار البادية بأصوات خفيضة، يلفون لبعضهم السجاير من أكياس صوف مزركشة!

تعبنا من أجل كسبهم الى نقابتنا، لكن هيهات، إذ كيف لمن قاتل وهو في مرحلة

الطفولة الذئاب والضباع وحيات الصحارى السامة، أن يجالس ويستمع الى مجاميع من الحضر الخنث الخرّع ؟

يميّزنا عن الآخرين هزالنا المريع، شحوبنا، أسمالنا وتدافعنا حول قدر الشورباء التي تأنف قطط السجن وكلابه من لعقها، لذا فلا عجب أن نحن رأينا من يشير نحونا لمرض في عقله أو ضميره، هاتفاً بصوت مسموع: [هؤلاء أعضاء نقابة منتجي القمل الملعونة]. أينما سرنا وحيثما توقفنا الجميع يفسح لنا الطريق، يبتعدون عنا في جزعٍ وأيديهم على انوفهم كأن الواحد منا مرحاضٍ، أو مصابٍ بالجذام.

بعضهم لا يتورع، خصوصاً مَن هم من تحالف الشيوخ المهربين، أو الرفاق المرتشين، يبصق صراحة نحونا في إشمئزاز ونفور، ويرمينا بنظرات من جمر الكراهية.. نظراتهم البلهاء الصلفة المتغطرسة المترفعة والعدوانية. كيف يمكنني أن أنساها ؟.

كنا في تعداد الظهيرة اليومي، كان الجو حارا ورطباً، والضابط الخافر بسحنته البغلية يعدّنا خمسة خمسة، وسط هدوء يمكن أن تسمع فيه إنكسار شعرة! فجأة، شعرتُ بمن يلكزني خفيفاً عند خاصرتي، ثم أحسستُ أنه التقط شيئاً من على منامتي، عند كتفي الأيمن، دسّ (الشيء) داخل يدي التي دفعتها خلفي خلسة، حين فتحتها رأيتُ مثلما توقعت قملة كبيرة بلون حليب ناقة عدنانية، أسقطتها أمامي ورحتُ مبتسماً أتابع دبيب القحطانية المرتبك وهي تسعى نحو مهرَب خطر يجلس أمامي، ورأيتها يا لذكائها تتعلق بطرف ثوبه الأنيق الملامس للأرض.. كان اليوم هو الأحد، يوم بدأت الخليقة بالتشكل، ربما بدأت أول مرة على صورة قملة، مَنْ يقول نعم! ومن يجرؤ أن يقول كلا ؟.

حزيران/ ١٩٩٧

الفصل التاسع

قيامة الميت

تخيلوا انه رمي بكم في واحدة من تلك (المدن!) التي يسميها القانون: سجون إصلاحية! من التي أتينا على بعض أوصافها، أو التي سنجيء على الآخر في كلام لاحق، ولتكن تهمتكم من النوع البسيط، التي يمكن أن تحدث في أية لحظة من بلدان العالم كافة: حادث مروري مثلاً، أدى الى كسر ساق المجنى عليه، فحكم واحدٌ من أولئك القضاة، الذين يتثاءبون طوال ما يسمى بجلسات المحاكمة، أو قاض من دون ضمير، مزهو لانه قادر على (تحزيم!) المتهم سنوات سجن يتناسب عددها وحالته النفسية يوم اتخذ قرار الحكم فقرر، تحت ذريعة الحق العام، أن يصدر حكماً بحبسك الشديد أو الخفيف لا فرق، اذ ليس في السجون كافة أحكام خفيفة! وعلى الرغم أن اصابة المجنى عليه قد اكتسبت الشفاء التام، وأنك قمت من جانبك، حسبما تقتضي الأعراف العشائرية التي لها قوّة، تفوق كثيراً قوّة القانون كالصلح والتعويض وما الى ذلك، وأنه حضر شخصياً الى المحكمة، وقدم طلباً خطياً بالتنازل، ووقع ذلك أمام القاضي، لكن كل هذا، لا يفيد! نعم، لا يفيد! وهذا ما تترجمه حركات أطرافه، وتعابير وجهه التي تنز عداوة وغطرسة، وغمزة ولمزة مع ما يسمى بالمدعي العام، ومدونة الأقوال، فرماك مثل نواة، مثل نعال مقطوع، مثل عقب سجارة، هشك بميزان عدالته الصديء، بتذمر واحتقار متخيلاً اياك: بعوضة، ذبابة، كلب سائب مصاب بداء السعار، من دون مراعاة للظروف، ذاتية كانت أم موضوعية، مدة أثني عشر شهراً، ثمانية وأربعين أسبوعاً، ثلاثمائة وستين يوماً، ثمانية الف وستمائة واربعين، ساعة، بثمانية آلاف وستمائة وأربعين مشكلة ومصيبة وعذاب، ومثلها حالات أرق، ومثلها حالات جوع، ومثلها حالات شكوى من أمراض متنوعة!. نعم، لكل مخلوق ساعة موت واحدة، لا يشعر مرارتها إلا يوم وقوعها، أما السجين فكائن يموت كل ساعة من ساعات مدة محكوميته!

وكنت قد علمتُ وانا داخل السجن، لكن ما قيمة معرفتنا معلومة صحيحة بعد فوات الأوان؟ علمتُ من أحد السجناء المخضرمين، أنه كان عليّ أن أسوي المسألة مع القاضي، قبل يوم المرافعة، وللتسوية هذه طرق متنوعة، لعل أكثرها مضاءً، هي أن تقوم زوجتك بزيارة زوجة القاضي في بيتها مع)هدّية!) مناسبة.

ما أن يرمي الليل عباءته الحندس، حتى أكون أول من يستلقي على فراشه متيقظاً أنصتُ الى عواء الثعالب وبنات آوى الذي يتصاعد طوال الليل من خلف الجدران، حيث الأحراش والمستنقعات التي أقيمت كمعوقات لمن يفكر بالهرب! تعوي من دون توقف تقريباً، وعلى نحو جماعي، فهي الأخرى تعاني من آلام الجوع والجنس! وأن ديكة القرية القريبة، تصرخ بدورها: لقد طال الليل، نحن جياع، وعطاشى، وخائفون، فعجّل يا رب بالنهار!

ومع كل هذه التحوطات تمت ثلاث محاولات هرب ناجحة، كل واحدة منها تتسم بالتخطيط الدقيق، والسريّة، ورباطة الجأش..

الأولى وقعت في قسم الأحكام القصيرة، بطلها شاب وسيم، وسامة لم يزد عليها سوى لمسات بسيطة من المكياج لشفتيه ووجنتيه وعينيه، وارتداء بدلة نسائية وعباءة، لينسل ضاحكاً، بين أمه وشقيقاته الثلاث، حين جئن لزيارته من عيون الحراس التي تفترس وجوه الزائرات!.

ولعل الثانية التي حصلت في قسم الأحكام الطويلة، هي الأكثر غرابة ومثاراً للدهشة بطلها سجين في الخامسة والأربعين، ذكياً دون شك، وكتوماً، وشجاعاً من طراز خاص! يبدو أنه حين دخل الى السجن محكوماً عليه بعشرين عاماً، جلس وفكر ملياً بايجاد وسيلة مضمونه لهربه، وإلا قضي نحبه، مثل ذلك السجين الذي وافته المنية في اليوم الأول من وصوله هو.

وحين وجد الوسيلة، تصرف بهدوء وكياسة ورباطة جأش مثيرة، اذ تقرّب من رجال الأمن، وراح يقدم لهم خدماته المتنوعة حتى وان هم لم يطلبوا منه ذلك، وأينما ساروا وجدوه بين أيدهم يتفجر حيوية ونشاطا، وشيئاً فشيئاً كسب ثقتهم، فعينوه في مشرحة السجن، بعد أن ادعى أنه كان مسؤولاً عن مشرحة دائرة الطب العدلي في بغداد.

أبدى، من فوره نشاطاً ملحوظاً في ادامة جثث الموتى من جراء الأمراض القاتلة، أو ممن يتم اعدامهم، اذ تطوع بنقلها الى الغرفة الخاصة بحفظ الجثث المقامة خارج بناية القسم، والقيام بحراستها من الكلاب وحيوانات الليل المفترسة التي تجتذبها الرائحة، ووضع نظاماً خاصاً يفضي بترقيم الجثث، ومسك سجل دقيق بها، ووضعها في توابيت، وذلك قبل أن يتم تسليمها الى ذويها، وفق وصولات رسمية لا لبس فيها!

إنه عمل صعب حقاً، ومقزز على نحو خاص، طالما تاقت ادارة السجن لادارته من

قبل رجل له شكيمته!.

ولكي يحكم من حوله أطراف اللعبة، مثل دور الزاهد، اذ راح يكثر من الصلاة وتلاوة القرآن، وابتعد عن جميع السجناء، وادعى من ضمن ما ادعاه: أنه رجل مقطوع، ولد يتيماً، وفشل مرتين في زواجه بسبب عدم قدرته على الاخصاب!! وكانت مهمته الخاصة هذه، وتقربه الوثيق من ادارة السجن، تسمحان له بالتجوال الحرّ والمفتوح في ردهات السجن وأروقته، بما في ذلك حريّة الدخول الى أقفاص المحكومين بالاعدام، الذين ينتظرون، بفارغ الصبر التنفيذ، اذ أصيب معظمهم بالجنون، والأمراض المزمنة، خصوصاً أمراض القلب، وارتفاع ضغط الدم، والسكر من جراء مكوثهم الطويل كالحيوانات في الزنزانات الرهيبة!.

وكان كلما دخل اليهم بحجة توزيع الأدوية، أو الطعام، ينظر نحو أحدهم نظرات خاصة، يتفحصه ويتعجل إعدامه، من دون البقية!

أخيراً جاء اليوم الذي انتظره! أكثر من سنة ونصف السنة، وتم تنفيذ الاعدام بوجبة جديدة من المحكومين لأسباب شتى، كان من بينهم الشخص الذي يعد إعدامه بمثابة الأرجوحة السحرية التي ستقذف به خارج أسوار السجن، من دون أن ينتبه أحدٌ لذلك!!

نقل المعدوم، بمحبة خاصة من غرفة التنفيذ، وهناك في غرفة أمانات الجثث أحاط جثمانه بقوالب الثلج، وأفرد له أكثر التوابيت إتساعاً..

وكان من جانبه، طوال مدة انتظاره هذه التي يكثر فيها الصلاة، وتلاوة القرآن امعاناً منه بالظهور بمظهر الزاهد أمام ادارة السجن، يكثر أيضاً من الصوم، حتى رقّ عوده، ونحلت أعضاؤه على نحو لافت للنظر!

في صباح اليوم الموعود، واذ علم أن ذوي الذي اختاره من بين المعدومين وسيلة لخلاصه قد حضروا، اعتكف داخل الغرفة، بعد أن رتبّ كل شيء، من وصولات الاستلام والتسليم، الى إلصاق ورقة على غطاء التابوت مدون عليها اسم المتوفى بحروف قلم الماجك الزرقاء، تمدد داخل التابوت، ثم رفع الجثة الضئيلة التي لم يترك فيها هاجس الرعب من فكرة الاعدام غير جلدٍ على عظم، ووضعها عليه، بعد أن كان قد لفها بكفنها، ثم سوى عليهما غطاء التابوت بطريقة محكمة!!

ألم أقل أنها حكاية هرب مفزعة، ومدهشة حقاً؟.

دخلت الى باحة السجن مجموعة من سيارات الأجرة، بعد أن دقق حراس البوابة الرئيسة أوراق أصحابها، وتبينوا وجهتهم، وحين لم يجدوا من يسلمهم جثث موتاهم، على الرغم من أنها كانت مرتبةً تماماً في توابيتها، ذهب أحد حراس بوابة قسم الأحكام الثقيلة التي تعود اليها مسؤولية أحكام الاعدام، وأخبر دائرة الأمن بالأمر، فجاء أحدهم برماً لتغيب السجين المسؤول، ثم طلب من الحاضرين التعرّف كل على ذويه من خلال الورقة الملصقة على غطاء التابوت، أخذ تواقيعهم على وصولات الاستلام، وأعطاهم الأذون الخاصة بخروجهم وحمولاتهم من السجن، وكذلك كتب الموافقة الرسمية على دفن الجثث، وهكذا غادر رتل السيارات بوابة السجن الرئيسة من دون مشاكل، وعلى سطح كل واحدة تابوت خشبي، وأنطلقت كل واحدة باتجاه مدينة المعدوم!!.

ما أن أبتعدت السيارة التي اختفى السجين الهارب داخل التابوت المربوط الى سطحها عن منطقة السجن حتى عالج، بهدوء غطاء التابوت بمدية احتفظ بها لهذا الغرض، وتبين له أن السيارة تتجه نحو بغداد، وكان يعلم أن المتوفى سيذهب به أهله الى مدينة النجف ليدفن هناك، حسب ما كان قد حرره على شهادة وثيقة الدفن فجأة، أحس بالسيارة تتوقف، وسمع أبوابها تفتح وتغلق، وطال توقفها، فرفع الغطاء قليلاً ليتبين الأمر، فعلم أنها تقف قريباً من منطقة يطلق عليها، مرورياً: (نفق الشرطة) وهي منطقة معروفة في جانب الكرخ من بغداد، تربط منطقتي حي العدل، بحي الجامعة، عبر نفق الشرطة المخصص لمرور السيارات، ولمح رجلاً يجلس على الرصيف قريباً من السيارة وقد وضع رأسه محبطاً بين كفيه، حسبه أحد أقارب المعدوم، انها فرصته الذهبية، شدّ من عزيمته، وهو يتذكر جملة المصاعب التي عاناها، وأحلامه التي بناها بصبر عجيب، من أجل نيله الحريّة من جديد، وكانت المنطقة شأنها على الدوام، تعج بالمارة والسيارات.

رفع الغطاء ببطء، وبالبطء نفسه انسل من تابوته، وقفز بحيوية قط من على السيارة، وركض ليضيع في الأزقة المجاورة!.

بعض النسوة اللاتي ينتظرن على جانبي الشارع سيارات النقل العام شاهدن من أماكنهن ما يحدث منذ البداية وقد عقد الرعب ألسنتهن فرط غرابة المشهد ولا معقوليته فحصلت لبعضهن حالات أغماء قبل أن تنفجر حناجر الأخريات بالصراخ الهستيري،

وقد أزادهن رعباً إلتصاق كفن الميت بسبب السوائل المترشحة من الجثة، بظهر السجين الهارب!!.

أما حادثة الهرب الثالثة، فقد وقعت في قسم الأحكام الخاصة، وكان لتنفيذها هي الأخرى، أسلوبها الخاص، المغامر والجسور معاً، آخذين في الحسبان دقة الحراسات في ذلك القسم التي تتسم بالصرامة، إذ يضم عدة آلاف من المحكومين لأسباب سياسية، أو تجسسية..

تقوم ادارة هذا القسم، وهي خليط من منتسبي مؤسستي المخابرات والأمن بجلب سيارة حمل ثقيلة، بين فترة وأخرى، محملةً بأكياس الرز والسكر وصفائح زيت الطبخ، وأشياء أخرى من هذا القبيل، ولتفريغ الحمولة تستنفر الأدارة بعضاً من المحكومين (المشاغبين!) كنوع من العقاب.

ولأن السجناء هنا يتميزون بمقاطعة الادارة، والترفع عن التقرب منها، وعدم الاستجابة لطلباتها مثل التجسس على بعضهم، مفضلين شتى صنوف العقوبات الشرسة، التي تترتب على مواقف شجاعة من هذا النوع..

ذات مرة تعرض بطل هذه الواقعة، مكرهاً للقيام وسجناء آخرين بتفريغ الحمولة، ويبدو لي أنه بذكائه المميز، ذكاء السجين السياسي، ما أن رأى السيارة، لنقل جزءاً محدداً منها، حتى ومضت في عقله الحيوي فكرة بدأت صغيرة ومستحيلة غير أنه عكف، صامتاً ومحاذراً كاقصى ما يكون الصمت، وأشد ما يكون الحذر، فعيون الدائرة مبثوثة وسطهم كالهواء، بعضها على شكل سجناء يمضون عدة اسابيع بينهم يعانون ما يعانيه السجين السياسي من عنت ومضايقات، ثم بحجج عديدة ينادون عليهم، فيذهبوا ولن يعودوا!..

عكف على دراسة المسألة من أوجهها المتعددة، وضع أقصى وأسوء الاحتمالات، وأعقد الظروف، وحين قرّ قراره في أول فرصة سانحة لما خطط له ونوى، ظل مواظباً على القيام بتفريغ حمولة الشاحنة، مرة تطوّعاً منه، وأخرى كبديل لسجين وقع عليه الاختيار لكنه مريض، وثالثة يتذرع للذين يرون في عمله هذا مثلبة تضر بشخصية السجين السياسي، يتذرع بـ (شم الهوا) فصدره تطبق عليه منذ أسابيع قبضة من حديد، ومن ثم مسألة كهذه تستحق تقديم تنازلات كثيرة، ومن بينها أن تكون حمالاً لأكياس ثقيلة.

صحيح أن الشاحنة تدخل الى ساحة داخلية محاطة بردهات السجن العالية، عبر بوابة متينة، ولأنها لا تبعد عن المخزن المقام داخل القسم سوى بضعة أمتار، هي كل المسافة بين مؤخرة الشاحنة والبوابة المؤدية الى مخزن المؤن، غير أن هذه الأمتار القليلة، لانها تقع خارج المبنى المتجهم، الفائح على الدوام، وعلى امتداد الفصول بروائح المرافق الصحية الطافحة بالقاذورات، وروائح آلاف الأجساد المركونة كالأسلاب، فضلاً عن روائح القواويش الرطبة المقفلة أبوابها وشبابيكها على مدار اليوم، هذه المسافة تكفي ليمارس من خلالها ما يشبه حركة كف الخبّاز حين تؤرجح الرغيف قبل أن تدخل الى جوف التنور الساجر، وسحبها، بمعنى: التصرف المتسم بالسرعة والدقة والرهافة والتوازن، ناهيك أن الحراس على خشونتهم، لكنهم لا يمنعون السجناء العتالين، فيما لو رغبوا بمشاهدة السماء مثلاً على نحو مباشر، شرط عدم الأطالة أو التكرار!..

ويبدو لي أن من قوانين الطبيعة الغامضة، او المميزة ان أية قضية ساخنة يخطط لها بحرص ويقظة واحتراق دم، لابد أن تستجيب لها الظروف مهما عبست وتشنجت، واتشحت بالظلام، لا نضاجها!.

فجأة، وفي مساء حزيراني قائظ، جاء من يطلب من السجناء القيام بتفريغ شاحنة محملة بالمواد الغذائية، وكان صاحبنا يتناول العشاء مع مجموعة من السجناء، فنفض يده من الطعام، وهبّ واقفاً بين استحسان الحراس، واستنكار من كان ياكل بمعيتهم وتعليقاتهم الخشنة، ولو أنّ أحداً تفرس في وجهه لحظتئذ، لرأى في عينيه شعلة فرح متقدة.

هم دائماً يأتون بالشاحنة عند منتصف النهار، أو حتى قبل ذلك، غير أن عطلا ما قد حصل لها، وأنها كانت محملة بالمواد، وحين تم اصلاح العطب، لم يشأ سائقها العودة بها الى المخازن التي أقفلت أبوابها في مثل ذلك الوقت، فجاء بها الى السجن.

يقال أن الضابط الخافر لتلك الليلة، رفض تفريغها، وخيّر سائقها بين المبيت أمام واجهة القسم، او العودة بها الى من حيث آتى، انه لا يستطيع تحمل مسؤولية تفريغ الشاحنة من قبل السجناء في مثل هذا الوقت حيث نصف القوّة الاجرائية في بيوتهم، كما جاء في محضر التحقيق. إلا أن بعض الحراس وبدافع من غرورهم، وايمانهم المطلق بتدجين السجناء كافة، يبدو قد أقنعوا الضابط من أن الوقت مازال مبكراً وأنهم

سينتهون من المسألة في أقل من ساعة، وسيضاعفون من رجال الحراسة للمراقبة، بل أن ما يسمى بعريف الخفر أمر حارس البرج القريب من منطقة وقوف الشاحنة أن يشعل مصابيح البرج ويوجهها نحو المكان، على الرغم من أن الشمس لم تغرب بعد!

وأنهم شاهدوا الهارب يعمل بنشاط، ويحث الآخرين للأسراع والانتهاء من المهمة قبل أن يحلّ الظلام، مما أفقدهم مراقبته والتركيز على سجينين متباطئين لاصابتهما بالمرض، بعدها تم ادخال الجميع الى زنزاناتهم، وباشراف الضابط الخافر شخصياً، ليس هذا حسب، بل أن أحد الحراس استقل الشاحنة ذاهباً الى بيته، بعد أن رتب الأمر مع الضابط وزملائه، وهو أمر يحدث على الدوام، وأن الشاحنة تحركت من فورها عائدة الى المرآب في كراج المخازن المركزية التابعة لوزارة العمل والشؤون الاجتماعية، وأنها توقفت عند بوابة السجن الرئيسة، وأن حراسها قاموا بتفتيش قمرة السائق، وتأكدوا من هويته، وهوية الحارس الذي بمعيته، وأن أحد حراس البوابة تسوّر الشاحنةوألقى نظرة فاحصة على حوضها، على ضوء مصباح البوابة ذي الفولتية العالية، المنصوب على عمود عند مدخل البوابة، بعدها سمح للشاحنة بالخروج. الى هنا ويتوقف التحقيق، وتتضارب آراء أعضاء لجنة التحقيق الخاصة التي شكلت للوقوف على ملابسات حادثة الهروب، غير المسبوقة، التي لم تكتشف إلا عند اجراء عملية التعداد الصباحي لليوم التالي!..

غير أن خيالي الأدبي تكفل باتمام الحلقة المفقودة لربط طرفيّ الحادثة ببعضهما، يقول خيالي الأدبي: إن البطل الهارب من الجحيم، في اللحظة التي نفض بها يده من الطعام، قرر رفض البقاء في هذا الزمهرير الذي أين منه زمهرير القيامة، حتى وأن أدى ذلك الى هلاكه، يساعده أن خطته التي وضعها، اذا ما تم تنفيذها بالخطوات التي رسمها، فسوف تقوده من دون شك الى شاطئ الحريّة، الشاطئ وليس الفضاء المطلق، لانه حتى يتحاشى القبض عليه من خلال النشاطات المتعددة، الحزبية وغير الحزبية التي ستجند حال استلامها الأوامر، كان قد رتبّ بطريقته الخاصة، وبالاستعانة بواحد أو أثنين من رفاقه الذين إئتمنهما السر الخطر، ساعداه باعطائه بعض العناوين التي تسهل عليه نجاحه في السفر الى الخارج، شريطة عدم اضاعة دقيقة واحدة داخل العراق، ومن ثم يقول سيناريو الحلقة المفقودة لدى لجنة التحقيق، مثلما أتخيلها، أو أشيع عن أحد أفرادها، لاسيما وأنها، دون غيرها الأقرب الى الصواب، منطقياً في الأقل،

ازاء جملة الاجتهادات الأخرى، كان، كما اسلفت، متيقظاً تماماً لما يدور حوله، وأنه قد وضع خطته القاضية بالتلكؤ عند مؤخرة السيارة كلما كان ذلك ممكناً، ومن دون اثارة ريبة الحارس الذي يقف قريباً منهم واصبعه على الزناد، والحارس الآخر الذي يقف على سطح البناية القريبة منهم، والمدجج هو الآخر بالسلاح، وكان يرصد بزوايا عينيه حركتهما، ولأن السجّانة، شأنهم شأن أي موظف يشعر نفسياً بدونية مهمته، فانه غالباً ما يغطي على هذا الشعور المهين لانسانيته، والذي يصلح لعمل الربوت، وليس لانسان في أواخر القرن العشرين، يغطي على ذلك بتصرفات حمقاء، رآهما يدخلان بحديث من أحاديثهما الشخصية السخيفة، فانسل كالقط تحت الشاحنة وهي على وشك الانتهاء من حمولتها، وتمدد محتضناً جهاز (الأكسل) الكبير، وهناك عند أول نقطة تقاطع مروري، تقع مسافة ٣ كم جنوب السجن، أبطأت الشاحنة من سيرها، انسلّ وضاع في الظلام وسط البساتين القريبة، ثم عمد من فوره وربما في الليلة ذاتها، على مغادرة العراق، عن طريق المنطقة الشمالية، التي لا يتطلب الدخول اليها جواز سفر، أو ما شابه ذلك من الوثائق المعقدة، فهوية الأحوال المدينة تكفي لهذا الغرض، ناهيك عن أنه يمكن أن يكون قد استعان بهوية ما من أحدهم!!.

بقيَ أن اذكر، إتماماً مني للتوثيق: أن الأول من الرمادي، والثاني من ديالى، أما الثالث فكان من محافظة البصرة.

الفصل العاشر

عشائر طريبيل

القرويون من الفئة التي أطلقتُ عليها تسمية: عشائر طريبيل! فانتشرت بين الجميع بسرعة عجيبة، القرويون يفترشون أسمالهم عند بوابة ساحة القاطع الداخلية الضيقة، يتمددون بملابسهم المتربة، يدخنون السجاير التي أغلبها من اللف، بكثرة، يشربون الشاي بنهم، وبنهم أيضاً يروون لبعضهم الحكايات، قديمها وحديثها، في العشق والصيد والغزو والثأر، يتثاءبون من دون نعاس، أحياناً يشخرون وهم يتحدثون، ثم يستيقظون ليواصلوا التدخين واحتساء الشاي وسرد الأحداث، من دون أن يعدلوا في رقدتهم!

هكذا هم في كل يوم مذ جيء بهم أول مرة، فمفارز الحدود المنتشرة على محيط العراق يبدو أنها نشطة في مهامها على نحو يدعو الى ارضاء حكومات الجوار، أنهم يسعون جادين لالقاء القبض خصوصاً على العراقيين، في الليل والنهار، وفي كل الفصول، فثمة اتفاق (سري!) يقضي بعدم السماح (للخارجين على القانون!) باختراق حدود الدولة المجاورة، واذا ما تجرأ أحد العراقيين، وما أكثرهم وفعلَها فتستخدم الطرق البوليسية الحديثة، في المراقبة والتتبع، ومن ثم القاء القبض، وتسليمه مكبلاً بالأصفاد، وبوصل رسمي الى شرطة حدود طريبيل العراقية.

مراقبة صارمة، تثبت فاعلية قوات الحدود للدولة المعنية، وتفاعل أجهزتها الأمنية، وغير الأمنية، مع توجيهات الوزير المسؤول، الذي شدد على ضرورة تطبيقها، إثر عودته من مؤتمر، سرّي علني، لا فرق عقد على مستوى وزراء الداخلية، ممثلين لانظمتهم المرعوبة، تحت شعار (معاً ضد الأرهاب) حيث تصبح كلمة- الارهاب هذه المرة واسعة ومطلقة ومخاتلة، يمكن أن يضع الواحد منا كتاباً من الف صفحة بتوصيفاتها الفضفاضة!

إذ تُعَدّ الشكوى من ارتفاع الأسعار، ارهاب؟ والتذمر من انعدام الخدمات، ارهاب! والحديث عن وساخة وتفاهة البرامج التلفازية والأذاعية، ارهاب! والحديث عن تفاهة الشعر والشعراء هذه الأيام، ارهاب! والرغبة باحتساء قدح بيرة في أحضان الطبيعة،

ارهاب! والجلوس مع زوجتك في متنزه عام، من دون أن تحمل الأوراق الثبوتية، أرهاب! ومقاطعة قراءة الصحف اليومية البليدة، أرهاب! وإذا ما طالبتك نفسك، وقد أطبق الجوع عليك وعلى عائلتك مخالبه السود، وأحتكمت الى الآية التي تقول: [وأمشوا في مناكبها، وكلوا من رزقه، واليه النشور..] عُدّ ذلك عملاً من أعمال الارهاب لا لشيء سوى انك لم تدفع ضريبة السفر، من دون أن تشفع لك، هذه المرة جميع الضرائب التي كنت قد سددت فواتيرها الباهظة كاملة. راضياً كنت ام مكرهاً، بما فيها فاتورات الدم، والأسر، والفقدان والعوق في حرب الثماني سنوات السخيفة، والتي تلتها!!

ولعل الأغرب، والأكثر صلافة وامتهاناً لحقوقك كمواطن (صالح!) انه اذا ما وقعت أحتكاكات عسكرية، في بلدك بسبب من جهل الساسة وغطرستهم، وخنوع العسكر، فعليك الالتحاق، فالوطن في خطر لأقرب وحدة عسكرية من المكان الذي أنت فيه، فوراً، وعاجلاً، واليوم حتماً! واذا لم تتوفر وسائط النقل، فدونك البغال أو الجمال أو قدميك، الأعذار مرفوضة.. مصير الوطن أسمى من مصير الأسرة إذا اعلنت الحرب يوم الخميس، فعليك أن تهزم العدو يوم الجمعة، وفي يوم السبت تعود مع من كتب لهم النجاة من الموت او الأسر باعجوبة، الى أرض الوطن مُسلّفناً بالجوع والجراح... مكللاً بالنصر العظيم تحف بك الرايات والقصائد والأبواق والطبول من كل صوب، وأن تلوح ضاحكاً بذراعك المقطوعة أو ساقك أو رأسك أمام كاميرات الصحافة- وبعكس هذا تدبر أمرك فقد وضعوا اسمك ورسمك، منذ يوم الأربعاء، الذي سبق خميس الحرب داخل دائرة حمراء، وقاموا بتوزيعها على فرقهم الحزبية ومنافذ الحدود مرفقة بعبارة صريحة وحاسمة: [ارهابي ومتخاذل، عالجوا الموقف حسب التعليمات..] الشيخ البدوي ذو القامة الطويلة، واللحية الشيباء المدببة، الذي لا يزال يرتدي دشداشته الشتوية الكالحة، ونحن الآن في حزيران، لانه لا يملك غيرها، ويضع قدميه، قدميّ بدوي: كبيرتين وحجريتين في بقايا حذاء من مطاط، ولم يزره أحد من أهله وذويه مذ جيء به قبل أكثر من أربعة شهور. بل علّهم لا يدرون ما حلّ به، إذ قد يكون افترسته الذئاب وهو يقطع المسافة الموحشة بين كربلاء والسعودية، ذاهباً لزيارة شقيقته التي لم يرها منذ عشرين عاماً، فالقوا القبض عليه بتهمة: (محاولة الدخول الى دولة عدوة، من دون جواز سفر..) أنه عمل ما كان معمولاً به طبعاً يوم لم يكن العراق عراقاً بعثياً، والسعودية سعودية وراثية، ولذا فالأعرابي المسكين لا يريد أن يصدق أن السلطات انما سجنته لا لأنها تكرهه، مثلما يتصور، بقدر ما تريد أن تدخله (الحضارة!) وأن عصر

البدو والبداوة قد أنتهى وان ظلت الابل تجوب المنطقة، وظلّ أهلها على سحناتهم وملابسهم وتقاليدهم التي فطروا عليها منذ آلاف السنين!

هل يعقل يا أبا شامل أنك لم تسمع، ولم ترَ كتيباً بحجم الكف، أخضر منطفئ يطلقون عليه اسم (جواز سفر)؟ أسأله، فيهز رأسه، ويردد وهو يضرب على فخذه: باطل! أبو شامل هذا الذي له صبر بعير حقاً على الجوع وعلى العطش وعلى المرض أيضاً، كلما شاهدته بوجهه المخروطي الطويل، المكسو بجلدة متهرئة مليئة بالندب والثآليل، وبصمات زمن طويل صعب مرّ وشرس، تذكرت بكائيات مظفر النواب، الذي ظل أكثر من أربعين عاماً، يهجو بها ويؤبن انسان هذه البقعة المجذومة من العالم:

يا هذا البدوي التائه في الصحراء

والممعن بالهجرات

تزوّد للقاء الربع الخالي

بقطرة ماء..

نسبة كبيرة من (عشائر طريبيل) قادمة من الجنوب، خصوصاً محافظتي المثنى والناصرية، كانوا قد عاشوا سنوات طويلة في الكويت، فتشبعوا بعادات الاقتناء التي أفسدت الخليجيين عموماً.. اقتناء العقارات والسيارات والزواج من أكثر من واحدة، أراهم هنا من مختلف الاعمار، أحياناً تجد الأب والابن معاً، يتحدثون لك عن ممتلكاتهم، التي أقاموها في العراق، بفضل ما جلبوه، او لنكن أكثر تحديداً، ما نهبوه من الكويت المنكوبة، عند مغادرتهم أياها (الى الوطن الأم!) بعدما كانت قد آوتهم من خوف وأطعمتهم من جوع، وحين تسألهم عن الجدوى من القيام بمغامرة كهذه، مغامرة الخروج من العراق من دون جوازات سفر رسمية؟ يزعمون أن لهم ديوناً بذمة البعض من الكويتيين وأنهم من عمّان سيتصلون بهم لهذا الغرض، أما عن رسم السفر، فتراهم يتأتأون: انه مبلغ كبير في مثل هذه الظروف الاستثنائية، وأن المهربين زينّوا لهم سهولة الوصول الى الأردن من دون الحاجة الى جواز سفر.

يالسذاجة العربي، ويالبخله! مشكلة هذه الشريحة من العراقيين، مثل شجرة إستنبتت في مناخ غير مناخها، ومن ثم أرى أنه ليس من فائدة، استنبات شجرة بالاكراه، ثم أنهم وكما يرى المطلعون على أحوالهم، منذ عودتهم الى العراق وهم يمارسون المضاربات في أي شيء يمكن أن يضمن لهم أرباحاً عالية، الأمر الذي جعلهم سبباً

رئيساً في اشتداد وطأة السكن على العراقيين المعدمين، في المدن التي ألقوا فيها رحالهم!

لم يقم الواحد منهم مشروعاً انتاجياً، ولم يختلطوا بالمحيطين بهم من سكنة المدن الأصليين انهم يعيشون، أشبه بالجاليات، في أحياء سكنية خاصة بهم!.

يتحدثون اللهجة الخليجية، ويرتدون أزياءهم، ويتطبعون بطابع الترفع الذي يمارسه الأغنياء في العادة أزاء أبناء جلدتهم، وقد يعاودون الذهاب الى الكويت أو أية امارة خليجية، في أول فرصة سانحة، حتى وان عملوا هناك بمهن خدمية. يتحدثون عن عودة الكثيرين منهم، عبر الأراضي السعودية، الى الامارات وعُمان وقطر للالتحاق باقارب لهم هناك..

يتحسرون وعيونهم مصوّبة الى هناك، وقلوبهم تنبض هناك، وعقولهم لاتني طائرة هناك، وأن مشاعرهم هنا في العراق مشاعر الأسرى، أو من انقطعت بهم السبل! وصدق ماركس حين قال: (المال لا وطن له)

ثمة مسألة أخريتدفع الكثير من العراقيين، الذين قرروا العمل رعاة عند بدو السعودية أو الأردن، يشاع أنهم الى جانب مرتباتهم الشهرية الجيدة ١٥٠ ١٧٠ دولاراً، يضاف الى ذلك المنام وثلاث وجبات طعام، غير أن ما يغريهم أكثر، أنهم سيقيمون علاقات جنسية مع نساء من سيشتغلون لديهم.

الكثيرون سمعتهم يتحدثون عن حصول مثل تلك العلاقات، صدقاً أو إدعاءً، وكيف جرّت على بعضهم الكثير من المشاكل خصوصاً اذا كان لدى العائلة فتيات غير متزوجات، أو أكثر من امرأة لرجل واحد، الحالة الأخيرة تكاد تكون عامة على وفق مذاهب الاسلام كافة. شاب من أهالي الناصرية سرد لي وقائع علاقة أقامها مع امرأة تجاوزت الخمسين من عمرها، بدأ الأمر يشبه المزاح الذي يحصل، في العادة بين عجوز وحفيدها، ثم تطورت اللعبة لتخرج عن مسارها، وحين انتبه الى نفسه تحت حالة من تأنيب الضمير، كانت العجوز قد أخذت من جانبها المسألة على محمل الجد، ولما صارحها بحقيقة مشاعره نحوها، أغرته بالمال، ثم صار يتهرب منها ويبيت في العراء خارج الخيمة التي اعتاد النوم بداخلها، حيث تأتيه خلسة حين ينام الجميع، ففاجأته ذات ليلة، بركت على صدره، بيد كممت فمه، وبالأخرى لوحت بخنجر لصفت حديدته على ضوء القمر!

سايرها بضع ليال، وحين اطمأنت اليه، سرق جواز سفره منها، وهرب بريشه! بعض العراقيين من أصحاب الماشية، باعوا تحت إغواء المهربين ماشيتهم بما فيها الحمير وحين ظل الحصار على أشده أتوا على أثمان حيواناتهم العزيزة المباعة، فيمموا وجوههم صوب (ابناء العمومة) الذين ألقت مفارزهم القبض عليهم، وعادت وسلمتهم الى شرطة طريبيل التي وزعتهم بدورها كل الى شرطة محافظته، ليعاد جمعهم من جديد في سجن أبي غريب أو غيره..

تجاوز عدد أفراد عشائر طريبيل عدة آلاف، كثرت من جراء ذلك الشائعات، مثلما كثرت الاصابات بالجرب والقمل والحساسية والربو وفقر الدم، أحدث الشائعات واكثرها طرافة شائعة تتحدث همساً عن أن محافظي السماوة والناصرية والنجف وكربلاء والرمادي والموصل، قد جاءوا بهم الى السجن بتهمة (٨ جوازات) المحافظون والذين هم من ضباط يتميزون بالشراسة حين رأوا باعينهم أو بواسطة تقارير مخبريهم، أن مدنهم لم يعد يظهر في شوارعها غير النساء الملتحيات المتشحات بالسواد، والصبية الذين يتشاجرون على القمامة، والعجائز المكومة كالصرر عند الأبواب حيث يُدمِنَّ مهنة الثرثرة، وأن الرجال هربوا، فرادى وجماعات بما فيهم معاقو حروبهم الخلّب، بحثاً عن العمل لدى دول الجوار..

ولأن الحاكم بطبعه، أيّ حاكم من دون عبيد رهن الاشارة يسند بكثرتهم ضعفه، لا قيمة له ولسلطته، اذ ما قيمة وظيفة محافظ على علو رنينها اذا ما طرد لوشاية ما من وظيفته فأمسى من دون شركة او شركات، من دون مزرعة أو مزارع، من دون عمارة أو عمارات، من دون سيارة أو مرآب مليء بالسيارات الحديثة، من دون عشيقة أو مجموعة عشيقات، وقد عودوه على ذلك، هذا اذا لم يسقوه كأس العصير الممزوج بالزئبق الأحمر؟

ذات مرة جلس الى جواري لصق حائط المخبز الدافئ واحد من عشائر طريبيل حزيناً على نحو لاينسى، كنت قد انتهيت من الحديث مع احد السجناء يدور حول مسألة الأخذ بالفرص السانحة التي من شأنها أن تغير حياة الانسان الى الأحسن من دون أن تسبب أذى لعباد الله، كان في الثلاثين من عمره، من أهالي مدينة السماوة تأوه كالمطعون وهو يستمع الى كلامي، ثم سألني وهو يحدق في وجهي بعينين رماديتين واسعتين يلمع الدمع في مآقيها:

"- أستاذ الفرص الضائعة هل تعود؟ "

فهمت أن لديه حكاية، ومن دون أن أجيب على سؤاله، بادرته قائلاً:

"- أسمعني فرصتك التي أضعتها؟ "

لكنه، وبطريقة ذكية قدمّ (لفرصته) حكاية طويلة مؤلمة ومؤثرة، إذ أسهب بالحديث عن الطريقة التي تم بها أسره وأعداد كبيرة من الجنود بما فيهم قائد الكتيبة من قبل القوات الأمريكية، في منطقة محاذية للحدود الكويتية/السعودية، وكيف كانوا يتضورون جوعاً قبل ان تشن قوات التحالف هجومها، وكيف التهمت النيران، بدلاً من بطونهم عشرات المخازن المطمورة تحت الارض المملوءة بالمواد الغذائية باعتبارها (مواد طوارئ)؛ وحين تم اسرهم ونقلهم الى داخل الاراضي السعودية اهتموا بفحصهم سريرياً، وادخلوهم الحمامات ورشوا اجسامهم بالمعقمات، وأعطوهم رزماً من الملابس المدنية التي لم يشاهدوا مثيلها في حياتهم السابقة وحياة آبائهم وأجدادهم، وقدموا لهم الاطعمة المسلفنة أتوا على اطباقها اللذيذة بشهية جعلت الامريكيين والسعوديين يهزون رؤوسهم اسفا وألماً؛ وكيف ان بعض الاسرى من البعثيين السذج والحمقى والموتورين أثار اضراباً عن الطعام بدعوى أن مثل هذه الاطعمة يمكن ان يدخل في إعدادها لحم الخنزير الامر الذي يتقاطع مع معتقداتهم كمسلمين، في الوقت الذي لم نر أيّ منهم أقام الصلاة او الصوم مرة واحدة طوال فترة الأسر: فما كان من المسؤولين السعوديين في المعسكر حتى بادروا من فورهم، وباقل من ساعتين حتى جاءونا بقدور الطبخ والمطابخ والأرزاق الجافة والطرية والأغنام الحيّة، وقالوا لنا: شكلوا من بينكم فريقاً للطبخ، وأطهوا طعامكم بايديكم ومثلما تحبون وتشتهون! توقف وراح يحدق في الساحة الأمامية الضيقة للقاطع الثاني، اذ يتشاجر الكثيرون حول حنفية الماء اليتيمة، والتي منذ ساعات عدة من دون ماء.

ثم واصل حديثه: "مستي!" قالها بخشوع، وبلع ريقه الجاف، فهو عطشان الى كأس ماء شأن الجميع هنا: "مستي" مجندة أمريكية بشعر قصير كالنار، وعينين زرقاوين، ووجه مثل تفاحة، وقوام مثل علامة تعجب مرسومة بالأحمر على ورقة بيضاء، كانت دائمة التسكع داخل المعسكر، مرحة ومشرقة ومن دون عقد كالتي تمتلئ بها جماجم العربيات والمسلمات على نحو خاص هزّني من الأعماق منظرها الفاتن وشخصيتها المحببة.. كتبت فيها أبياتاً جميلة من الشعر الشعبي ورحت أغنيها بحنجرتي القوَية

الطروب كلما جاءت وجلست بيننا، ترجم لها البعض أشعاري فتقربت اليّ أكثر من الجميع، وبمرور الأيام كان من الطبيعي جداً أن نحن الأثنين تسكعنا معاً داخل المعسكر، وبتشجيع منها سكرت ذات ليلة باردة في خيمتها، وعاشرتها معاشرة الأزواج.

إرتاحت لعشرتي، إذ أعجبتَها على مايبدو سمرتي الجنوبية، وفحولتي المطمورة تحت القمع والتهميش مذ أدركت سن البلوغ، وقد فجرّتها بخبرتها الانسانية العجيبة...

ذات صبح جاءت كعادتها، تناولت معنا طعام الافطار، وكان شورباء بالدجاج، ثم أخذنا كعادتنا نتجول في أرجاء المعسكر، فأسرت لي أنها مسافرة بعد اسبوع في أجازة، وأن هناك قوائم باسماء العشرات من الذين طلبوا حق اللجوء الانساني الى أمريكا، وغيرها من دول العالم، واقترحت عليّ أن لا أضيع بعاطفتي الشرقية هذه الـ: Last Shines.

كانت قد فاتحتني بالأمر من قبل، غير أنني اعتذرت، فلدي أم أرملة، وشقيقة تكبرني لازالت من دون زواج، وأخ معوّق حرب!

قالت سترسلني الى مدينة (ديترويت) حيث تعيش أسرتها، ومن هناك ستلحق بي وسترتب من جانبها كل شيء يسعدني، لكنني ظللت على موقفي الحرون!

حين جاء موعد سفرها جاءتني وعرضت علي الأمر من جديد، ومن جديد رفضت، أعترف أنني كنت قد تعلقت بها، غير أنني كنت، اجتماعياً مكسور الظهر.

وبطريقة لن أنساها أبداً صرخت بوجهي أمام مجموعة من العراقيين والأمريكيين والسعوديين:

[you Foolish] وابتعدت بخطوات واسعة وسريعة، وضاعت خلف صف من الخيام، خلف آلاف الأميال بين السعودية وامريكا، وراء مئات المدن والجبال والأنهار والغابات، ضاعت مني مستي الى الأبد!.

عدت الى العراق مع من سمحوا لهم بالعودة، أكملت الخدمة العسكرية، ثم حاولت السفر الى الأردن عن طريق التهريب، ونجحت، وفي المرة الثالثة كان نصيبي الفشل وهائنذا كما تراني أمامك!

مشكلتي الآن مضاعفة، اذ تزوجت، وزوجتي بمعية أمي وهي حامل، و"مستي، تلح

علي ذكراها هذه الأيام من دون انقطاع.. أصارحك أنني أبكي ندماً، وأحياناً أفكر بالانتحار! الجنود الذين سافروا الى أوربا عن طريق المفوضية السامية لشؤون اللاجئين، يرسلون صورهم الشخصية وكأنهم امراء، ويمدون أهلهم بالدولارات، أما أنا فلم أفد نفسي ولا عائلتي، وهذا سبب تعاستي.

حملق بوجهي وكأنه يعيد سؤاله، أثارت حكايته بالمقابل ذكرى مماثلة أنا بطلها هذه المرة كانت قد حصلت قبل عشرين عاماً، ولكي أهدّئ من حزنه العاصف، وأخفف من ندمه وأساه، بل من ندمي أنا وأساي، سردتُ على مسامعه حكايتي التي وقعت شتاء عام ١٩٧٦ في مدينة (وارشو) البولونية، بطلتها أمرأة رائعة، في الرابعة والثلاثين من عمرها أسمها (دشكا) سكنت في شقتها الصغيرة الأنيقة سبعة ايام مقابل ثلاثين زلونتي لليوم، وهو ثمن بخس مقارنة باسعار الفنادق، ومنذ الليلة الاولى تآلفنا الى بعضنا سهرنا معاً وسكرنا ورقصنا وتسكعنا، وعدنا في ليل وارشو القارص يتكئ أحدنا على كتف الآخر، نثرثر من دون أن يفهم بعضنا لغة الآخر، اذ تشدنا لغة مشتركة انسانية لا علاقة لها بالأديان والقوميات والسياسة، نكثر من الضحك باصوات عالية، وكأن وارشو ملكنا وحدنا!

حين أخبرتها بقرب عودتي الى بلدي، إكفهرّ وجهها، عرضت علي الزواج منها، الذي سأحصل من خلاله على الجنسية البولونية، لكنني مثلك إعتذرت، وأوعدتها كاذباً، من أنني سأزورها العام القادم بعد أن أحسم أموراً مالية معلقة، لم تقتنع، فاحتفظت بجواز سفري الذي أخذته من دون علمي من حافظتي، صرت حماراً فهددتها باللجوء الى الشرطة، حينها تفهمت موقفي، فرمت بجواز سفري في وجهي، وطلبت مني مغادرة الشقة على الفور، وهي تتمتم في غضب عبارات لعل من بينها العبارة التي رمتك بها (مستي) الأمريكية، وربما أقسى، لملمت حوائجي وخرجت، وقبل أن أنعطف خلف بقالية كنا نبتاع منها حاجياتنا وخمرتنا لأتركها الى الأبد، التفت الى الوراء لألقي النظرة الأخيرة على العمارة التي تضم شقتها، رأيتها تقف تحت المطر الشديد عند شرفة الشقة، أومأت لي بكلتا يديها أن أعود، لكنني كأي عربي بغل يستمرئ العذاب الموروث عن سلسلة البغال الطويلة لأجداده العبيد، واصلت طريقي الى محطة القطار!

تزوجت مرتين زواجاً تقليدياً، فلاعجب أن إنتهيا: الأول الى الفشل السريع، والثاني منذ خمسة عشر عاماً وأنا أجرجره جثة ثقيلة، اذ أنجبت على طريقة الأرانب أربعة

أطفال في أقل من عشر سنوات، لتنتهي بي الأيام، عقوبة منها لحماقاتي إلى ما أنا عليه الآن: سجيناً، يضع بقدميه نعلا مطاطا مقطوعا، يتصدق عليه البعض من السجناء الخيرين بالطعام، يهرش جلده من جراء لسعات القمل، قلقاً على أسرته التي لم تزره منذ أسبوعين، وبغداد مدينة مليئة بالآثام!

ذكريات.. صرنا مجرد ذكريات مغموسة بالدموع والحسرات والعض على القلب بدلاً من الأصابع، وأسمعه يتمتم كمن يتحدث مع نفسه: لو كنت عائداً من الأردن لأعطيت شرطة السماوة مبلغ المئة والخمسين دولاراً الذي طلبوه مقابل اطلاق سراحي، لم يكن بمقدوري الدفع لاني ذاهب الى الأردن لا عائد منه، وتابع وهو يعتصر أصابعه، ليتهم تعاملوا معنا كما طلبنا منهم اذ تعهدنا إعطاءهم كمبيالات صالحة للصرف متى شاءوا، ولم نكن نكذب والله..

وفي السرّ أهذي: العراقيون ضحايا تاريخ ينقصه الذكاء، يعميه التعصب والتحيز والطمع، يكتبه السفلة وابناء البغي وذوو الأصول الوضيعة، والا هل يعقل أن يرموا بآلاف الناس في السجون الخربة، ومن دون طعام وماء ودواء؟!

وكنا ونحن نتحدث مع أنفسنا او مع بعضنا نروّح يقظين بايدينا، هاشين أسراب الذباب المتوحش الذي يزحف فوق الوجوه، ويطير تحت القمصان، يسقط في الطعام، ويطفو على أقداح الشاي، وأحياناً يدخل في البلعوم اذا ما أكثرنا من التثاؤب من دون تحوّط، وما أكثر التثاؤب وما أقساه!

وكان المساء قد حلّ حيث تسوء الأمور كثيراً، بسبب من اشتداد الرائحة المدوّخة المنبعثة من المراحيض القريبة المفتوحة على القاعة، الطافحة بالفضلات على الدوام، مختلطة بالروائح الكريهة المتحررة من الملابس والأغطية والأجساد، بسبب من شحة الماء، وندرة مساحيق الغسيل والصابون، لذا تغدو الرائحة مثيرة للنكد والغثيان، خصوصاً اذا ما حركتها الرياح المتسربة من الكوى العالية، العارية من الزجاج والستائر، فتحوم راكدة فوق الرؤوس المصدوعة، كأنها الأبخرة التي تنطلق من مستنقع الجحيم! فأترقب قدوم عساكر الأوبئة وهي تتقدم حثيثاً رافعة راياتها السود، وقد رسمت عليها جمجمة بين عظمين متصالبين، مجتاحة ردهات هذا السجن الفاشي الرهيب....

كلام كهذا ليس من باب الشعوذة او التطيّر او حكاية تشتغل على منوال حكايات

الجن، انها حكاية الوثنية في عصر الفحشاء والانحطاط والرق، حقيقية في رسوخها، أكثر مادية من الشمس ذاتها، وأكثر حضوراً من هذه الكلمات، بديهية تماماً ذلك أن احترام شعب ما، لا يتم باستيراد الآثاث والأزياء، انه وعي حضاري ممارسة انسانية مباشرة وصريحة، سلسلة متصلة الحلقات من أعمال التقدم الى الأمام، يقودها وينفذها مجموعة رجال جاءوا عن طريق الانتخاب الحرّ، يشهد لهم تاريخهم الشخصي بالانكباب المبكر على طلب المعرفة، والاستزادة منها، شرقية وغربية معاً، مستقاة من تجارب الشعوب كافة، بيض وسمر وصفر، رجال أسوياء يختلطون بالناس من دون خوف أو ترفع أو منّة، يكثرون من التجوال الحرّ في الأحياء والطرقات من دون حراس يحملون وجوهاً تشبه وجوه أكلة لحوم البشر، ايديهم على أزندة الرشاشات، خفافاً من متاع الدنيا الثقيل، زهاد ومتصوفة في بساطتهم وشفافيتهم، وفي الأزمات المصيرية يتقدمون الركب حاسري الرؤوس، وليس من طباعهم الاختباء كالجرذان في مكاتبهم او قصورهم المكتظة بملفات التآمر والعمالة والجشع الأسود والبغايا، بعد أن اطمأنوا الى حراستها بالمدافع والمدرعات وقذائف الابادة الجماعية، التي يديمها الآلاف من المخصيين واللقطاء والرعاة والعبيد بالوراثة.

وتزداد ازمتي الروحية والنفسية معاً، فجأة يطل (محمود) بهيئته المتقشفة، أنه واحد من عشائر طريبيل، لكنه الافضل طبعاً، والاقرب الى نفسي من الجميع، أنه مشروع شاعر ساخر، يتفهم أزمتي فيسرني بالحديث عن حياته التي قرضت ثلاثة أرباعها الفأرة العسكرية، وكيف انه عاد ذات مرة الى قريته عند أطراف مدينة الموصل في اجازة بعد غياب طال أكثر من ثلاثة شهور عاشها وبقية جنود الوحدة العسكرية في جحيم)نهر جاسم) كان بحالة من الارهاق بحيث أن أمه لم تتعرف عليه أول وهلة، وحين علمت شهقت بصوت عال، رمت نفسها عليه وهي تولول لاعنة (الذين فعلوها) وتركت الخبز يحترق في التنور، فاتمم العجين نساء الجيران عند العشاء فاجأته: محمود، لقد خطبنا لك أقوى فتيات القرية، تصور أنها تحمل أكبر حزمة بين صويحباتها!"

وبسخريته التي زادت ضراوة الحرب من مشاكستها، قال: ياأمي! هذي بلدوزر، أمرأتي أريدها من الرقة بحيث تنحني تحت ثقل وردة!!

فهرعت الى أبيه وكان يستعد لاقامة الصلاة، وهرّت باكية.

"- ابنك خرب دماغه الرصاص!"

فتشبث محمود بهذه الفكرة الرائعة التي أهدتها له أمه من دون أن تدري (خرب دماغه الرصاص) وراح يديمها، وبذلك تخلص من زواج مبكر طالما حذره من مخاطره الفلاسفة والمفكرون.

ويتحدث لي عن (خمرة بعشيقه) وكيف إن فتيات الأسر المسيحية اللواتي توارثن صنعها، يعجن بقاماتهن الفارعة اكياس التمر باقدامهن البضة، بعد أن شمرّن بناطيل الكابوي الى ما فوق الركبتين، وان صديقه (نجم) كان يحرص على شراء خمرته من بيت (ابو سارة) حصراً، زاعماً إن خمرتهم المعجونة بأقدام (سارة) الشقراء لها طعم خاص بعذوبته، مستحلب من بشرة ساقيها الحليبيتين بزغبهما الخفيف الناري، وقطرات عرقها المترشح من خصرها ونهديها ووركيها المتينين!!

ونجم هذا مثلما ينقل عنه صديقه محمود، كانت أمه لا تني تحذره من)العرق) الذي لا تفارقه قنينته طوال ايام اجازته من الجبهة، وحين فشلت محاولاتها كافة، صاحت به ذات مرة محذرة، وهو منهمك بإعداد مائدته الليلية:

"- نجم يمه! لماذا لا تأخذ بكلامي، لقد قتل (العرق) اباك!!–س

فتهلل وجهه اذ القت اليه بطوق النجاة، فهب متصنعاً الغضب الشديد وراح يصيح:

"- اذن، كيف تريدين مني ان أحيا في عار من ترك قاتل أبيه حرّاً طليقاً من دون أن يقتصً منه، كما تتفق العرب؟

الثأر؟ الثأر؟ لماذا خبئتِ عني حتى الآن، مثل هذا السرّ الخطر؟ "

وهجم على قنينة العرق، فتح السداد باسنانه، وكرع منها وتلمظ وتجشأ، ولحس شفتيه بلسانه، وهز القنينة، وأخذ يتوعدها، ويطرقع بلسانه:

"- سترين ياأماه، كيف اذبحها هذه الليلة–"

وطرقع من جديد بلسانه.

فما كان من أمه إلا ولطمت خديها، ولم تعد بعدها تكلمه في الأمر:

محمود سبق وحكى لي قصته العجيبة اذ القت السلطات الاردنية عليه القبض وقت كان ضيفاً على صديقين عراقيين، اشتكاهما أردني بدعوى عدم تسديدهما اجور السكن، ومشاكل أخرى من بينها دخولهما الى الأردن من دون جواز سفر، جاهد ان

يوضح للشرطة الاردنية أنه ليس مقصوداً في الشكوى، أيده العراقيان، لكن من دون فائدة والقوا بالثلاثة معاً في دائرة جوازات طريبيل العراقية، وقد ترك خلفه، في مسكنه ملابسه وحاجياته ومبلغاً جيداً من المال لدى صاحب المخرطة التي يعمل بها، وأمعن بسرد قصة دورانه المرعب في مراكز شرطة العراق الظلامية، أذ ارسلتهم شرطة طريبيل الى مديرية شرطة الرمادي التي قامت بدورها بارسالهم الى التسفيرات المركزية في بغداد، ومن هناك تم تسفيرهم المرة الثالثة كل الى مديرية شرطة محافظته، لتقوم بدورها بمخاطبة مراكز الشرطة التابعة لها في الاقضية والنواحي، مستفسرة فيما اذا كان الموقوف (س) بتهمة (٨ جوازات) مطلوباً لديها بجريمة ما، ويتم الانتظار لحين ورود جميع الأجوبة لصالح الموقوف، حينها يعاد من جديد، بطريقة معكوسة: الى التسفيرات المركزية في بغداد، ومن ثم الى شرطة الرمادي ذات العلاقة، لتصدر بحقه الحكم الذي ترتأيه، وهو في الغالب ستة شهور، اذا كان التجاوز باتجاه الأردن، اما اذا كان باتجاه السعودية، فثلاث سنوات فاكثر، يدورون بهم أكثر من شهرين كالسبايا، من مكان الى آخر، وعلى نفقتهم الشخصية، وبقليل من الخيال نقدر حجم العذاب والشقاء والابتزاز الذي يتعرضون له من أجل تطبيق قانونٍ وضَعته أيدي حفنة من أعداء الشعب، ولذا يجب أن لا نستغرب اذا ما رأيناهم جميعاً حين يؤتى بهم الى مقرهم الأخير من كوكب المسرات، حفاة، شبه عراة، مرضى، يتضورون جوعاً، ما أن يستقر بهم المقام حتى يسردون قصصاً يشيب لهولها الرضيع، ففي غرف التوقيف الضيقة والقذرة التي مروا بها، كانوا يبيعونهم الماء، ومن ليس لديه نقودٌ، عليه أن ياكل النفايات، أو يتنازل عن فراشة وقسماً من ملابسه التي يمكن بيعها، وتجري اعتداءات جنسية على صغار السن منهم، تخجل أحط أنواع الدواب.

شرطة الحدود الأردنية صارت تصطاد العراقيين الداخلين الى أراضيها ليلاً بطريقة غير رسمية هرباً من الجوع تصطادهم بيسر وسهولة بفضل جهاز صنعته أسرائيل خصيصاً لتقويض عمليات التسلل الليلي داخل أراضيها من قبل من تطلق عليهم (الأرهابيين) الجهاز يعمل بالأشعة تحت الحمراء.

بعض المناكدين من أبناء المدن، صاروا يطلقون تسمية)الصعايده!) على عرب طريبيل، بناء على منظرهم القروي، وهم يسيرون معا جماعات، وجماعات يجلسون الى بعضهم، بسحنتهم القروية الخشنة.

•••

أطلق اليوم سراح محمود، بعد أن تأخر أكثر من أسبوعين بدعوى عدم مجيء درجة حكمه القطعية من محكمة الرمادي، وكان يمكن أن يظل قابعاً في السجن لو لم يسوّ الأمر مع مسؤول الذاتية (أبو محمد) اذ منحه خمسة آلاف دينار كنا قد جمعناها له، فترك ذهابه لديّ فراغاً كبيراً، لقد أمضينا لياليٌ عدة جالسين جنباً الى جنب، على صندوق حديد لأحد السجناء، عند فوهة القاطع الثاني، قريباً من المخبز، نشم رائحة الخبز الطازج ونعتصر معدتينا الفارغتين.

يطربني بحافظته العجيبة، المكتنزة باشعار مظفر النواب والسياب ومحمود درويش ونزار قباني، انه الموصلي الوحيد الذي تعرفت اليه بهذه الحيوية الأدبية والاجتماعية، يعشق الجنوب كواحد من ابنائه البررة، إذ أمضى خدمته العسكرية التي زادت على الست سنوات هناك، يحفظ كماً رائعاً من اشعار الأبوذية، والدارمي وشعر اسماعيل كاطع، وعريان السيد خلف وأبو سرحان وسواهم.. حبب لي كثيراً رواية)ضفاف الدم.. ضفاف الملح) لكثرة ما تحدث عنها، للروائي الموصلي الشاب (ابراهيم ناصر) الذي قتل في معارك الفاو، فقررت البحث عنها وقراءتها حالما يطلق سراحي.

إني في حيرة من أمري، مع من سأتحدث؟ وكيف سامضي ساعات فراغي الكثيرة القاتلة؟ كان خير سلوى، وأفضل رفيق محنة يمكن أن يلجأ اليه أمثالي في مثل هذا المكان اليباب من الثقافة والمثقفين، أنا المعروف بعزوفي عن الصداقات بعد أن جربت الكثير منها وما تركت لديّ غير الأشمنزاز، لو كنت التقيت محموداً في أيّ مكان من هذا العالم المجدور لتراجعت لصالحه. يحمل أفكاراً مهمة ومنسقة في أمور كثيرة خطرة، طالما ألححتُ عليه بضرورة تدوينها للآخرين أو خشية من النسيان، تجربته الجسور المثيرة وهو يجتاز الحدود السورية، وان هي انتهت الى الفشل، لكنها تستحق التدوين لأهميتها الوثائقية القصوى، اذ تكشف عن (شهامة!) اليعاريب في سوريا ازاء مواطن عراقي ضاقت عليه سبل الحياة الكريمة فقرر الذهاب اليهم، كذلك تجربته المأساوية وهو يقطع الفيافي ليلاً الى أقرب مدينة أردنية في ليلة ظلماء ممطرة وباردة وحيداً، وبطريقة غير رسمية، والتقائه مصادفة برجل أردني رائع يسميه (أبو أنجيلا) حيث قدم له مساعدات جمّة، وارتكب من أجله الكثير من المخاطر والتجاوز على القانون.

أعطاني عنوان ابو انجيلا، وعنوان رجل أردني آخر (ابو مازن) ورجاني اذا ما سنحت لي الظروف ووصلت الى الأردن أن أمر عليهما، لألمس بنفسي، كما قال شهامتهما

الانسانية، ولم يقل شهامتها العربية.

بقي أن أذكر أن محموداً هذا كان قد أخذ (كورسات) في معهد للموسيقى بالعزف على آلة الكمان وليس هنا في سجون الشوفينية كمان أو أية آلة موسيقية، اللهم الا اذا اعتبرنا قرع الحراس المتواصل، عصيهم الغليظة على أبواب الحديد نوعاً من موسيقى الجحيم، الذي تحدث عن بعض فظاعته (دانتي) في كوميديته السوداء الشهيرة! فعمد محمود وقد هزه الحنين الى الموسيقى فصنع من علبة صفيح مستطيلة من تلك التي تستخدم لتسويق زيت الذرة ربابة، ثم تحايل وصنع لها أوتاراً من جديلة فتاة أحبها- وشخص كمحمود لا يمكن إلا أن يحب- أهدتها اياه تعويذة لتجاوز الحدود، لكن جهاز (آريت) الكاشف الأسرائيلي الصنع، أبطل مفعول التعويذة، على قداستها، على اعتبار أن العلم فوق كل شيء، بما في ذلك الحب! وخلسة أخذ يعزف لنا مقاطع لا تنسى لأغاني عبد الحليم، ونجاة الصغيرة، وأم كلثوم، ومحمد عبد الوهاب.

حين ودعته شدّ على يديّ، تبسم قائلاً:

شدّ على حيلك، شدة وتزول، سأفتقدك كثيراً، سأحتسي كأسي الأول باسمك، وكنْ على ثقة من أننا سنلتقي، مرة أخرى قد لا نفترق بعدها، أن (ضباب كأنه الشمس)[١] سأحملها معي الى جانب هذه الربابة، أينما ذهبت، شأنها شأن أشعار مظفر النواب إذ ذهبت بالتجريب، على مستوى اللغة والمضمون الى أقصى مديات الابداع.

ها قد مرّ على آخر مرة رأيته فيها وهو يغادر بوابة السجن الكالحة أكثر من عام، من دون أن نلتقي، غير أن هاجساً يطمئنني، كلما تذكرته: أننا سنلتقي يوماً ما، قَرُب هذا اليوم أم بَعُدَ!!

---

(١) مجموعة قصصية للكاتب، صدرت عام ١٩٩٤/ بغداد

الفصل الحادي عشر

الساحر !Aspen

أجلسُ عند زاويتي، وفي الوقت الذي ترتفع فيه المهاذل الكلامية من أفواه الذين يجلسون أو يقفون قريباً مني، أحاول أن أمسك بنتف من أفكاري التي تتقافز داخل جمجمتي مثل اسراب من الجراد!

ولأن المستحيل ظل يلازمني، ولأني لا استطيع أخفاء مشاعري كما يفعل الكثيرون، ولأن الرطوبة كثيفة، والمكان مكتظاً باللغط العاتي الذي لا ينقطع، وإن غياب الخدمات الوقائية والصحية المطلق قد أسقط الكثيرين طريحي الفراش، بعد اصابتهم بالأمراض التي يسببها البرد والرطوبة وسوء التغذية.. مرات أجرب فكرة طريفة للفيلسوف (كانت) كان يطبقها على نفسه لوقاية صحته الضعيفة أثناء شتاء ألمانيا القارس، المتمثلة بالامتناع عن الكلام، والتنفس عن طريق الأنف فقط، وقد جاءتني بنتائج مُرضية حقاً، لهذا كله وغيره أغادر مكاني مضطراً الى الساحة العارية على الرغم من شدة البرد هناك، لكن حتى في هذا المكان الملعون لا أستطيع تجميع شتات مشاعري، فالسجناء سبقوني وجاءوا ليملأوا المكان بالمئات، يسبقهم لغطهم وروائحهم الكريهة..

أُقلب وجهي المصفوع صوب الرب، لكن الرب بعيد، بعيد جداً، مثلما هو شأنه منذ بدء الخليقة! فأتسلى بالتدخين، ومراقبة ما يدور على الدكة الأسمنتية التي تمتد بمحاذاة جدار الغرف الخمس المتلاصقة من القاطع الثاني، حيث يقف مجاميع من المصابين بالجرب، وهم يطلون أجسادهم القردية العارية تماماً بالمراهم.. عالمٌ فذٌ وخيالي، خارق في انحطاطه وهوانه ومذلته، وكثافته اللزجة.. مجتمع فطري متدهور، يتعرض للتهديم شيئاً فشيئاً قبل أن تلطمه كف الاضمحلال، عالم محيّر أجوف مشحون بالمصائب والمحن ولا من مُجير.. عالم جديد من دون هدف ومن دون تاريخ.. شاذ وغريب ومبهم، يتكور مثل كرة على بعضه في سياق من البهيمية، الأمر الذي يجعلني أتنبأ له منذ الآن: أنه من دون مستقبل!

على امتداد الدكة الأسمنتية ينطلق كابوس آخر، انه رائحة الكبريت الخانقة، ممزوجة بالبرافين، كدواء للجرب، والدمامل والجروح في آنٍ فاصرخ: أيّ جيل من النفايات هذا

ياالهي!؟ لعل أسوء ما في الأمر بالنسبة لي، ليس هنا من شخص واحد استطيع أن آتمنه على أفكاري! وحيث أن جميع الفلاسفة، مثاليون وماديون، وبين بين يجمعون على أن الانسان الذي يتمتع بفضول فكري، هو الأكثر بين الآخرين شعوراً بالألم والحرمان بانواعهما المتعددة، لتميزه بكثرة رغباته وتنوعها، ولأني أزعم الوحيد بين هذه المجاميع الصخّابة الذي أشعر أن فضولي الفكري، الذي طبعني بطابعه منذ الطفولة، يخفق باستمرار في عقلي وقلبي وضميري معاً، تراني أكثرهم حاجة الى الانعزال، والابتعاد عن بلادتهم، والخلو الى نفسي أحاورها، أو الى كتاب ما، او الى كتابة أفكاري، مثلما أرى نفسي أيضاً أقلهم استخداماً للمرافق العامة، وأقلهم مغادرة سريري، وابخلهم في الكلام، وأقلهم ميلاً للطعام، إذ أكتفي في معظم الأيام بوجبة واحدة، أتناولها عند الحادية عشرة صباحاً، بل أستطيع القول: أنني الأقل في كل شيء، بما في ذلك النوم طبعاً!. عدتُ الى فراشي الرطب هرباً من منظر المصابين بالجرب إذ أشعرتني رائحة الكبريت بالغثيان تمددتُ ودثرتُ هيكلي المسحوق بالبطانيات، ومع هذا فقد أنضغطت على بعضي كالحلزون ليس بسبب البرد حسب، بقدر ما هو متأتٍ من الشعور بالفقدان الفاجع، والاغتراب الروحي المريع، ولا إنتمائيتي المطلقة لكل ما يدور حولي، لذا بدا الأمر كأنني امضيت حياتي كلها، وأنا على هذه الشاكلة الميؤوس منها!.

ولأن السكاكين ممنوعة، فاني أسمع بعضهم يحتال على التعليمات، فيشحذ مقابض ملاعق الطعام على الاسمنت الصُلب، للاستخدامات الشخصية، أو للمشاجرات! فجأة، أطل من بوابة الجملون الضيقة مسؤول الادارة والذاتية (أبو محمد) وهو يسوي كعادته دائماً خصلات بائسة من بقايا شعره على صلعته الكبيرة، أطل بوجهه الذي كلما رأيته أتذكر سحنة (بعلزبول) رئيس الشياطين في مسرحية (آلام المسيح) فقفزت من مكاني ناثراً أغطيتي، محاولاً إقناعه بترويج معاملة اعادة محاكمتي، بعد أن تقدم المشتكي، بناءً على توضيح القاضي يومها، بطلب خطي للمحكمة يتضمن تنازله عن الدعوى التي أقامها ضدي، لم يأبه لتضرعاتي، اذ كان داخلاً مع أحد السجناء بمحاورة يغلب عليها طابع الهمس والاشارات، ورأيت السجين يمنحه أربع علب سجاير من نوع (أسبين) فيدسها بسرعة داخل جيوب قمصلته العسكرية العريضة، وحالما أنهى حديثه مع السجين، كررت تضرعاتي، لاسيما وأنه سبق ووعدني، أكثر من مرة بمساعدتي، لكن بعد أن ينتهي من (البريد المستعجل) على حد قوله، والبريد المستعجل لن ينتهي في السجون، أنه كالفطريات في انشطار متواصل! لأن أصحابه قد دفعوا في سخاء

(الأتعاب؟) غير أنه هذه المرة أخذ يلوّح بيديه القصيرتين في ضيق واضح، ويسوي نتفاً مضحكة من شعره على صلعته، ويردد وهو يغادر القاعة بالسرعة التي دخل اليها:

-يا أخوان! الشكوى لغير الله، مذلة!..

وأيقنتُ لحظتها، أن ما من حوار مجدٍ مع هذا (البعلزبول) سواءٌ من جانبي او من جانب مئات السجناء الذين تتكوم معاملاتهم في اهمال، غير أن أبصق في وجهه الشيطاني، وأضربه بنعالي المقطوع وبكل مايمكن أن يقع بيدي من صحون وقدور واحذية وهي كثيرة. مبعثرة على امتداد القاعة,أضربه الى أن يغمى عليه، أو تذهب روحه النجسة الى الجحيم!. لكن، لو أني تجرأت ونفذت ما أحلم به مع هذا المرتشي، سينهال عليّ جميع أفراد القوّة الاجرائية، بكلبيتهم المعروفة، بل حتى العشرات من خدمهم ومجساتهم من السجناء الأردياء، بكل ما يملكونه من هراوات غليظة، ومواسير مطاطية محشوة بالحصى الصغير، والأسلاك، وان)ناصر) الذي له هيئة ضفدعة تتهيأ للقفز على حشرة، ناصر المدرب جيداً على العنف، من كسر الأذرعِ والاضلاع، المزيف الخرتيت، الذي تنز نظراته غروراً واستهتاراً، ناصر الابن الحقيقي لزمنه، زمن الأردياء والجوف والامعّات، سيمزقني إرباً، كما يمزق ضبع غزالة، فهو إن لم يقتلني على الفور بضربة واحدة من ضرباته التي يطلقون عليها تسمية (رفسة حصان!) فسأموت بالاقصاد في بحر شهر، في المحجر الرهيب، لحين موعد محاكمتي الجديدة هذه المرة بتهمة (الاعتداء على موظف في جهاز الأمن أثناء الواجب)!!

فلم يكن في وسعي، والحال هذه غير أن أعطي ظهري لابي محمد، وأردد سراً: يا كلب! لو أنني وضعت بين يديك القذرتين، كما يفعل العشرات من السجناء علبة أو أكثر من سجاير الأسبين، لأنزلت من فورك شكواي من الله الى ذمتك مباشرة!.

قد يسأل البعض سؤالاً وجيهاً مثل: ما علاقة ادارة السجن بسجاير الأسبين حصراً؟

الجواب ببساطة: هم ومن باب محاربة الرشوة، والفساد الاداري، فالرشوة في مفهومهم تخص أخذ النقود حصراً، فابتكروا طريقة شيطانية، هي أن (يكَرِم) السجين المسؤول بعلب من سجاير الأسبين، يأخذها المسؤول على اعتبارها هدية ليس إلا، لكن واقع الأمر أن المسؤول هذا، مهما كان حجمه الوظيفي، ولقبه العشائري، سيعطيها بدوره الى أحد السجناء العاملين بمعيتهم، ليبيعها الى أصحاب البسطيات ويأتيه بثمنها نقداً!!

لماذا الأسبين حصراً؟ الجواب: انه الأغلى ثمناً!

كمية علب الأسبين يجب أن تتناسب، طرداً مع حجم وجسامة القضية المراد كسبها، فالذي يروم العمل في واحدة من دوائر السجن، عليه أن يدفع عدداً غير ذاك الذي يجب أن يدفعه الراغب بالدخول الى المستشفى، مدة اسبوع للمعالجة من مرض ما، وهو غير كمية الراغب بفتح بسطية ليعيش وعائلته من مورده، وغير عدد الطامع بالحصول على سرير منام خاص به، وهلمّ جرا!

أما الذي يطمح بارساله الى مستشفى حكومي، قريباً من منطقة سكناه، بدعوى معالجته من مرض يتعذر علاجه على ضوء امكانات مستشفى السجن المتواضعة، ليلتقي بأهله، بل ليبيت أكثر من ليلة مع زوجته أو عشيقته، فالمسألة هنا لا يمكن أن يحسمها الأسبين على وجاهته، القضية هذه المرة يجب أن تدار وفق المثل العربي الشائع: على قدر أهل العزم، تأتي العزائم!! والمقصود بأهل العزم هنا، سعادة الأمبراطور، الدولار!! وهناك من هو قادر، بطبيعة الحال على الدفع، وبسخاء!!.

ولأننا اليوم في العراق نعيش من دون بقية شعوب العالم، في العصر الذي تحدثت عنه الحكايات البدائية القديمة القائلة: يأتي زمان تعتقد فيه الناس، كل الناس، أغنياء أم فقراء لشدّة تعلقها بالنقود، إذ أمست مدننا تأكل الله من جشع، إن على أسرة المتوفى اذا ما أرادت لروحه، شريرة كانت أم طيبة، أن تعبر من دون مشاق الى الشاطئ الآخر من الكون الأبدي، أن تضع داخل فمه، كمية كافية من النقود!!.

الفصل الثاني عشر

ثلاثة أصفار!

في الساعتين اللتين يسمحون لنا بها مغادرة القاعة/ المقبرة الى الساحة العامة، ليس لديّ من تسلية، غير أن أتكئ على أقرب حائط، أرقب من خلف سياج الأسلاك الشائكة جموع طائر الزاغ، الرشيقة النشطة. وكذلك مجاميع الغربان السُحم، وهي تحلق واطئةً في الفضاء القريب من دون توقف، وقد آلف بعضها السجناء الذين يرمون لها فتات الصمون، وكنتُ حين يامروننا بالعودة الى المقبرة، أشعر بعيني تدمعان، فامسح أدمعي باكمام بجامتي، محاذراً أن يراني أحدُهم، فاكون هزأة طيلة ذلك اليوم! وقد ألقب بـ محمد البكاء، او محمد الزرزور، أو محمد غراب! ومن يدري فقد تتفتق قرائحهم الشيطانية الجاهزة للمناكدات، عن لقب أكثر شناعة!

أسمع من مذياع السجن صوتاً ينطلق كأعذب ما تكون الأصوات وأسلسها مردداً:" طلعت يا محلى نورها، شمس الشموسة!" وأشعر أن الصوت يجاهد بنبرته الحرير، أن يثلم ولو جزءاً يسيراً من جدران المكان الصخرية العالية، وبواباته الحديد الثقيلة، ويفتح بصيصا من ضوء في ممراته المظلمة، وألمح بعض السجناء يهزون رؤوسهم أستحساناً، وتشرق في عيونهم الخابية، بقايا جذوة متقدة، وتتردد في حنايا أفئدتهم المكبلة بالخطايا، أُمنية بسيطة وساذجة مثل: [اللّهم أجعله يوماً ميسوراً!] هي في كل الأحوال لا يستطيعون تكملتها، وأن هي من كلام، فصراخ الحراس، وأصوات قرع هراواتهم التي تصفر فوق الرؤوس الراكضة نحو أقنانها من جديد، فترتد نظراً لصلابة المشهد وفظاظته، المحاولات الفيروزية على أعقابها مذعورة وقد تحوّل (حليب الجاموسه) الى شلالات من البصاق، و (شمس الشموسه) الى دوامات من الشتائم البذيئة، وتوقفت قريباً مني أصوات العصي والمواسير وهي تضرب من دون رحمة أجساد السجناء المحصورين في الممر الضيّق، مفرقة اياهم الى أماكنهم التي كرهوها، بالقوّة بعد أن فشلت من اعادتهم بالشتائم واللعنات! فانتشلت نفسي من وهدة أحلامها التي ما عادت سوى ذكريات بعيدة، مدوّنة على اسطوانة عتيقة مشروخة، أو شريط كاسيت تقطع في أكثر من مكان لكثرة أستعماله واندفعت وسط مجموعة هائجة من

السجناء، والتصقت باقرب حائط، متجنباً جهد الامكان العصي والهراوات من أن تطال رأسي المشروخ بطبعه الذي غطيته بكتاب: "أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث" وكان أحد السجناء قد أبدى احتجاجاً واضحاً لهذه المعاملة اللاإنسانية، على حد قوله، فما كان من أقرب الحراس اليه إلا وانقض عليه كالذئب، وسرعان ما تحول الاحتجاج الى توسلٍ مؤلم يفطر القلب كان السجّان وهو يضرب السجين يبدو مخلوقاً من كوكب آخر، رجلاً آلياً بامتياز حتى اذا ما انتهى من (تأدية واجبه!) إذ أدبٌ المشاغب بجدارة سجان من كوكب البعث! جلس يحتسي الشاي الذي قدمه له أحد السجناء، يدخن ويبتسم راضياً تماماً من نفسه ومن حياته ومن عالمه، ودخل مع شلة من الحراس المراهقين وراحوا يضحكون ويهذرون، وكأن ما فعلوه منذ لحظات قد حصل من قبل أشخاص لم يسبق أن تعرفوا عليهم!

وكان المضروب قد جرجر جثمانه على أطرافه الأربعة، وتكوم منهوك القوى، ذليلاً دامياً ومهاناً على فراشه، وقد دثره بعض السجناء بالأغطية، وظل ثلاثة أيام ممدداً، يئن ويتأوه وينتحب، وحين يغفو يترك فمه مفتوحاً على سعته، فيظن الجميع، وأنا في مقدمتهم أنه هالك لا محالة، هذا المساء، أو صباح الغد كأبعد تقدير! فيزداد، تبعاً لذلك شعوري بتفاهة الأشياء، بما في ذلك الحياة والبشر، ويتعمق يقيني أكثر بمقولة الفيلسوف (سارتر) [الآخرون هم الجحيم..] ولعل شكسبير، هو الآخر كان يقصد أولئك النفر من السجناء الذين كفروا بثرواتهم ومناصبهم الرسمية الرفيعة، وعشيقاتهم، بدافع من الغرور والحماقة والطيش الصبياني، وجاءوا الى هنا باقدامهم متسربلين بالعار حيث يقول: [وإذا اتفق أن تحوّل أحدٌ الى حمار، وترك مالهُ وراحته

ليرضي عناده ومكابرته،

فانه هنا سيرى،

بهاليل حمقى مثله!]

أُدوّن هذا الكلام وأنا أرى شيخ عشيرة...؟ الملياردير الذي لم يكف عن حماقاته، على الرغم من ثروته الكبيرة التي جمعها عن طريق أعمال التهريب، يقول أحد معارفه، أن باستطاعته أن يهرب لك أيَ من زوجاته الأربع، شرط أن يكون الأمر سراً، والدفع بالدولار!! أراه يتكلم مع المهندس (ك) مدير عام سابق في احدى مؤسسات وزارة الصناعة والتصنيع العسكري، الذي هو الآخر خلق بروح مجبولة على الطمع،لم تشبع

على الرغم من امتلاكه أكثر من بيت، ومزرعة وسيارة، اذ ظل يواصل سرقة المخازن التي بامرته، وألمح المقاول (س) يتثاءب ويهرش فروة رأسه، يقال انه كان يفوز بعطاءات القيام بمشاريع كبيرة لصالح الدولة، دون غيره من المقاولين، عن طريق الرشاوى التي تصل الى ٣٠ من مجمل الأرباح!...

عبارة (أندريه جيد) الشهيرة: [سعيدٌ ذلك الذي لا يتعلق بشيء مما هو على الأرض..] الذي أثارني رنينها أيما اثارة وأنا شاب بعد، وأقنعتني بحكمتها وأنا في الخمسين، لها الفضل الكبير في توازني نفسياً، الذي لم يكن بالمستطاع بلوغه من دون النظر الى (الأشياء الأرضية) المتعلق منها بالمال حصراً، والوظيفة، نظرة تتسم بالترفع، واذا ما طالبتني يوماً نفسي البشرية، في جانبها الأمار بالسوء الخروج على تلك النظرة المترفعة السامية، يأساً أو مكابرة، على اعتبار أن الحياة في صميمها ليست سوى مجموعة المتع الجسدية والروحية التي حصدها،أو يامل ان يحصدها قبل مماته، فيتحتم عليّ ساعتها أن أستخدم وعييَ الذي يقول بتساوي الكائنات والأشياء كافة، بوجودها وعدمها، ككابح من شأنه العمل على خلاصي من حبائل الواقع الملونة، التي تخفق بحيوتها المنحطة حيثما أدرت وجهي، ولذا كم أشعر بالراحة اليوم، على فقري، من أنني لم أفعل الذي فعله جميع من كنت بمعيتهم، يوم أرسلتنا، عنوّة وزارة الصحة الى الكويت بعد غزوها– وفق مفهوم القتلة واللصوص: إشراك الجميع بالجريمة– اذ تم شحن الكثير من الأجهزة والآثاث والمواد الأخرى الثمينة، وتم سرقة أفضلها قبل أن تصل الى بغداد، وبعد أن وصلت أيضاً!!...

ما أن يمضي الشهر الأول على السجين، حتى يبدأ تدريجياً نسيان الحياة خارج السجن، وهي مسألة تمثل عزاءً لا أجمل منه ولا أرحم، ثم تتحول الأحداث المهمة، او الجميلة في حياته الى مجرد ذكريات باهتة، يلوكها مع خبزه اليابس على مسامع الآخرين، الذين مضغوا بدورهم ذكرياتهم لبعضهم، ثم طمرها الأهمال، فالنسيان بدوافع من اللاجدوى! يبدأ النسيان بالامكنة، فوسائط النقل، فالبنايات، ثم الوجوه، بدءاً بوجوه زملاء المهنة، فالجيران، فالأصدقاء الذين تنكروا له في محنته اذ ما عاد أحد منهم يزوره! ويتطور الامر الى تضبب، ولا أقول نسيان وجوه النساء اللواتي تعرّف اليهن فما مضى، ولعل الأفظع ما في المسألة برمتها حين يطال النسيان وجوه أفراد أسرته، التي ما عادت تزوره لضيق ما في اليد إلا على فترات متباعدة! غير أن صور

الأطفال تظل وحدها تقطع مساحة الذاكرة، عرضاً وطولاً، وهي تركض من دون هوادة، لن يمسسها التفتت أبداً أبداً، وهذا ما يعذب السجين الأب، على وجه الخصوص، أكثر من أي شيء آخر! ثمة سجين ملقى في أحدى الزوايا، مريض مهمل، لقد أمضى قرابة سبع سنوات ألحظُ كلما مررت به كلمة (جنان) مرسومة بحروف كبيرة على ذراعه اليمنى الذابلة فاتساءل محزوناً: تُرى من هي جنان هذه؟ وأين هي الآن، ولم لم تزره وهو في محنته الشرسة هذه؟ أهي ذكرى من هوس الشباب، نساها منذ زمن بعيد، وإن وجودها ليس سوى وشم، بمثابة ندبة لجرح اندمل؟!.

ثمة سجناء مستعدون، اذا ما طلب منهم ذلك القيام بمهام سجان، وقد يفوق اخلاصهم في التنفيذ، اخلاص السجان نفسه!!..

ورأيت سجيناً جاءوا به الى السجن قبل أسابيع بتهمة (غسل العار!) بعد أن كان أمضى عشر سنوات من حياته سجيناً على ذمة السياسة، لقد فقد ايمانه بمبادئه الأولى، التي في مقدمتها محبته لشعبه، والنضال المستميت من أجل سعادته وتقدمه أنه يقذف شعبه، بمناسبة ومن دون مناسبة، ويطلق عليه تسمية (مراحيض متنقلة!).

قبل قليل جاءوا (بقزان الشاي) كان مرّاً وبارداً، بحيث تركه الجميع في غضب صريح، حين نقلوا الخبر على نحو غير صحيح الى الضابط الخافر الذي هبّ وقد استشاط غضباً، وفسرَ المسألة على أنها دعوة للاضراب عن الطعام، وحين وقف على السبب نفسه، ضحك وأمر بسكبه في المجرى!!.

ألمح المعوّق (سلمان) وهو يفك من حول خصره الحزام الرابط لفخذه الاصطناعية، بعد أن يحررها من ساق البنطلون يحملها بكلتا يديه، وردية تلصف بلون فخذه الحقيقية، ويضعها برفق الى جانبه، انه يقوم بهذه العملية مرات عدة في اليوم حتى أنك لتشعر أن لا سلوة لديه غير تحرره منها، والعودة الى ربطها الى جذاذة فخذه! في أيامه الأولى حين يسأله أحدهم عن جريمته، يقول:

"٨ جوازات" بمعنى تجاوز حدود! فيسألونه في عجب – كيف تغامر وترتكب حماقة كهذه وأنت بهذه الساق؟"

"- الجوع، ياالخوان، الجوع ظالم!"

كان يتحدث باللغة الفصحى، وكانوا يعيدون عليه السؤال تلو الآخر، لكي يضحكوا منه لغوياً، وحين تبين أمرهم، انزوى صامتاً، منشغلاً بساقه!!.

(ر) يغازل صراحة معشوقه عند عربة بائع الشاي، يهمس بأذنه، ويدس في فمه شرائح البرتقال! (ج) غسال الملابس، بصوت جهوري يعرض خدماته، بتخفيضات تنافسية مع أمثاله، تصل الى ٥٠ من أجل الحصول على ثمن قرص من نوع (الأيراني!) (ن) يتنقل داخل الجملون وبيده بكرة خيوط، تلعب أصابعه في الهواء بالخيط مبيناً مهارته كحفاف محترف، ينادي عليه أحدهم فغداً موعد الزيارة الأسبوعية!

حاج (ز) في السبعين من عمره، كل صباح يخرج مكحلة جلدية صغيرة أنيقة من حقيبته التي يربطها الى صدره، يمرر مرودها الخشبي على عادة جداتنا في الجنوب على حافات أجفانه، ثم يشذب لحيته البيضاء، يتمرأى، ويدندن بطور حويزاوي! يقال أن وزير الزراعة والري الأسبق الذي جاءوا به الى السجن منذ سنتين بتهم شتى، لعل أهمها الأستيلاء على مساحات واسعة من الأراضي الجيدة وتسجيلها باسماء أبنائه وبناته وزوجاته، على عادة قادة مملكة البعث، لم يعد يأخذ بنصائح المقربين منه من السجناء فيما يتعلق بالاعتناء بصحته وهو البطين، فقد نحل عوده على نحو خطر، انه يمضي نهاره، وشطراً طويلاً من الليل وهو موزع بين قراءة القرآن، والبكاء، واقامة الصلاة- الفاشست متى ما تم عزلهم عن الناس، عاد إليهم عقلهم!- الأمر الذي يدفع بعض السجناء يتساءلون بخبث وشماتة: [ترى، ما نوع الذنوب، وعدد الخطايا التي ورّط بها نفسه، سيادة الوزير السابق!؟]

أحياناً أسأل نفسي سؤالاً كهذا: لماذ لا أتوقف عن رصد الآخرين، والكف عن تدوين بعض من أفعالهم الحمقاء؟ هل ان ما أقوم به يعد من باب الفضول، أم الأسف لما يفعلونه بأنفسهم، أم السخرية منهم أم لا هذا ولا ذاك، بقدر ما هو تسلية!؟ ويكون الجواب: ما معنى أسئلة من هذا النوع لرجل مثلي صار قاموسه، بفعل العدوى يكتظ بمفردات شنيعة؟ وأحاول أن أتخذ من حكمة هندية قديمة مفادها: أنت أعمى عندما تريد أن تكون كذلك، وأصم حين ترغب بذلك! ولأن أستثمار حكمة بليغة كهذه، يراد من يتمثلها، الايمان أولاً بها إيماناً راسخاً، ولأنني لم أعد، منذ سنوات طوال، أؤمن بايّ شيء، ولا أتمنى، صباح مساء غير حرق العالم، من القطب الى القطب، لذا يصاحبني الفشل كلما حاولت الاستعانة بها على قلقي وأوجاعي، ولو مدة محددة! فاترك المسألة، وأعود أستمع الى (أوميد) الكردي وهو يقص حكايته لشخص يجلس الى جواري بلغة عربية مفككة، لكنني أفهم منها:

أنه وصديق له سافرا من السليمانية الى ايران، طلباً للعمل وقد مرّا بمدينة (قم) حيث ضريح الخميني، وقد حوّلوه هُناك الى رمز على غرار الأئمة عندنا في العراق: صلاة متواصلة، وبكاء مُرّ، وتقبيل الحجر، كل ذلك تقرباً الى الله، ثم نثر النقود عربوناً لحل المشاكل! مع فارق واحد، أنهم قد نصبوا، على ما يبدو كاميرات تلفازية سرّية لمراقبة سلوك الزائرين، حتى اذا ما خرجا من الضريح، ألقوا القبض عليه، دون رفيقه بتهمة أنه لم يقم كصديقه، بتقبيل الشبابيك الذهبية المحيطة بقبر الامام!

ولصغر سنه – كان يومها في السابعة عشرة من عمره – وبكائه المرعوب، وتوسلاته، وتقبيل (كلشان) من ألقى عليه القبض، أطلقوا سراحه وتوعدوه شراً، إن هو تلكأ بمغادرة المدينة على الفور!.

فشعرت أنه اذا ما قضت الأقدار المباركة وخرجتُ حياً من هنا، فلن اكون أكثر من شيخ مُسن، يجلس الى الموقد يحدق في برامج التلفاز على سخافتها! وعبس قلبي في رعب، وأنا أفكر بتمثيل هذا الظلم الفادح الذي اخترته لحياتي، اذ أيعقل أن ينصرم شبابي على هذا النحو، وتمضي من دون رجعة حفنة السنوات التي تلي حصة الشباب ثم تهجم الشيخوخة بقسوتها المهينة، فالموت، كل ذلك من دون هدف محدد، بل أيَّ هدف احمق هذا الذي يلعب على عواطف الانسان كالفأر؟

وتواً أستشعر أن (الطريق الذهبي!) المحصلة النهائية للجهود السامية ضائع وسط زحمة ملايين الدروب المرّسمة على خرائط ممزقة، جليلهُا وسخيفها ،وماعدا ذلك ليس سوى اصفار ثلاثة...

عرس الدم

في مساء كئيب كثر فيه نعيب الغربان السحم، وانتشرت رائحة فطائس آتية من خلف الاسوار، وارتفع على نحو غير مسبوق رغاء ابقار كأنها تقاد الى المسلخ، وفيما كانت جموع السجناء كعادتها تتحرك بين مهموم وأخر اسقمه طول انتظار فما عاد يرتجى افضل مما هو فيه، انفجرت مثل لغم شائعة مفادها : جاءوا بثلاث سيارات حمل كبيرة، احواضها مملوءة برجال منهكين، ايديهم مربوطة خلف ظهورهم، وعلى عيونهم عصابات سود عريضة، كوموهم مثل الانقاض على ساحة قسم الاحكام الخاصة، ثم ساقوهم بالهراوات الى الزنزانات الضيّقة القذرة وشبه المظلمة، حيث بانتظارهم امراض الجرب والاكزما وضعف البصر ودويبات الليل الفاتكة من قمل وبرغوث

وكالوسة .

وكالعادة في اقسام السجن الاربعة المنفصلة عن بعضها، ما أن تقع حادثة مهمة ما، حتى تبدأ التفاصيل تترى على نحو مثير وغامض، كأن هناك اشباحا اخف من الدخان تتطوع للقيام بالمهمة على خطورتها!

اذ قبل ان تبدأ عملية التعداد المسائي لذلك المساء الخريفي الارمد كانت الصورة قد اكتملت على النحو الاتي : انهم من كرد ديالى وكركوك، وتهمتهم من العيار الثقيل المهلك: القيام باعمال مسلحة .

وما ان انتهى التعداد وانفرطت الجموع حتى جاء من يحمل اطارا قبيحا للصورة : لقد بدأوا بارسالهم على دفعات الى قسم الاحكام الثقيلة - حيث توجد المقصلة- وان الجلاد)ابو وداد) ومساعديه منهمكون على ما يبدو بتأثيث المكان، والاعداد لمأدبة عرس دم جديد ، ابطاله هذه المرة من كرد العراق .

وكانت شائعة مماثلة قد اثير تداولها في حزيران الماضي، ابطالها سبعة وعشرون من الشيوعيين والبعثيين وحزب الدعوة، وقيل ايضا ان رجل الدين الذي استدعوه كالعادة ليلقنهم الشهادة، ملأ جميع المحكومين وجهه القبيح بالبصاق.

الفصل الثالث عشر

جريمة داخل المحكمة!!

من مكاني المنزوي في القاعة (٥ من قسم الافراج الشرطي، الذي يتوسط المسافة بين قسمي الأحكام القصيرة الى الشمال، والأحكام الطويلة الى الجنوب حين يكون هبوب الريح من الشمال اسمع قوائم طويلة بالأسماء الثلاثية والرباعية مذاعة وهي تنادي على عشرات السجناء لأغراض متنوعة، القائم بالمهمة سجين طبعاً، وكي يؤدي مهمته بما يرضي السلطات الأمنية في السجن، عليه أن يستعمل كامل حنجرته، وكلما نادى على أكثر من واحد، من دون أن يتنفس، كان ذلك أفضل، أما حين يكون هبوب الهواء من الجنوب.اسمع مذيع قسم الاحكام الطويلة وهو يقوم بالغرض ذاته والحماس ذاته، مما يجعل الجو العام أشبه بقيام الساعة! وكنتُ قد عرفت عن الجنوبيين، كواحد من أبنائهم عادة أصطحابهم أبناءهم منذ الصغر ليتعلموا مهنة الآباء والاجداد في الزراعة وصيد الأسماك، ونصب الكمائن للطيور، الأمر الذي أفزعني أن أجد هنا، كيف أن عتاة المهربين قد جنوا على أولادهم بالسجن وهم في سن مبكرة، وذلك لاصطحابهم إياهم ليتعلموا، على نحو مبكر مهنة الأجداد والآباء على خطورتها، ويورثوهم أيضاً أخلاق المهنة التي يمكن تلمسها بجلاء حيث غموض الشخصية وميلها الى الطمع والاثراء السريع يتلبس أولئك الفتيان المساكين، ليس هذا حسب بل شاهدت ما هو أفظع، كيف أن طلقات الشرطة وهي تتعقبهم قد شوّهت أذرع هؤلاء الصبية وسيقانهم، مثلما كانت قد شوّهت مناطق عدة من أجسام آبائهم!.

وكان مراقب القاعة، وهو محكوم بتهمة القتل، قد إنتخبته الدائرة لشراسته ليكون سجاناً متمرساً بالنيابة، يدعو جمعاً من ذوي الهوايات العجيبة الكف عن الثرثرة والانصراف الى النوم، اذ كانوا في مثل هذا الوقت من كل ليلة يلتمون في حلقات مع أشباههم، يتبادلون المشورة والخبرة عن هواياتهم بحماسٍ منقطع النظير الى ما بعد منتصف الليل، ونحن لا نملك إلا ان نستمع وقد فتحنا أفواهنا عجباً واندهاشاً حيث يتحدث (الدّياكة) عن أنواع الديكة وأصولها وطرق تربيتها، وتقاليد معاركها والمراهنات بمبالغ خيالية، اذ قالوا ذات ليلة أن أحدهم جاء برفقة خاله من بغداد الى الديوانية لتفقد ابنته التي تلفنت لهم أنها تعاني عسر في الولادة، في الطريق

استوقفتهم جمهرة للدياكة في الصوب الصغير من المدينة، ولأن خاله من المعروف عنهم بممارسة هذا النوع من المراهنات في منطقة الفضل، فقد خسر كل ما معه من نقود، وتحت حمأة المراهنات خسر سيارته نوع فالفو/ صالون التي جاء بها، وعاد الى بغداد بسيارة للنقل العام نوع (ريم) قديمة ومن دون ان يرى إبنته التي جاء لنجدتها!!

ثم (المطيّرجية) وعالم الحمام المتشعب هو الآخر، وجمهرة رافعي الأثقال من الرباعين والمصارعين والملاكمين وهواة كمال الأجسام، كل جمهرة تتباهى بنشاطها، وأهميته الترفيهية في الحياة العامة، كل ذلك يدور بحماس السياسي البارع، والفنان المبدع وقناعتهما في أهمية ما يمارسونه من أجل حياة أفضل للناس!

السجناء من مُربي الحمام جاء لهم أهلهم بطيورهم، فأقاموا لها أقناناً تحت أسرتهم ما أن تنتهي عملية التعداد في الصباح الباكر حتى ينصرفوا الى اطلاقها في الفضاء والتلويح لها من دون تعب أو ملل، ومراقبتها بامزجة فريدة في بلادتها، أنهم شديدوا الحرص عليها، بل أجزم أنهم قبل أن يؤتى بهم الى السجن كانوا يحيطونها بالرعاية والاهتمام أكثر مما يحيطون أسرهم!

لقد جعلتني عودة طائر الحمام الداجن الى سجنه بمحض ارادته أمقته، فهو الوحيد من بين طيور الأرض الذي لا يستمرئ العيش إلا سجيناً، ومن ثم لا أدري كيف اتخذ منه (بيكاسو) شعاراً للسلام؟ أهو سلام شيوعيّو العراق الذين أوصلتهم تحالفاتهم المشينة مع من أعدموا قادتهم، ومزقوا رفاقهم بالرصاص، أو هرسهم تحت عجلات السيارات المسرعة، أو أذابتهم في أحواض حامض النتريك (التيزاب) الى ما هم عليه اليوم!؟

عند المساء تتواطأ مجاميع هذا الطائر التعيس في حماس، الغريب في الأمر أن الأنثى هي البادئة بالتحرش، اذ تدفع منقارها بقوّة ليتعاشق مع منقار الذكر، يعقب ذلك مباشرة قيام الذكر بوطئها، واذا ما فشل في مسعاه، تعود الأنثى مجدداً لتأخذ زمام المبادرة في الاثارة، وبطريقة أشد الحاحاً من الأولى، واذا ما فشل الذكر مرتين متتاليتين، قامت هي بوطئه! وحين يحدث ذلك ينفجر المتفرجون بالضحك والتعليقات الماجنة!

أثناء عملية الأغواء والمواطأة، يكون الصمت والترقب قد شمل الجميع وشلّ من حركاتهم، ملتذين للمشهد، وقد يعمد بعضهم، بطريقة لا ارادية في معظم الأحوال الى لمس عضوه التناسلي، وقد تفلت من أحدهم حسرة مسموعة، وفي كل الأحوال تكون

علامات الهياج الجنسي واضحة على وجوه الجميع وردود أفعالهم العصبية وأن كل واحد منهم، من دون شك او استثناء، راح يحث ذاكرته منقباً عن (حمامته!) البعيدة!!

•••

كنتُ راغباً في النوم بعد أن عزّ علي الانتحار أو الجنون، أنهم المرة الثانية يخلفون وعدهم بالمجيء لاصطحابي لاعادة المحاكمة، وذلك بعد أن قدم المدعي طلباً بالتنازل عن الدعوى التي أقامها ضدي، من جراء تنازلي له عن سيارتي الخاصة، التي قالت زوجتي أنهم جاءوا شغلوها وقادوها تحت سمع وبصر أطفالي، الذين كانوا يبكون لشراسة الموقف، غير أن الضجة الصماء التي يحدثها السجناء على مختلف أعمارهم وتحصيلهم الدراسي وانتماءاتهم السياسية والاجتماعية والدينية، فضلاً عن تنوّع جرائمهم، وذلك بسبب إنشدادهم المقرف الى التلفاز، اذ تجري مباراة بكرة القدم بين منتخبي العراق والسعودية، في تصفيات ما يسمى بكأس آسيا، هذه الضجة البليدة تفسدعليَّ أمنيتي في أن أنام، لقد نسوا تماماً أنهم سجناء مذلّون مهانون، معظمهم من دون عشاء، وأخذوا يتصرفون شأنهم في مثل هذه المسألة، شأن الآلاف الذين كنت أراهم يحتشدون في المقاهي والحوانيت وعلى الارصفة، وقد أخذتهم سَورة هائلة، حالة عصاب مخيفة وهم يتابعون نفراً وضعوا أمخاخهم، أمخاخ العصافير في أحذيتهم! نسوا أوضاعهم المزرية هنا، وأوضاع أسرهم المقلقة هناك، نسوها بفعل قابليتهم التاريخية العجيبة على النسيان، تلك الحالة المحيرة، التي يبدو أن الله منّ بها عليهم من دون باقي البشر، اذ لو قيّض لهم وتذكّروا، مرة واحدة، ما حلّ بهم بشراً ومدناً وثروات طيوال أربعين عاماً سودا متصلة، على أيدي زمر فاجرة طامعة بخيرات بلدهم، يقضها تاريخ وطنهم العظيم من مسلمين وغير مسلمين، عرب وغير عرب، عراقيين وغير عراقيين، لو توقفوا، مرة واحدة ملياً عند ذلك، لحوّلهم شعورهم بالعار الى رماد أو حجر! عموماً، هذه الحالة المزرية ليست وقفاً على العراقيين، أنها تشمل (الكتلة العمياء) حسب توصيف علماء الاجتماع، في شعوب العالم كافة!! كانت زوجتي قد توسلت لدى موظفة البريد الخارجي في محكمة البياع، فاستطاعت أن تحصل على كتاب رسمي يوصي باستدعائي لاعادة المحاكمة، جلبته يوم الأحد، يوم المواجهة العامة، راجعت ادارة السجن يوم الأثنين، فاوعدوني بارساله الى قسم المتابعة، صادف أن يوم الأربعاء عطلة رسمية، وان يوم الخميس يوماً شبه عطلة في دوائر

العراق كافة، فما بالك بادارة سجن؟ غير أنني لم أيأس وزدت من الحاحي، فاكدوا لي أنني سأرسل يوم السبت، وهو يوم المرافعة، وطلبوا مني أن أهيّئ نفسي لذلك. وفعلت المصادفة فعلها اذ جاء أحد العاملين في قسم المتابعة وهو من دائرة أمن السجون، منحته علبتي سجاير (أسبين) كمقدمة ووعدته بان أجزل له العطاء اذا ما جاء وأصطحبني الى المحكمة.. أوعدني خيراً، وجاء يوم السبت المرتجى وكان يوماً شديد البرد، انتظرت بزييٌ الاحتفالي وسط نظرات الحسد من بعض السجناء، ودعاء بعضهم باطلاق سراحي، مجيء موظف المتابعة من دون جدوى، فاتصلت ادارة السجن بقسم المتابعة، فأكد الأخيرعدم وصول أوراقي اليهم! على الرغم من أن المسافة بين الاثنين، لا تتعدى المئة متر!!.

واخيراً اكتشفنا وكان ذلك بمثابة لطمة قاسية بالنسبة لي: أن مسؤولة البريد التي كانت ساعتها تلوب للحصول على اجازة للقاء عشيقها- من يدري-؟ لم ترسل الكتاب كما وعدت بل نسته مطموراً تحت كومة من الكتب الرسمية تخص سجناء لا حول لهم ولا قوّة، نسته في سلة البريد غير المستعجل!

وكان عليَ والحال هذه أما أن أشنق نفسي او أرضيبما وعدتني به ادارة السجن من أنها ستحصل لي على موعد جديد من المحكمة، في زمن لا يتعدى الأسبوعين.. الأسبوعان كما يفهمها السجين: عامين أو قرنين من الزمان! وكأي شرقي محاصر منكسر مهزوم ومسجون في آن، رحتُ أثرثر للآخرين بما وعدوني به، وكان أغلب من أثرثر لهم يتركونني وهم يلوّحون بوجهي المصفوع ضاحكين من (طيبة قلبي!) ونشطت زوجتي من جديد بعد أن أخبرتها بما انتهى اليه الكتاب الذي جلبته من المحكمة، فجلبت كتاباً جديداً بعد مشاق لا حصر لها، ونشطت أنا بدوري، لدرجة أنني بعت واحدة من البطانيتين على الرغم من حاجتي القصوى لها كيف لا ونحن في فصل الشتاء وحولت ثمنها الى علب سجائر أسبين، واخذت أوزعها بسخاء غريب على طبيعتي، على كل من أتوسم فيه المساعدة!

جاء هذه المرة شخصان من قسم المتابعة، بعد أن وضعا الاصفاد حول معصمَي، اصطحباني مع ثلاثة سجناء آخرين، عند الشارع العام أخذا من كل واحد منا ألف دينار، أجرة سيارة التاكسي التي ستنقلنا الى المحكمة، علماً ان أجرة السيارة كانت ثمانمائة دينار فقط، في الطريق طلب احدهما من السائق أن يتوقف عند كشك يبيع

السجائر،وامرا أحدنا وكان يبدو عليه ميسور الحال بشراء سجاير لهما من النوع المفضل لديهم جميعاً (أسبين الساحر!) فدفع السجين مسروراً مبلغ ستمائة وخمسين ديناراً ثمناً لعلبة واحدة.

كان يوماً مشمساً ورائعاً، هل كان في حقيقته كذلك، أم أن فرحتي بالخروج المؤقت من الجحيم هي التي زيّنت لي النهار كما أراه في بهائه؟

ارى من نافذة السيارة التي تنطلق بنا مسرعة على الطريق السريع المزارع تنتشر على جانبه الشرقي، أنها مزارع المسؤولين، مدنيين وعسكريين، اذ المساحات الشاسعة من الاراضي المغطاة بالعشب والأشجار المثمرة، وشتى أنواع الخضراوات، ترعى فيها قطعان الماشية السمينة، ويقوم فلاحون مستأجرون على رعايتها!

يبدو من الواضح أن المناضلين اليعارب القومجية الذين ثاروا ليحرروا الفلاحين والعمال من علاقات الانتاج الاقطاعية، اليوم وبعد أن قضوا والى الأبد على (العملاء واذناب الاستعمار وخونة الشعب) حلوا هم أنفسهم محلهم، وبطريقة أكثر جشعاً وصلفاً ووضاعة!يالها من نكتة صفراء، أليس كذلك!؟

ثمة رغبة مجنونة تتلبسني، تدعوني الى أن أقفز من السيارة، وقد وضعت الخوارق بيديَ على غرار أفلام الخيال العلمي رشاشاً كالذي يستعمله (رامبو) الأمريكي في افلام الانتقام، احرق بنيرانه الخرافية العراق من الفاو صعوداً الى زاخو، ولسوف أفعل ذلك، من دون أن ترتخي عزيمتي حتى لو شاهدت فوّهته تحرق بيتي، فبلد كالعراق يجب ان يحَرق، ويؤتى بأقوام غير هذه الأقوام غير المتجانسة، دينياً وقومياً، إذ طالما عذّبني خنوعهم واستسلامهم، فضلاً عن سلبيتهم وانتهازيتهم وجبنهم المشين ازاء سلطة فاجرة وغاشمة ومتغطرسة،تاريخها سلسلة طويلة من الاباطيل والشرور والاثام والحنقبازيات المهلكة!!.

دخلنا الى المحكمة وكانت كما تركتها آخرمرة تركس في القذارة والفوضى وشحة الضوء والرطوبة والبرد، انها زريبة بامتياز وليست داراً للعدالة كما تقول اللافتة المتهرئة على الواجهة الكالحة، والعلم الممزق على السارية.. استقبلني المدعي ومحاميه الأصلع وأبلغاني في حبور أنهما قد سويا الأمر مع القاضي:]ذهبنا الى زيارته في بيته،وتم كل شيء..[على حد زعمهما.

وقفتُ في الرواق أدخن والقلق يتناهبني، وكان أحد المرافقين قد ذهب باوراقنا الى

قلم المحكمة، فجأة خرج القاضي مهتاجاً ومن فوري بصقت السجارة خلفي، لكنه كان قد مسكني بالجرم المشهود- بلغة المحاكم- فتسمّر امامي وقد إحتقن وجهه اللحيم وعوى:

تدخن! وفي رمضان! وداخل المحكمة؟ يالك من مستهتر!!..

وتركني أعرق بخجلي على الرغم من شدة البرد، وفهمت ان ورقة الحظ المرتجاة، قد أحرقتُها، بفضل رغبة سخيفة اسمها التدخين، على الرغم من ضرورتها بالنسبة لي في تلك اللحظات الدقيقة.. رحت، بعد فوات الأوان أأنب نفسي في قسوّة، العن يوم ميلادي ويوم ميلاد هذا العالم المقام على أفكار واجتهادات لا يمكن أن تصدر ألا عن أشخاص أبدل الله قلوبهم بحصاةٍ! المدعي ومحاميه أخذا يهونان الأمر:

"- لا عليك، أنت لا تعرف كم هو انسان طيّب! " قال المحامي

"- لكن، قلبي يحدثني أنني مقبل على كارثة! "

"- لا عليك، فقط قلّ ياالله وستنفرج الأمور! " قال المحامي بلهجة حزينة صادقة. ورحت أهذي مع نفسي: كيف فاتني أن أعلم أننا في شهر رمضان، هذا الشهر الذي حوّله أعداء الأسلام الى كابوس مرعب يطلّ على المسلمين كل عام ليشل حركتهم من دون بقية شعوب العالم!

عموماً، ومثلما نمّ لي قلبي العارف بطباع ضباع البشر فقد (حزّمني) بلغة السجن والسجناء (الانسان الطيب!) بسنة كاملة، بدلاً من الشهور التسعة مدة محكوميتي الأولى! وبهذا فقد أصابني في الصميم المثل الشعبي القائل:]جاء يطببُها، فعماها!![في العودة سلبانا أربعة آلاف أخرى، وكان السجين الموسور، جزاه الله خيراً قد تبرع بها، اذ خفضت محكوميته من عشر سنوات الى ثلاث، فركبه فرح مستحيل اذ ظل يقبل أحد المرافقين ويعده بباقي المبلغ حالما يصل الى البيت، ويرجوه أن يسعى لاطلاق سراحه هذا اليوم، فما زال الوقت مبكراً، انها الواحدة بعد الظهر.

في الطريق أوقف المرافقان السيارة قرب مطعم، وهبط احدهما وبرفقته السجين السعيد، الذي رايته يتصل هاتفياً، انه يتلفن الى أهله من دون شك، وكان يضحك ويرقص ويلوحً بيده الحرّة كمن يطير، حين عادا، علمت أنه قد أمضى من أصل محكوميته أكثر من أربع سنوات، بمعنى أنه يطلب الحكومة أكثر من سنة سجن، وأنه تبرع بها من اجل أن يثبت انه (مواطن صالح) بل وسيقبل ادارة السجن، بما فيها

الكلاب والقطط، ويشكرهم، ويتمنى لهم المزيد من الصحة والعافية والتوفيق في مهمتهم الوطنية! وقطع بقية الطريق وهو يثرثر فرحاً: لولا هذا الوردة/ مشيراً الى أحد الحارسين، الذي يبدو هو الآخر مسروراً، لولاه لتعفنت في السجن، ومن يدري فقد افطس مثلما فعلها شريكي في الدعوى على الرغم من بنيته المتينة!

يضحك ويغني ويهز رقبته ويصفق فقد حرر الحارسان معصميه من القيد..

ز ياجماعة! أهلنا قالوا الدراهم مراهم.. وقالوا ادهن السير يلين.. وقالوا اللقمة اليابسة ما تنبلع.. والله يا جماعة صحيح!! "

قال له احد السجناء: ""ابو علاء، خذ بنصيحتي، حالما تخرج ان شاء الله، اشتر لعائلتك شقة، قبل أن تصرف بقية المبلغ.."

حينها فهمت أن الرجل لم يكن ميسور الحال كما توهمت، كل مافي الامر، قد باع بيته!! حين دخلت الى القاعة المشؤومة هبّ الجميع بوجهي: صادقين ومنافقين ومتطفلين على حد سواء، ولكي أقطع سيل الأسئلة، وأهمد في فراشي بردانٍ وجائعاً ومهزوماً قلتُ لهم: اتركوني أنني تعبان، لقد رفع حكمي الى سنة كاملة، والسلام!!" غير أنهم لا يريدون أن يتركوني وشاني!

" أنه يمزح!" قال أحدهم ضاحكاً

وصاح بهم آخر:

"- ياجماعة! دعوا الرجل يرتاح إلا ترونه كيف يرتعش!؟ "

وعقب ثالث:

"- كيف تحكم تسعة أشهر من دون صلح وتنازل، حتى اذا حصل الصلح والتنازل، يرُفع حكمك الى سنة!؟ "

"- أنا نفسي لا أدري، المدعي ومحاميه لا يدريان، ولعل الله أيضاً لا يدري، فقط الذي يدري هو (الانسان الطيب!) قاضي الجنح في محكمة البياع، السيد محمد رضا محمود!!"

واطبقت عيني الذاويتين على مشهد: شخص قلق، معصماه في الاصفاد، وفي فمه سجارة، وقاض هائج ينبح:

" تدخن! وفي رمضان! وداخل المحكمة! يالك من مستهتر!!"

الفصل الرابع عشر

قسوة الذاكرة!

كم أشعر أن تأليف كتاب مادته مئات من هذه الوريقات التي أدون عليها أفكاري، سيكون صعباً ومرهقاً، لقد وددت دائماً أن أشرع بالتأليف مباشرة لكن ما يحول دون ذلك معرفتي من أن الفورة الابداعية تحتاج الى خلوة مع النفس، ومساحة واسعة من الحرّية، وكأس في بعض الأحيان، فأين لي بهذا وذاك وأنا محاط على مدار الساعة بهذه المجاميع الصخابة الطافية مثل قطع فلين على تيارات من المشاجرات والفضول والابتذال والتدين الكاذب؟

في هذه اللحظة مثلاً أسمع (أبا حسن) وهو رجل في الخمسين من عمره يعنف بقوة شاباً في مثل عمر ابنه، ويؤاخذه بانه يوم كان في مثل سنه، كان شغله الشاغل التحصيل الدراسي مساءً، وفي الصباح العمل في أحد أفران الصمون لاعالة أبويه المقعدين. الشاب يرد عليه بما لا يخلو من الحكمة، اذ يقول له ما معناه: اذا كانت قلة التجربة بالنسبة لنا نحن الشباب هي السبب الرئيس وراء مجيئنا الى هنا، فما هو عذركم أنتم يا من باعمار أجدادنا وجداتنا؟ يصمت أبو حسن ويغادر القاعة مستاءً. لا أزال أعاني من مشكلة صحية رتبها لي أحدهم بدافع من المزاح الثقيل، أيّ مزاح حقير هذا الذي كاد يصيبني، على ما أنا عليه من بلوى، بالشلل النصفي!؟.

اذ دفع المدعو (أبو آيات) وهو في الأربعين من عمره، بدين وسفيه بامتياز، من أهالي البصرة متهم بالاستيلاء على شركة لحسين كامل، كانت تقوم بتهريب الخمور الى الكويت عن طريق سفن صيد الأسماك المزورة، حتى اذا ما انتهى ابن كامل تلك النهاية المعروفة للجميع، والتي أثلجت من دون شك قلوب الشرفاء من العراقيين وغير العراقيين، بغض النظر عن دوافع مقتله او الذين قتلوه، إستولى على الشركة وراح يديرها لحسابه الخاص.

بعد عمليات الجرد لممتلكات حسين كامل من شركات ومزارع ومخازن وسيارات وعقارات وعاهرات وسجون أيضاً، إكتشفوا شركة تهريب الخمور هذه، فطالبوه بدفع مبلغ ثلاثة أرباع المليار، ولانه كان قد بذرها بدوره على لهوه وفجوره، جاءوا به الى

السجن، لقد دفع المدعو (أبو آيات) يلاحظ أسماء بنات المجرمين، كنوع من التحايل الاجتماعي المبطن؟ دفع سجيناً آخر يماثله في السفاهة والشرور فوضع من دون علمي كمية من مادتي الملح والليمون دوزي، في عجينة الخبز التي أعددتها.. وكان يعلم أن لديّ بوادر الاصابة بارتفاع ضغط الدم.

كان خبزاً ساخناً ولذيذاً، الذي أعده خباز القاطع، لذا لم أشعر بطعم الملوحة او الحموضة وأنا ألتهم رغيفين من الأرغفة الستة، ويبدو أن كلاً من المادتين تفعل فعلها المعاكس بطعم الأخرى!

بعد أقل من ساعة شعرتُ أن الأرض تتأرجح تحت قدمي، لبقية الحكاية تفاصيلها الطويلة، المهم أنها انتهت على خير!

أنا حين أذكر هذه الحادثة أنما لأبين، كيف يمكن أن يحوّل الكثير من السجناء، بدوافع شتى حياة الآخرين الى جحيم، خصوصاً أولئك الذين يأبون لأنفسهم حياة القطعان، وعليه فعليك أن تجعل من حصانك حماراً، تطلقه مع بقية البغال في المتاهة إذا أردت أن تمر أيامك هنا بسلام!!

...

من دون رغبة مني تسحبني الذاكرة الملعونة الى الوراء، هي دائماً تفعل ذلك معي من دون رحمة، أيعني هذا أنني رجل أصبح يعيش على الماضي، بعدما نفضت يديّ تماماً من أيّ أمل في الحاضر، وكذلك من القادم من الأيام؟

في كل مرة أكركر في داخلي شامتاً، من ذاكرتي الخرفة، على اعتبار أن هذه الأحداث والمشاهد والمواقف، أشخاص وأمكنة وأزمنة، لا تعود لي، إنها لشخص آخر محظوظ، كان قد حكاها لي ذات مرة أثناء سفرة أو في حانة أو في حلم ثم مات! بل ربما أنني قرأتها في واحد من مئات الكتب المتنوعة التي لا أكف عن إلتهامها حزيناً كنتُ أم مسروراً!

ما اسم هذا الكتاب، ومن هو مؤلفه؟ لا أدري!

اذ هل من المعقول أنني بلحمي الشاحب الهزيل، وعظمي المرضوض اللذين يؤلمانني الآن لأيما حركة، كنت قد عشت مثل تلك الحياة الباذخة؟

شهور عديدة على سطح باخرة تديم حفر الممر المائي في شط العرب، لتدخل بيسر

وسهولة البواخر العملاقة القادمة من مختلف مدن العالم، محملة بشتى البضائع والحاجيات الى الموانئ العراقية والايرانية التي تقع على ضفتي الشط العريض الساحر، والذي سيكون السبب المعلن وليس المستتر طبعاً لنشوب حرب دموية بين الحكومتين، أكلت بقراتها السمان، كما يقول المثل مجازاً، الأخضر واليابس، أكثر من ثماني سنوات متصلة!

أجلس على مقعد من القماش للراحة. الظلام شامل. أُحدّق بالقمر والنجوم المتلئلئة، وأضوية الفنارات ترمش باللونين الأحمر والبرتقالي، راسمة للبواخر القادمة أو المغادرة خطوط الملاحة الآمنة!.

شلة من صغار الموظفين تلعب كرة الطائرة، أواخر الستينيات في ساحة الدار المخصصة لموظفيّ ميناء الفاو العزاب من دون هموم السياسة والأدب والزواج في العالم الثالث، عند المساء نستحم على عجل، نحلق ذقوننا وشواربنا الخفيفة، نرتدي ملابسنا- بدلة افرنجية من ثلاث قطع، من قماش انجليزي او فرنسي كان قد خاطها لنا (شالجي الباكستاني) قماشاً وفصالا بـ ١٢ دينار فقط، ندفعها على أقساط، بمعدل دينار ونصف شهرياً! ربطة عنق زاهية، وقميصاً أنيقاً، نسرح شعرنا الذي تركناه عمد دون قص على طريقة الخنافس الانجلين، فبارت مهنة الحلاقة، نتعطر (بالكلامور) الفرنسي المثير، ونكون قد فرُشنا أسناننا جيداً بمعاجين أوربية عاطرة، إذ قد نلتقي الحبيبات اللاتي ينتظرن مهتاجات وقد حلّ الظلام عند الأبواب المواربة، فنتبادل بلمحة بصر: الرسائل المعطرة والهدايا والقبلات الخاطفة، ثم نواصل المشوار بمرح الشباب وحيويته: يااااه!! حقاً يا للفجيعة المروعة التي أطبقت على العراقيين من دون شعوب الأرض، صبيحة اليوم السابع عشر المشؤوم من تموز عام ١٩٦٨! هناك في نادي شركة نفط البصرة، أو نادي الميناء، نمضي وقتاً ممتعاً، وحين يحين موعد عرض فيلم تلك الليلة المجاني، نكون قد توزعنا في القاعات المؤثثة العديدة مع أقراننا من الموظفين الشباب الآخرين، نلعب المنضدة، أو البليارد، او نعبث بمفاتيح جهاز البيانو الفخم، او نقلب الصحف والمجلات المحلية والعربية والأجنبية العديدة نعيد كتاباً كنا قد استعرناه من أمينة المكتبة التي كنا نتسابق لجلب انتباهها، ونأخذ آخر، في الأدب أو الفلسفة أو التاريخ أو الفنون!!

كانت وسائل التسلية الراقية والترفيه المتحضر التي جلبها (المستعمرون!!) تملأ

قاعات أندية مؤسسات الدولة، حيث أندثرت تماماً إثر مجيء الرعاة (أبطال الثورات الوطنية القومجية التحررية التقدمية العظيمة الخالدة العملاقة..) الى آخر الهراء!.

كل خميس من كل اسبوع أعود الى البصرة على الرغم من رداءة الطريق ووعورته من أجل أن ألتقي بمجموعة من شباب البصرة الرائعين، الذين يشتعلون فرط احساسهم العميق بأهمية الأدب والفن في الحياة، أذكر منهم: ودود حميد، أياد صادق، مجيد جاسم العلي، جليل المياح، جميل الشبيبي، جاسم العايف، كريم كاصد، توفيق حميد، كاظم الاحمدي، محمد خضير، كاظم الحجاج، مجيد الموسوي، مهدي محمد علي، مصطفى عبد الله، كاظم الصبر، أحمد أمين، عبد الصمد حسن، محمود عبد الوهاب، بنيان صالح، جليل صبري العطية، فاضل خضير، شاكر حمد، ألياس ألماس محمد، ضياء جندو، محمود حمد، محمد الرديني، ستار جبوري وريسان جاسم. صباح الجمعة تكتظ بنا مقهى (أبي مضر) الصغيرة القريبة من جسر العشّار، عند فم سوق الهنود، عند الظهر ينتقل بعضنا الى مطعم (علي بابا) عند شارع الوطني: بيرة، اسطوانات للفس برسلي، داليدا، وجاز أرمسترونغ.. وحين يجيء الليل نهبط السلم الحجري العريض المغطى ببساط أرجواني، تاركين قاعة "علي بابا" ذات المقاعد الوثيرة المبطنة بجلد لين أخضر منطفئ، تضج بحواراتنا في الأدب والفن والسياسة، ودخان سجايرنا الذي يطفو عليه عطر تبغ الغليون نوع (دشمان فلاي) الهولندي الذي كنت أدمن تدخينه. نعبر الشارع، نخترق البوابة الزجاجية العريضة لحانة (الأخضر) تسبقنا ضحكاتنا وتعليقاتنا الساخرة، نستقر هناك لنمضي السهرة، حيث يشدو عبد الحليم حافظ، رائعته (قارئة الفنجان) او أم كلثوم (فات المعاد) أو محمد عبد الوهاب (الجندول) أو نجاة الصغير (ساكن أصادي) نطرق حافات الكؤوس المترعة هذه المرة (بالعرق المستكي) الفاخر، وأطباق مزّة متنوعة يملأ بها النادل الموائد على اتساعها، أما العشاء فيكون عادةً: ضلوع مشوّية لخراف صغيرة!!

لتلعن شياطين الأرض وملائكة السماء معا كل ثانية أولئك الذين يروجون، أزلام الشر والعبيد بالوراثة لدعوى ملفّقة بائسة ومكشوفة نواياها الشريرة مفادها: ان العراقيين كانوا قبل صيف ١٩٦٨ الاسود المشؤوم والملعون الى الابد، مجرد زمر من الضالين، حفاة عراة، وجياع!!

أواسط السبعينيات، وكان قد صلب عودنا أخذت وعدد من أدباء البصرة القطار

الصاعد الى بغداد، لم تعطني الدائرة اجازة اعتيادية والحجة نفسها: عدم وجود من يقوم مقامي! وكأني المسؤول عن ذلك وليس وزارة الصحة، فمنحت اجازة لنفسي، وكانت المناسبة تستحق من جانبي المغامرة، قلت [طز للبيروقراطية] وحملت حقيبتي (طز!) هذه المفردة كان بعضنا، وأنا من بينهم يستعملها بكثرة ضد كل ما يثير السخط والاشمئزاز والاحتقار، أعتقد أننا أخذناها عن سسارتر" حيث جاءت أول مرة على لسان بطله (ماتيو) في ثلاثيته الشهيرة (دروب الحرّية) الشاب المعاصر الملتحم مع وجوده بحميمية وجسارة واندفاع، على أعتبار أن الانسان هو الذي يصنع مصيره ولا شيء آخر!

في بغداد حديقة اتحاد الأدباء على اتساعها لا تستوعب الجمهور– أكثر من نصفه من النساء!– الذي جاء لحضور الأمسية الشعرية المهمة، التي أحياها شعراء البصرة من شيوعيين وبعثيين، أبلى فيها الشيوعيون بلاءً منقطع النظير ظلت تردد صداه الصحافة الثقافية أسابيع عدة، مما اضطر القيمون على الثقافة في بغداد، وهم يرون هشاشة وتواضع شعرائهم البعثيين الى الاتصال بمدير دار الثقافة الجماهيرية في البصرة موبخين، فردّ عليهم الرجل وهو الشاعر محمد راضي جعفر، بصراحته المعروفة: هذه بضاعتنا يا رفاق، فأين العجب!؟.

مضت الليلة من دون حساسيات من أيّ نوع، فقد عُرف عن الأدباء الشيوعيين والبعثيين والقوميين في العراق قدرتهم الفذة على تجاوز المماحكات الأيديولوجية، والسعي الحثيث والجاد لتجاوز بعضهم عبر ساحة الخطاب الابداعي المشرعة للمنجز الأصيل، عكس الساسة المؤدلجين الذين يصافحون بعضهم في اليد اليمنى، وفي اليسرى يخبئون الخنجر– خصوصاً البعثيين والقوميين كما يذكر التاريخ! ثم ان الامسية اقيمت في وقتٍ كانت فيه(الجبهة الوطنية!) تعيش ايامها الذهبية!! – لكن، أحقاً كان لما سميّ بالجبهة الوطنية، أياماً ذهبية؟! نترك الجواب على سؤال خطر وتاريخي كهذا الى (حنابطاطو) وكتابة العظيم)الطبقات الاجتماعية والسياسة في العراق) فهو كما أعتقد، ويذهب كذلك كل من تمكن من قراءته، باجزائه الثلاثة – الكتاب ممنوع تداوله في العراق) يُعد الأفضل والأصدق والأشمل، مادة وأسلوباً، بين كل من كتبوا على كثرتهم في هذا الموضوع الشائك والمتداخل والمعقد والخطر!.

لا أدري لماذا شعرتُ بالنفور من بغداد، منذ زيارتي الأولى لها عام ١٩٥٩؟

أيكره أدباء العالم مثلي مدنهم المركزية، حيث تتمركز الثروات والوظائف العليا بايدي القلة من صانعي القرار السياسي الذين وصلوا الى ما وصلوا اليه، عبر سلسلة من المؤامرات القذرة، والتواطؤات والعمالة، فلا عجب اذا ما شوهد السياسيون والمحتالون وكبار العسكر والتجار واللصوص والأدباء والمتسولون والفنانون والبغايا والسماسرة والنشالون ورجال السلك الدبلوماسي والاقطاعيون شوهدوا وهم يسيرون في شارع واحد، بألفة مشتركة!!

أم أن هذا النفور جاء كنوع من الشعور بالمرارة، دفيناً لن يزول، لحادثة لن انساها: في عام ١٩٥٩ جئت اول مرة الى بغداد لاستحصال شهادة الجنسية، شاهدت في ظهيرة ايلولية ساخنة، الزعيم عبدالكريم قاسم، يقف بمحياه الوضاء، على طاق مدخل وزارة الدفاع، يخطب بالحشود الهادرة التي ضاقت عليها ساحة الميدان على اتساعها، فقد تعرّض لمحاولة اغتيال على ايدي حفنة من المأجورين لسفارة مصر، حيث وصفهم:

زنعاج للاجانب هم ولكن على ابناء جلدتهم اسود"

كان عمري ستة عشرة عاما لا ادري ما الذي دفعني، انا القروي الخائف من منظر الجسور والمباني العالية والسيارات الحمر الكبيرة ذات الطابقين، نعم، لاما الذي حفزني على شراء صحيفة (اتحاد الشعب) دون سواها؟ أهو عنوانها المرسوم بالاحمر المتوهج، أم ان نداءً خفي هتف، فاستجاب له عقلي، عقلي الذي سيجد في القادم من السنوات، في الفكر العلماني اجوبته، من دون لبس أو عواطف بائسة أو هرطقات، على مسلسل اسئلته الكبيرة المحيِّرة؟

حملت الصحيفة واخذت اتسكع مزهوا امام محلات بيع الالبسة، عند مكان مديرية التقاعد العامة الان، فجأة مسكني شخص له وجه حمار من ياقة قميصي جرجرني وشتمني ورفع يده ليصفعني، فتدخل احد المارة وابعده عني، ورأيته يمزق الصحيفة ويسحقها بحذاءه، هرعت الى محطة القطار وانا اتلفت خلفي مرعوبا، وعدت الى الناصرية!

لقد التبس علي الامر، اكثر من سنة، كنت خلالها دائم التساؤل مع نفسي: ترى ماالذي عملته ببراءة او من دون براءة، حتى يفعل بي، وجه الحمار ذاك ما فعله؟

انا لم اسرق احدا، ولم اتحرش بامرأة من تلك اللواتي يملأن، من مختلف الاعمار

الاسواق، شبه عاريات، وشعر رؤوسهن المحلول يتطاير في الهواء، لم اتبوّل على الحيطان مثلما يفعل الكثير منهم، ولم اغادر مطعما الا ودفعت ثمن ما قدم لي من طعام..؟

كلما هممت بطرح المسألة على الاهل او الجيران، اتراجع خشية ان يتهمونني بالمبالغة، وان هذا ما كان ليحصل لو انني لم اقترف عملا منكرا أخفيه عنهم، أو انني اتعمد الاساءة، لسبب ما، حين أظهر سكنة المدن وكأنهم قطعان من خنازير الاهوار، وان مدنهم خشنة قذرة وخانسة، تتكوم النفايات عند ابواب البيوت الموصدة على الدوام في حين ان اكواخنا من دون ابواب من أي نوع، مشرعة ليل نهار امام الريح والغرباء؟

أوووه! ليتهم علموا انني دهشت ايما دهشة، واعترتني رعشة عظيمة، وانا اشاهد اول مرة اشياء رائعة كنت فقط سمعت بها: سينما، مكتبة، مقهى، جامعة، قطار!!

كم استهوتني رائحة شواء الكباب، والكبدة المشوية على اسياخ رفيعة، كذلك بخار كبة البرغل الطافية في القدور الكبيرة، كل صباح كنت افطر بواحدة من عربة يركنها صاحبها بالقرب من بناية (سينما بغداد) ذات الواجهة الانيقة البيضاء العالية .

بعد سنوات من العيش في المدن، تبين لي ان وجه الحمار ذاك كان من دون شك ينتمي الى جماعة (اليعاريب الاقحاح!) تصورني شيوعيا عنيدا، جاء يتحداهم في معقلهم (الجعيفر) المحصن بالخطاب اليعربي الفاشي المتعالي المنغلق، اذ قاد العراق في نهاية المطاف الى ما هو عليه الان من هوان، بعد ان سلم (مناضلوه!) الوطن البهي، الذي احتلبوه اربعين عاما متصلة، سلموه من دون قتال، حيث رموا باسلحتهم التي كم تباهوا بها، وكم اتستخدموها للبطش والعدوان، رموها بارض المعركة، وامام انظار العالم وولوا هاربين على نحو غير مسبوق!!

منذ تلك الحادثة الوطيئة، وما تلاها من حالات مماثلة في خستها، من اليمين والوسط واليسار على حد سواء، شبّت في دواخلي حرائق عارمة، حطبها كره ونفور لا متناه للسياسة وعرابوها .

مرة ثانية عدت الى بغداد لسبب ما، ومن بائع يفرش كتبه على الرصيف في مدينة الناصرية ابتعت رواية (أرض ثمارها من ذهب) لأمضي فيها وقت رحلتي في القطار، ومرة أخرى يحتجزني مسؤول الانضباط العسكري، بعد أن مزّق الرواية ورماها من

شباك القطار المنطلق، ومرة أخرى لم أفهم السبب!! عرفت فيما بعد أن مؤلف الرواية (جورج أمادو) كان يومها سكرتيراً للحزب الشيوعي البرتغالي، وكنت قبل هذا لأربع أو خمس سنوات قد سمعت أن شخصاً يدعى (علي بشيبش) كان قد غادر القرية قبل عشرين عاماً، ثم عاد ولجأ الى خاله ورافقت عودته شائعة تقول أنه مطلوب من قبل شرطة أمن بغداد بتهمة الانتماء الى الشيوعية الامر الذي جعلني اتساءل في براءةٍ تامة. ترى من تكون هذه الشيوعية التي يحارب مريدوها وكأنهم وباء خطر!؟

ولأن الوعي بالكون والأشياء قضية تراكمية، كبرت وكَبُرَتْ معي قراءاتي وعلاقاتي، وبمرور الوقت وعيتُ أن الشيوعية، تعني جملة قضايا مهمة، في مقدمتها الدعوة لتحرير الانسان من الخرافات والأساطير والطقوس الوثنية، وتهذيب طباعهِ ليتجنب الطمع والجشع والفساد والدعوة الى الحروب، وتحريم عبودية الآخر، والأخذ بناصية العلم لتسخير الطبيعة لصالحه، وتذويب الطبقات المتصارعة التي هي من صنع انسان المرحلة الوحشية، في طبقة واحدة، طبقة الشعب العامل المتساوي في الحقوق والواجبات وما الى ذلك..

بمعنى أنها بمثابة نقلة نوعية ثانية وحاسمة للانسانية، النقلة الأولى جاءت حين تطوّر الحيوان وصار انساناً!!

وقضية بهذا الحجم لا يمكن أن يستوعبها سوى الانسان المثقف ثقافة عميقة رصينة وجادة، ويتحلى على المستوى الشخصي بشجاعة الانسان الفادي!!

تقول السيدة (أمينة رشيد) حفيدة اسماعيل باشا صدقي، رئيس وزراء مصر في أواسط هذا القرن، في مذكراتها: [قادتني القراءة التي تشغل معظم وقتي الى الخروج على طبقتي الأرستقراطية الحاكمة، والانتماء الى الشيوعية، وحين تعرضت الشيوعية واليسار في مصر أبان المدّ الناصري الى حملة وحشية، رحت أستقل الأوتوبيسات حتى منتصف الليل، لأقوم بتوزيع بريد الحزب في القاهرة، مستغلة اسم عائلتي، وأنا اقوم بمهامي الخطرة هذه، لا أعرف اذا كنت أرتعش من البرد أم من الخوف؟..]

...

إسطوانة ذاكرتي نشطة على نحو مخيف، لا تريد أن تتوقف، حتى وان شظا صداع شرس دماغي، كوانين الشتاء في كوخنا القصب المقام عند واحدة من أجمل ضفاف مسطحات (هور الحمار) الساحر، أسماك وطيور، هي الأجمل في اشكالها، والأطيب في

لحومها في كل ما خلقه الله، وفيرة ومجاناً!! وحياة في بساطة شبه بدائية، أتساءل وفي فمي تنغرز شوكة: أين ذهبت الأهوار بمياهها الرقراقة، وخضرتها الدائمة في فيض من أدغال البردي والقصب والجولان ونبتة الخبّير ذات الأزهار الصفر البراقة؟ اذ سحرت مملكته الفردوسية عشرات الرحالة من المستشرقين أمثال: غافن يونغ، ليونارد دوولي، فلانين، يثسنغر، جورج رو، دياكونوف، كورني، وهاري ساكز، وغيرهم إذ وضعوا كتباً عديدة مثيرة عن الأهوار وأهلها وأن غافن يونغ صاحب كتاب (العودة الى الأهوار) أمضى أكثر من عشرين عاماً مفتوناً ومسحوراً بذلك [الفردوس المائي الفريد من نوعه في العالم..] على حد قوله، وعقد صداقات عميقة مع بعض سكانه، بل أنه قام بنقل أكثر من مريض منهم للعلاج في لندن، على نفقته الخاصة!!

وان يثسنغر ألف كتاباً في غاية المتعة والدهشة سماه [قصبة في مهب الريح] أما فلانين صاحب كتاب [حاج ريكان] تسمعه يصرخ في دهشة تامة، كيف يمكن أن يموت الانسان وهو يعيش في هذا الكوكب الربّاني المدثر باجنحة الطيور الملونة، المفروش بالعشب وحراشف الأسماك الذهبية والفضية، والمخطط بالكواهين واليشن التي تنبئ عن حضارة مهمة، وإن هي الآن مطمورة تحت الماء، لكنها اذا ما كشف عنها فسوف تعيد كتابة تاريخ الانسان من جديد؟..

فاصرخ بدوري: أين ذهب الفردوس ذاك؟ لماذا لم يكتفوا بنهب الثروات والمناصب ويتركوا لنا الطبيعة، أمُ رزوم؟ فيتردد صدى صراخي: لا فردوس ولا هم يحزنون، لقد حرثته عجلات المدافع، وسرفات الدروع المجنونة، أمسى أرضاً بلقعاً تنعب فيها أسراب الغربان السود، تذري الريح بقايا هشيم مملكته التي حرقها (الرعيان) عن عمدٍ وحقدٍ وغطرسةٍ وجهالة!!

•••

السجناء المحكومون لجرائم خطرة مثل السرقة المسلحة، والاختلاس، والتهريب، وقطع الطريق والرشوة يشعرون بالتضامن فيما بينهم، وقريبين في علاقاتهم من مرتكبي الجرائم المشابهة في خطورتها كالقتل، والجنس، والنصب والاحتيال، والزنا بالمحارم، لكنهم مجتمعون يتصرفون بازدراء أزاء سجناء التهم البسيطة، غير المخلة بالشرف مثل دعاوى المرور، وتجاوز الحدود، والمشاجرات والقصور عن دفع النفقة، وأحياناً يندفع بعضهم بالتشجيع من الآخرين بالسخرية والمناكدات من أجل جرّ فئة

الدعاوى الأخيرة الى الملاسنات البذيئة والمشاجرات، خصوصاً اذا كان الشخص المقصود موظفاً: فالمعلم صقيع، وضابط الجيش، قاتل بالايجار.. الصحفي لوكي، اما ضابط الشرطة، فلص يطارد لصاً!! وهكذا..

(أبو كاظم) في الخمسين من عمره، منكب يعدُّ شايه، غالبا ما يسهو اذ تاخذه فكرة ما بعيداً خارج اسوار السجن العالية، فيغلي الشاي ويطفئ شعلة الطباخ، حينها فقط ينتبه فيعود الى نفسه، أنه يذكرّني برجل بدوي جاءوا به عنوة عام ١٩٨٧ الى قاطع الأنبار للجيش الشعبي، لقد اختطفوه، على حد قوله من صحرائه وإبله ونعاجه وماعزه ونسائه الأربع، وأطفاله الذين قد يعرف عددهم، لكني أشك في أنه يعرف أسماءهم جميعاً، كان هو الآخر دائم السرَحان، وعبثاً حاول مدربو القاطع جلب انتباهه الى ما يدور أمامه من توجيهات عسكرية، فتركوه وشأنه يلف السجاير من كيس صوف، يجلس حين يكون الجميع وقوفاً، وبالعكس، وقد رمى بندقيته على الأرض!

(ابو كاظم) ألقت عليه وعلى عائلته القبض شرطة الحدود، عند منطقة طريبيل وهم يحاولون تجاوز الحدود بطريقة غير مشروعة.. جاءوا به الى سجن أبو غريب، وأرسلوا زوجته الى سجن النساء في منطقة النواب في الكاظمية، .ارسلوا ولده (كاظم) الى سجن الفتيان عند منطقة الفضيلية لعدم بلوغه سن العشرين بعد، اما طفلاه اللذان كانا أعمارهما دون السابعة، فقد سلَموهما الى أحد أقاربهما في مدينة الحبيبية!!

كان يعمل سائقاً لدى مصلحة نقل الركاب العامة في مدينة البصرة، وحين باعت الدائرة شأن معظم دوائر الدولة سياراتها ومبانيها وأثاثها الى القطاع الخاص، وجد نفسه ومئات من العمال مرمياً على رصيف البطالة، ضاقت عليه السبل، فجاء الى مدينة السماوة وهناك إتفق مع أحدهم على ايصاله وعائلته الى الحدود الأردنية، غير أن المحاولة باءت بالفشل! فتمزق شمل العائلة على النحو الذي ذكرته!

في هذه اللحظة أسمع على الرغم من ضجة السجناء المعهودة أسمع صوت مذياع الحارس، ينقل احدى أغاني عبد الحليم حافظ، ولكي أسمع الصوت جيداً دفعت الأغطية ونهضت مقترباً من الشباك الذي سدوا مساحته الصغيرة بالحجر المسلح، تاركين عدداً قليلاً من الفراغات الصغيرة ليتجدد الهواء، يأخذني الصوت الذي أصبح أكثر وضوحاً الى أيام الشباب، تلك الأيام التي لن تعود، هل أتحسر على تلك الأيام الخوالي، بعد أن فتتت زهراتها الرائعات أصابع الأيام المجذومة..

كانت خليطاً مرتبكاً، غير متجانس لأمور حين أتصفحها اليوم أضحك حتى تدمع عيناي! من (عواطفي) المجانية الجيّاشة، التي يعلم الله وحده كم سَبَّبتْ لي من متاعب جمّة بعضها جاءت على شكل عقوبات أدارية سخيفة، والبعض الآخر مناكدات مع بعض الأصدقاء، والبعض الثالث توترات اجتماعية ساذجة ومؤسفة، ولعل أكثرها بشاعة تلك التي وشت بنذالة الثعالب الى الدوائر الأمنية ميولي اليسارية، اذ كادت ذات مرة، تلك الوشايات ان تودي بي الى التهلكة!

قراءات جادة او نشر في (الصحافة الممنوعة!) وان كانت محلية، ومجازة قانونياً، وعلاقات عاطفية متشعبة، ولا أقول علاقات حب بالمعنى الذي عرفته أول مرة، بعد أن تجاوزت قليلاً الثلاثين من عمري، يقود هذا كله، في صراحة فجة، غير واعية لشروطها المحلية، رفعي لواء العلمانية! بمعنى أنني كنت أقدم نفسي على طبق من ذهب، كما يقول المثل للرجعية المحلية وما أكثرها أمس واليوم وأبداً، أقدمها عارية، عزلاء ومكبلة بقوانين عمياء تفوق قوّة القضاء والقدر، مسلَفنة ومتبلة بتهمة الولاء لدولة أجنبية (ملحدة!) هكذا تصفها الرجعية العربية والبرجوازية، على الرغم من شعارات الاخيرة الثورية، وعلى الرغم من الدعم المادي والمعنوي الذي قدمته تلك الدولة (الملحدة) لقضايا العرب الكبرى!!.

مُلحد بمعنى يشرك بالرب، يكفر بالدين ورموزه، وهذه الأخيرة تعني في صميم ما تعنيه بحسب وعي اليعاريب، تهديداً مباشراً للأمة في صيرورتها، ومن ثم في وجودها الذي يراد لها الخلود، بمعنى أن خطر هؤلاء الملحدين أمثالي، هو من النوع الذي يعتبر السكوت عنه او التستر عليه، عمل من أعمال الخيانة العظمى، تفوق في خطورتها ما عداها من خيانات، بحيث تأتي بالدرجة التالية أعمال جسيمة مثل: تخريب الاقتصاد الوطني، الفساد الاداري، جرائم تهريب الآثار، القتل العمد، الزنا بالمحارم.

(الزمر العلمانية!) مجاميع هدامة من الكفرة والخارجين على القانون والساخرين بالأعراف والتقاليد العربية العريقة الأصيلة، يتحركون بامرة العدو الخارجي، ومن ثم فهم ليسوا أكثر من جالية موالية لدولة أجنبية! الخ المباذل والسخافات والأمية والعداء الأسود الموروث الموَجَّة والمدرع بقوة جاهلة عمياء، لسحق كل ما هو مثقف حقيقي، محب من دون طمع أو نفاق لوطنه وشعبه، حريص حقيقي على عدم تبذير الثروة العامة لرغبات حفنة طائشة وغير مسؤولة مثلما هو حريص على قيام حكومات

عادلة، من دون حقد طائفي، أو شوفيني، يقودها أشخاص مشهود لهم بالنزاهة والحكمة وسعة الثقافة، حكومات منتخبة انتخاباً حرّاً، وليس مجرد عصابات أنتجتها الثكنات المتوحشة، ولذا فلا غرابة إذا كانت لا تتحاور إلا بلغة الرصاص! حالات التداعي هذه كثيرة هذه الأيام كنوع من تعويض لحاضر أخرس ويابس ومجذوم فمن أبسط حالة أو مشهد يمكن أن ينفتق جراب الذكريات المشحون باشرطة طولها مئات الكيلومترات، خزين الأفراح والأحزان، التي واعجباه لا تريد ذاكرتي الملعونة أن تنساها!

مشكلتي إذن، ذاكرتي، فهي حين تستفز، وما أكثر ما يحصل هذا، يكون من السهل تماماً أن تعيدني صبياً في الخامسة من عمري، اذن (ورم) ذاكرة عمرها اكثر من أربعين عاماً، وبمثل هذه القوّة والحيوية والنشاط شيء مخيف حقاً! خصوصاً لشخص اشتغل في عالم الأدب فاصاب بعض النجاح، مما ربطه بصداقات عديدة وعلاقات متنوّعة ومتشعبة مع جمهرة واسعة من الأدباء والكتاب والفنانين والصحفيين والمثقفين والسياسيين، تلك الشرائح المعروفة بآرائها الصريحة الجريئة والعميقة، ونزقها، وخروجها على كل ما هو تقليدي، من أفكار وعادات وتقاليد ما عادت تليق بانسان أواخر القرن العشرين، خروجاً لا يخلو في أحيان كثيرة من التجريح والمجاهرة والسخرية والغضب للماضي وأفكاره.

حين أراجع بعضها هذه الأيام، أجد فيها الكثير من الطيش والمثالية والتطرف والنزوع الى الرومانسية الحالمة المجنحة، غير أنها على أية حال، وعلى الرغم مما أسلفت، كانت في مجملها ضرورية، وتستحق الاكبار والأعجاب!

وحتى أوضح الأمر على نحو أكثر تفصيلاً، يبدو لزاماً علي أن أذكر بعضاً منها على سبيل المثال وليس الحصر طبعاً، وعلى ضوء ما سأذكره سيكوّن القارىء، فكرة من جانبه محددة عن فترة شبابي، شبابنا نحن جيل السبعينيات، من الأدباء والفنانين في تلك السنوات القصار القليلة المشتعلة بكل ما تعنيه كلمة (اشتعال) من جنوح لتدمير ماحق قد يحرق، بل هو أحرق وعلى نحو مبكر أصابع معظم أبطاله!!

سنوات كانت خلالها عقولنا قد وعت أساسيات الكون والعالم فهماً علمياً، محملة بطموحات ثقيلة لا يمكن أن تحققها مغامرة الكتابة وحدها مهما كانت جسارتها، اذ اكتشفنا جميعاً ولكن بعد فوات الأوان وأسفاه أن تحقيق طموح مثل أن يكون الأدب

والفن في خدمة طموحات الشعب الأساس والتي في مقدمتها: العدالة، الحرية، الديمقراطية، على نبل المقصد ونذاخة الهدف عبر القلم والريشة وخشبة المسرح وما الى ذلك، سيما وأن هدفنا المضمّر تغييراً سياسياً، وسياسياً مسلحاً في محصلته النهائية!؟.

موقف أول:

كنا مجموعة من الأدباء، كانت أعمارنا بين العشرين والخامسة والعشرين، وكان العام هو ١٩٧٢ ١٩٧٣ والفصل خريفاً عاصفاً وهذا واضح من الوشوشة العذبة التي مازالت عالقة بذاكرتي، تدق مثل أجراس صغيرة بعيدة رغم مرور هذه السنين والتي مصدرها دوامات ملايين الأوراق الجافة المنتزعة من الأشجار، وهي تركض مهرولة على أرصفة شارع أبي نواس في بغداد المفتوح وشبه الخالي من المارة والسيارات، الوقت ما بعد الظهر، لنقل الثالثة أو الرابعة، أربعة قصاصين، أو هم قرروا أن يغيروا العالم عن طريق كتابة القصة القصيرة (!!؟): نعمان مجيد، جهاد مجيد، محمد الرديني، وكاتب هذه السطور، وناقد أدبي واعد هو محمد جبير، كنا خارجين من احدى الحانات، حيث أحتسينا تزجية للوقت عدداً من قناني البيرة المبرّدة، استعداداً لـ (عرق) نادي اتحاد الأدباء الترفيهي، نضج بالضحك من جراء التعليقات اللاذعة التي كان يطلقها الرديني بتأتأته المحببة، يشاطره محمد جبير الذي كان في شبابه من أكثرنا ميلاً للسخرية والمناكدة البريئة والتي ستغدو ثقيلة حين يثمل، فتجره الى مشاجرات وخصومات مؤسفة مع الآخرين ما كان يريدها!

كانت مادة التندر ذلك المساء الرجال الذين نلتقيهم وهم مقمطون بأربطة العنق والبدلة التقليدية ذات الثلاث قطع، اذ كنا نريد للناس أن تسير في مثل هذا المكان، وهذا الجو العاصف على شاكلتنا: شعر خنافس منفوش، وقمصان بالوان حارة، نصف أزرارها محررة! وفيما نحن سادرون بصخبنا المسموع مسافة بعيدة، فجأة اصطدمنا وجهاً لوجه، بموكب صغير من ثلاثة رجال يسيرون على مهل بقاماتهم الفارعة، تعبث الرياح الخريفية باذيال سترهم المزررة، وبايديهم يمنعون الرياح أن تلهوا باربطة العنق الأنيقة كما تشتهي!

يتقدم الموكب خطوة أحمد حسن البكر، رئيس الجمهورية آنذاك، وبرفقته وزير الداخلية سعدون شاكر، وشخص أنيق على نحو لافت هو سعدون غيدان..

بوغتنا تماماً، لكن لم تكن المفاجأة لتشلنا تماماً، كل ما اتذكره أن ردود الأفعال

لكلا الطرفين جاءت على نحو طبيعي، حيث تبادلنا وأياهم الابتسامات، وأن رئيس الجمهورية ابتسم لنا بود وأومأ برأسه محيياً!

تركنا الرصيف أحتراماً منا لهم، وحين تجاوزنا المكان مسافة عشرة أمتار تقريباً إلتقينا، هذه المرة ثلاثة ضباط شباب، هم على ما أعتقد، وهذا بحكم المؤكد، كل فريق الحماية الرئاسية، لم ينهروننا، كما يفعل في العادة أمثالهم في دول العالم الثالث بل تبادلنا وإياهم الابتسامات، والتحيات التي تمت هذه المرة، عن طريق التلويح عالياً بالأيادي المبسوطة.

حين التفتنا المرة الأخيرة صوب الموكب، رأيناهم يسيرون بالهدوء ذاته، والأستقامة ذاتها، تلعب الريح باطراف نباطيلهم وسترهم وشعر رؤوسهم، الأمر الذي جعلنا نستبشر خيراً بقيادة سياسية (برجوازية!) من العالم الثالث تتسكع آمنة، هادئة ومتزنة وواثقة من نفسها، من دون عربات طوارئ مدرعة، وحشود من جنود بلباس القتال، يسدون بسحنات القرود الشوارع بوجوه المارة والعربات! وكان محمد جبير البعثي الوحيد بيننا قد أخذه المشهد مأخذاً عظيماً، إذ راح يستوقفنا مراراً ليردد منتشياً: يا للمصادفة المباركة، ها أنتم شاهدتهم باعينكم، قبل ثوان، كيف أن قائد الحزب والدولة، يتسكع مثلما يحلو لنا نحن الصعاليك أن نتخيل رؤساء الحكومات الأوربية والأحزاب الثورية، يتجول خفيفا مرحاً على أرصفة شارع الأدباء والفنانين والصعاليك والسكارى، بعيداً عن المكاتب التي تقود، آجلاً أم عاجلاً من يدمن الجلوس اليها، الى البيروقراطية البغيضة، وفي مثل هذا الوقت من النهار، وبمثل هذا الجو شبه العاصف!؟

فيناكده محمد الرديني:

"- بل علّه كان يحتسي كأساً في بار قريب!"

"- ولم لا؟!.

كنا نستمع صامتين مأخوذين بجلال المشهد وسحريته التي سيظل سنوات طويلة قادمة، كلما زرتهم في بغداد، أو زاروني في البصرة مادة حديثنا الدسمة، نتذكره بفرح، ونسرد وقائعه، على بساطتها الى الأهل والأصدقاء بمتعة كبيرة، ذلك أنّ صخبنا كان من دون شك قد وصلهم قبل أن نقترب منهم، وكان بامكان وزير الداخلية، باشارة بسيطة للحراس كفيلة بان توقفنا عند حدنا، إن لم يعلموننا درساً في آداب الطرق العامة.

موقف آخر:

منذ مطلع شبابي وانا اتحسر بقوّة كلما قرأت أو شاهدت شيئاً ما عن أوربا الحضارة، وقد عمّقتْ هذه الرغبة وضخّمتها قراءاتي العديد من الروايات، وإدماني السينما، ولهذان الميدانان الابداعيان سجل مهم لعرض العلاقات الاجتماعية بمعناها الواسع للشعوب، فضلاً عن الأماكن حيث الجبال والغابات والبحار والموانئ والمبان العملاقة والطرق السريعة والمطارات، والطقس العاصف المكلل بالثلوج والأمطار الغزيرة، وهذه مجتمعة لها اثاراتها الخاصة وايقاعها المثير لدى الأدباء والفنانين وعامة المشتغلين في حقل الفكر، فرحتُ أقتصد موفراً من مرتبي البائس الذي لا يزيد على العشرين ديناراً، وهو مرتب الموظفين الصغار عامة حتى من كان يعود منهم الى بلد يعد اقتصاده واحداً من أفضل أقتصاديات خمس دول في العالم، حيث تتناهب ثروات الوطن الأسرة الحاكمة والنزوع العدواني المتمثل بالتسليح العسكري التي أتت على الأخضر واليابس، وقد زاد الأمر سوءاً كوني المعيل الوحيد لأسرة من اربعة أشخاص يحيون في بطالة رغيدة، ولا يمر أسبوع من دون أن يمرض أحدهم!

اخيرا تهيأ لي تحقيق الحلم، وكان ذلك اواخر عام ١٩٧٦ ولبساطة المبلغ الذي استطعت توفيره، بعد جهد جهيد والبالغ(٣٠٠ دينار، لم يكن بالامكان زيارة اوربا الغربية ، كما كنت اتمنى واشتهي، فضلا عن زيارة العملاقين امريكا واليابان ، اما الاتحاد السوفيتي فكان الوصول اليه اصعب من الوصول الى القمر على بعير لا لشيئ سوى ان العقليات القيادية التي كانت تحكمه، والتي ادت في الاخيرة الى انهياره، على نحو مضحك عقليات مجموعة من العجائز المخرفين والمتحجرين!

فاكتفيت بزيارة بعضا من دول المعسكر الاشتراكي، وكان لها ايامذاك وقع خاص في نفسي. كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل حين دخل القطار الى الحدود الرومانية قادما من بلغاريا، كنا في منتصف شهر تشرين الثاني، وكانت اوربا الشرقية مغطاة بالثلوج، والامطار تهطل من دون توقف، واحيانا تهب ريح عاصفة، وهذا الامر على غرابته بالنسبة لقادم من مناطق الصحارى المتجهمة. مدعاة سعادتي!!

وبينما كنت وشخص تعرفت اليه قادما من بغداد نلهو وبرفقتنا فتاتان رومانيتان

رائعتان تعرفنا اليهما في محطة قطار صوفيا، فجأة فتح باب الكابينة ووقف عند الباب مجموعة من الرومانيين بملابس مدنية، صاح بنا متسائلا في جفوة احدهم(ارب،ارب؟) فهمنا نداءه فقدمنا له جوازي سفرنا مبتسمين ، تصفحهما في عجالة، ثم اشار علينا ان نتبعه وقد احتفظ بالجوازين، تدخلت الفتاتان ودار بينهم حديث من دون انفعال وكنت ورفيقي نتبادل النظرات مستغربين لما يدور امامنا، اخيرا حملنا حقائبنا وتبعناهم صاغرين، فدفعوا بنا داخل قاطرة فيها بضعة اشخاص من جنسيات عربية مختلفة. ثم اغلقوا علينا باب العربة بالمفتاح!

تلبست الجميع حالة القلق حتى ان احدنا تساءل وهو يضحك: هل دخل العرب حربا ضد رومانيا من دون ان نعلم؟!

استيقظنا صباحا على جلبتهم العالية، مثل جمع من الاسرى او الخارجين على القانون انزلونا في المحطة الرئيسة في بخارست العاصمة. وقادونا في رتل امام انظار بقية المسافرين الذين كانوا ينظرون نحونا ويتاهمسون، وقد ظنوا بنا شتى الظنون وكانت الفتاتان الرومانيتان تسيران قريبا من الموكب، يمنعونهن من الاقتراب منا!

ادخلونا في غرفة وسدوا بابها خلفنا، ولم يكن هناك من يرد على استفساراتنا واعتراضاتنا بل وشتائمنا ايضا.. نصف ساعة وربما اكثر قليلا، فتح الباب وتقدم منا ضابط تفوح من فمه رائحة الثوم، وقد وضع على وجهه اللحيم قناعا يبتسم، راح يتمتم عبارات اعتذار عرجاء، بلغة عربية مهشمة، واعاد لنا جوازات سفرنا، ولوح بذراعيه القصيرتين، تلويحة فهمنا انها بمثابة دعوة تقول: رومانية امامكم!

وكنت اردد في غضب بينما الجميع صامتين: ولكن بعد ماذا؟ بعد خراب البصرة، كما نقول هناك في العراق، ازاء اعتذار وقح فات اوانه!

اختطفت جواز سفري في استياء واضح، وهرعت صوب الشارع العام، وكان رفيقي يحاول من جانبه تهدئتي، على اعتبار ان ما حدث قد حدث لا يسما وانه انتهى الى سلام وكانت الفتاتين قد التحقتا بنا تضحكان في سرور غامر، وتعابير وجهيهما لا تخلو من اسف واحراج صادقين، من جراء ما تعرضنا له في موطنهما الا انني لم استسلم للاغراء فما تعرضت له اكبر من ان ينسى، وفي مثل هذه السرعة والبساطة

اخذت اول تاكسي الى سفارتنا التي كنت قد دونت عنوانها، وعناوين مثيلاتها في

الدول الاخرى في دفتر ملاحظاتي، تحوطا لمثل تلك الحالات.

بدت لي بخارست عبر نافذة السيارة اشبه باسطنبول: قذرة ومزدحمة كما بدت الناس اقل بهجة واكثر فقرا قياسا الى البلغار بل انني لمحت صبيا في العاشرة من عمره، يصعد الى الباص ببنطال مرتوق عند مؤخرته على نحو فاضح، ذكرني هذا بمنظر الجنود الرومانيين وهم يشحذون من المسافرين السجاير في المحطات ولان المدن المفجوعة لا يمكن اضحاكها بسهولة، بدت لي بخارست على اتساعها مدينة في مأتم: حزينة وقانطة!

في السفارة استقبلني احد العاملين شرحت له الامر غاب عني ليتصل على ما يبدو بجهة ما، بعد حوالي نصف ساعة جاء مبتسما ليقول ان ما قامت به شرطة القطار حالة مشروعة، فقبل يومين كانوا قد عثروا على كمية من المخدرات مهربة داخل اطار لوحة لمسافر من مصر.

اثار استياني (الرومانسي!) موقف موظف السفارة التوفيقي من الحادث على الرغم من خطورته فحسبته جاهلا لمهامه كممثل لمصالح دولته وكرامة مواطنيها.

قلت بلهجة حازمة: يظهر انكم لم تحتجوا لكرامتنا وانهم لم يعتذروا لفعلتهم على شناعتها، وهذا واضح اذ وصفت موقفهم المشين بالمشروع؟.

كسا وجهه الريفي الامتعاض، لكنه كظم غيضه ولسان حاله يقول:- (جاء هذا الزعطوط من الهور ليعلمنا واجباتنا!)

إقترب مني اكثر ووضع يده على كتفي كان يكبرني بضع سنوات انزلت يده من على كتفي مستاء وتراجعت بضع خطوات

" - انا لست طفلا غرا" "وسمعته يقول:

"- يا أخي هون الامر، انها حالات تحصل كثيرا في بلدان العالم ولايقصد منها الاساءة"

زعجبا!كيف تكون الاساءة اذن، وقد شرحت لك ما فعلوه بنا؟

وبالابتسامة الدبلوماسية! ذاتها راح يحدثني فايقنت من لا جدوى بقائي في السفارة وبالعناد نفسه استدرت وغادرت السفارة من دون ان اودعه.ذهبت الى محطة القطار مباشرة ومن هناك اخذت اول قطار غادر بخارست، خلال رحلتي هذه التي

امتدت اكثر من شهرين صادفت العديد من المصريين ومن المغرب العربي وقد اتخذوا من التهريب والنصب والاحتيال مهنا، من اجل ان يصبحوا بين ليلة وضحاها بدرجة (خواجة) او (بيه)، هذه ليست افكاري الشخصية، لقد تولد من خلال ما تنشره صحافتهم وتعرضه افلامهم ومسلسلاتهم التلفازية، وبعض اعمال كتابّهم الروائية.

كان النظام الروماني بقيادة شاوشسكو يعيش اخفاقات اقتصادية متلاحقة فلا عجب اذ ما كان مسلسل الانهيارات الدراماتيكية الذي شمل كتلة الدول الاشتراكية بدا اول الامر من رومانيا تلك الانهيارات المضحكة / المبكية، التي عزا اسبابها الرجعيون والاميون وعملاء الغرب في العالم العربي والاسلامي، الى اسباب تبسيطية ساذجة يجيئ في مقدمتها (الالحاد!) وكأن الانظمة الرأسمالية الاوربية والامريكية تؤمن بالله وبالاديان وفق العقلية العربية، وبعضهم رد السبب في النظرية الاقتصادية الاشتراكية، كما نبح المغفلون والمرابون والطفيليون وتجار الحروب والسوق السوداء متناسين ان النظرية تلك كانت تنشد في جوهرها المساواة في اخطر حلقة في سلسلة تنظيم حياة البشر، وتبعدهم جهد الامكان عن شبح العوز والبطالة وتشمل في ذلك زمر المرابين والمضاربين والمصابين بداء الجشع والاستحواذ وكافة الاعمال الاقتصادية غير المشروعة وهي اذ تقطع عليهم الطريق انما تسعى الى ان تعيدهم الى صف الانسانية، وان يعيشوا بين اقرانهم من الناس بشراً أسوياء، وليس الهة او انصاف الهة ملعونة!

ذلك ان السبب الرئيس في الانهيارات الفاجعة وكما يذهب المنصفون من ذوي الاختصاص يكمن، من جهة من ان الاحزاب الشيوعية التي جاءت لتلغي نظام الطبقات بعد ان استنفذ ظروفه التاريخية جعل (الحزب) من نفسه طبقة جديدة مقدسة تضخمت على نحو بكتيري اذ قبل في صفوفه اعدادا غفيرة من الانتهازيين والوصوليين والمنحرفين والفاشلين على المستوى العلمي والثقافي فلا عجب ان تفشى الفساد باشكاله المتنوعة، ومن جهة اخرى رافق ذلك تحجر عقائدي، وانغلاق على العالم المتطور في ازدياد. فانكفأت القيادات العليا على نفسها وجفَّتْ دماء الحياة في عروق المؤسسات فانتعشت تبعا لذلك البيروقراطية والشللية فأطبقت على انفاس الحزب في مبادئه الاساس: مبدأ الحوار، حرية الرأي، النقد الذاتي.. فما ان انهار نظام شاوشسكو حتى راحت الصحف وكالات الانباء العالمية تنقل التقارير المطولة

بالصورة الملونة، والصوت المجسم عن بيروقراطية الرأس الحاكم ومنها امتلاك زوجته اكثر من ثلثمائة حذاء من مناشئ عالمية، واكثر من مئتي بدلة ماركات فرنسية واسبانية وامريكية.

وكيلو غرام من المجوهرات وان ابنه كان يطارد مخموراً الفتيات في شوارع بخارست ويختطفهنّ بواحدة من سياراته الحديثة التي ينوعها كل يوم امام الناس و (الحزب) من دون خوف او حياء. وكأي نظام فاشي كان، من دون شك مرعوبا في اعماقه من سوء نهايته التي تقترب يوما اثر يوم وان تظاهر بالقوة والشكيمة نقلت التقارير كيف حول مجاري العاصمة، الى ثكنات سرية عسكرت فيها اجهزة حمايته الشخصية، تلك الاجهزة التي على الرغم من ولائها المطلق (للقائد المحبوب!) وتسليحها الحديث وصلاحيتها المطلقة في (البطش بالخصوم الطبقيين!) ومكاسبها المادية والاعتبارية لكن ما ان حانت لحظة تصفية الحساب التاريخية بالطاغية ونظامه حتى انهارت قواها وولت هاربة مذعورة وقد ضاقت عليها الاراضي الرومانية على اتساعها!!

موقف ثالث:

ما ان انتصفت ليلة راس السنة الميلادية وأطلّ عام ١٩٧٩ واطفأت الحانات اضوائها حتى بادرتُ على نحو غير مخطط له على الاطلاق وصديقين هما المعلم عدنان كشيش من سكنة التنومة، وستار جبوري موظف يحفظ عن ظهر قلب معظم قصائد سعدي يوسف يلقيها على مسمعنا على نحو لا ينسى الى قيادة تظاهرة عمت شارع الوطن في البصرة ضمت المئات من الشيوعيين المحتفلين واخذنا نهتف:ماذا نريد؟ وطن حر وشعب سعيد وانظمّ الينا العشرات من رواد الحانات.

جاء ذلك رد عفوي على ماآلت اليه الجبهة الوطنية التي كانت تلفظ انفاسها الاخيرة فقد نكث البعثيون كعهدهم ببنود الميثاق الوطني، اذ قويت شوكتهم او جاءت لهم الاوامر من امريكا وعرب الخليج واعوانهم من حكام المنطقة بضرورة انهاء المهزلة هذه، والاستعداد لغزو ايران واسقاط نظامها الاسلامي الشيعي قبل فوات الاوان.

بَحّتْ حناجرنا التي خدّرتها كؤوس الخمرة القوّية، وحين لم نجد من يظهر لنا لنحطم على راسه القناني الفارغة، اذ كانت السلطات على ما يبدو تحتفل على طريقتها المعتادة في مثل هذه المناسبة وغيرها، في نواديها الخاصة، وبيوتها الموسورة غير

عابئة(لامر جلل!) كهذا! الامر الذي اثبط عزيمتنا وامنيتنا في منازلة (العدو الطبقي) في ليلة باردة ومباركة، فحطمنا القناني على الشوارع وتبولنا على جدران البنايات، ثم تفرق الجميع وهم ينكتون الى بيتوهم!!

ارتفع صوت (ثامر الديك) وهو يقلد هذه المرة ثعلبا فاجأه المساء فرد عليه (قاسم ابو الثلج) بعفطةً غطت على اللغط ورايت (سلمان المعاق) يبدا بربط فخذه الاصطناعية استعدادا لمقدم قدر الشورباء الداخنة المرة!.

الفصل الخامس عشر

عفو الطغاة!

يتصف مجتمع السجون فيما لو اجتهدنا بوصفه، وصفاً أدبياً: بعدم التماسك، غياب اليقين، يلفه الكثير من الغموض واللامبالاة، والنرجسية، اذ ينشط الى مديات قصوى مفهوم (الصراع من أجل البقاء) فالتشبث بالحياة، والأمل بالعودة الى الأهل والأصدقاء وممارسة النشاطات الانسانية المتنوعة، يتساوى بين المحكوم شهور معدودة، أو المحكوم باكثر من اعدام واحد..

ان عقل الواحد منهم وإن هو مشبع بالمفاهيم المتضارية لمعنى الحياة، والرغبات الدفينة، لكنها رغبات ومفاهيم سيّالة، رجراجة، يصعب ايقافها أو قياسها أو تنظيمها أيضاً، مثلما يصعب من ثم التحكم بافرازاتها..

إنه مخلوق لحظته، واللحظة المطلقة القادمة، ولذا فليس غريباً أن ترى الحساسين منهم قد إبيض شعر رؤوسهم مبكراً، أما أولئك الذين ينقصهم، منذ أن شبوا عن الطوق الحياء، والشعور بالكرامة الانسانية، فتراهم حتى وان امضوا السنوات الطوال داخل السجن، الا انهم مازالوا سادرين في سفاهاتهم وتفاهاتهم، وفي مباذلهم، يحيون وكأنهم في مجتمعهم الحقيقي، مدينتهم الفاضلة التي ولدوا كي يسكنوها، وأنشئت لتكون لهم من دون بقية خلق الله!

مع كل هذا يظل خيط الأمل يتضخم باستمرار، بل في كل ثانية، حتى أنه يمكن أن يصبح، بين ليلة وضحاها، حبلاً متيناً يمكن أن يتأرجحوا عليه لوصلهم الى بيوتهم، بل يمكن أيضاً أن يحط بهم بهدوء وأمان في أيّ من مدن العالم البعيدة!

واذا كان الأمر على هذا النحو يمكن أن نتصور، بقليل من الخيال كيف أن آلاف السجناء يلوبون ويصخبون في ضجة مستحيلة بدأت منذ أسبوعين، لا أحد يدري من أشعل فتيلها، اذ صاروا من دون استثناء يخترعون عشرات الأسباب، لعشرات الأخبار التي تصب جميعها في مثانة واحدة يسمونها (المرحمة!) او العفو العام أو الجزئي. وبعضهم يذهب به الخيال الى ما هو أبعد من هذا حيث يذكر أن أمراً في (تبييض السجون) قد صدر، وإن ادارة السجن تنتظر مجرد إذاعته رسمياً لتباشر من فورها

بتنفيذه!

أما متى يذاع رسمياً، فان هناك شبه إجماع من ان ذلك سيحصل مساء يوم ٢٨ نيسان المقبل حيث سيكون عمر صدام ستين عاماً!

أستطيع القول أنني الوحيد الذي ينظر الى قصصهم وحكاياتهم العجيبة الملفقة، وهو يضحك من عقول خرّب قدراتها على التدقيق والتحليل والاستنتاج طول انتظار، ذلك أنني أجزم أن زمرة المافيا الحاكمة لابد وانها تدارست في واحدة من اجتماعاتها وجلساتها اليومية مسألة السجناء، ولابد أنها أقرّت على نحو سري طبعاً رأياً يوصي بعدم منح مرحمة أو شيء من هذا القبيل، فضلاً عن عفو عام للسجناء، حتى وان جاء مشروطاً في الوقت الراهن في الأقل، ويجيء استنتاجي هذا لأسباب عدة منطقية وموضوعية في آن، منها أن أجهزة الزمرة الأمنية بكل مسمياتها قد فعلت المستحيل حتى تمكنت من إلقاء القبض على العديد من عتاة المجرمين وأودعتهم السجون، وبذلك خففت كثيراً الضغوط على أجهزتها الأخرى، وخففت بالمقابل الكثير من الجرائم، ثم ان الظروف الاقتصادية التي سببتها زمرة المافيا على البلاد والتي كانت العامل الرئيس في شيوع ظاهرة الجريمة مازالت قائمة ولايراد لها الحلّ، وفي مقدمتها ما يسمى بالحصار الاقتصادي، ويمكن اللبيب أن ينتبه الى ما ذهبت اليه من خلال تاكيد زمرة المافيا عبر برنامجها التلفازي الاسبوعي الذي يقدم كل يوم جمعة بعنوان (الجريمة والمجتمع) حيث نلمس المبالغة بقسوة بعض الجرائم والمجرمين وتأكيدها المستمر حول مسألة أن البعض ممن تمّ اطلاق سراحه من المجرمين قام بارتكاب جرائم جديدة أشد عنفاً وفظاعة من جرائمه السابقة، ليس هذا حسب، بل أن الكثيرين منهم ما أن يصل الواحد منهم الى بيته ظهراً، حتى يقوم باقتراف جريمة ما عند ليلة اليوم نفسه! وأمر كهذا فيه الكثير من عدم الصحة، لكن ما نحن بصدد ايضاحه ان هذا مؤشر واضح لا يريد أن يتوقف عنده السجناء، لأن هذا يعني أن إصدار أمر بعفو ما قد تم ركنه على الرفوف العالية، حتى إشعار آخر!

ثم أنني لاحظت أن العديد من الجرائم التي لم يتم لمحكمة التمييز أن تبت بقرارها القطعي بشأنها قد تم إعادة محاكمة أصحابها من جديد، وتم بالمقابل رفع مدة العقوبة سنة أخرى أو سنتين بل حتى أكثر من ذلك!

كنتُ أعرف كل هذا وغيره الكثير غير أنني ما كنت لاجرؤ على ذكره لأقرب السجناء

اليّ وذلك لأبقيه في وهم من أمل أعرج وأعور ومجذوم، يمكن أن يسلّيه بضعة أيام، ويترتب ويرتب قليلاً من إيقاع حياته المرتبك، فعبارة عسى ولعل، خير من لا شيء طبعاً، وقد خبرت كل ذلك، وخبرتُ أيضاً أن أكثر ما يثير مزاج السجين ويقلب هدوءه الى ضجة وضوضاء قد لا تمران من دون مشاكل، هو تبصيره بحقيقة الأمور، أنهم على نحو عام ميالون الى السخرية والنكتة الفجة والتلفيق والمشاكسات والملاسنات والبذاءة، أكثر من ميلهم الى الحوار الجاد.. يؤمنون جميعاً، كمحاولة يائسة لتغطية أخطائهم، والهرب من مواجهة الأمور صراحة: أن (الأقدار!) هي وحدها المسؤولة عن المصائر التي انتهوا اليها، وليس شيئاً آخر: [المكتوب على الجبين، لازم تشوفه العين] هذا ما يردده الجميع وهو يعتصر كفيه ويتأوه، بعضهم يحاول تغيير موقفي التشاؤمي من خلال إمكانية إحراجي، كأن يسألني ببراءة كاذبة:

- أستاذ! وهل أنت غبي مثلنا؟.

تتسع ابتسامتي وأبتلع الاهانة الصريحة وأقول:

- نعم . أنا غبي، وبدرجة شرف!

يدير الجميع رؤوسهم باتجاهي:

لقد تصرفت ازاء أمور كثيرة تصرفاً أحمقاً، مثلاً كان علي ان أرضى بما انتهت اليه من فشل سريع، تجربتي الأولى بالزواج، وأن لا أعود لخوض التجربة ذاتها من جديد، فالمرأة عموماً والعراقية خصوصاً واحدة بغض النظر عن مستواها العلمي أو الثقافي.. أعرف طبيبة أخصائية متزوجة، أغوتها أمرأة أمية تعمل في عيادتها، بان راحت تقودها الى دارها وتدخل عليها الرجال! وصحفية بارعة لكنها كانت طوع بنان موظفة حسابات، ومهندسة تمارس السحاق مع خادمتها في البيت، ورابعة تجلب بنتيها الأثنتين المراهقتين حين يكون زوجها العقيد في الجبهة، الى حفلاتٍ خاصة ماجنة يقيمها بعض الموسورين المتهتكين، وأشياء أخرى مرة من هذا القبيل.. ثم كنت حماراً بامتياز حين ارتضيت العمل لدى الحكومة، فأضعت شبابي، وحنطت طموحاتي في وظيفة بائسة ومرتب أكثر بؤساً..وكنت بغلاً جميلاً حين رفضت الزواج من امرأة بولونية ميسورة الحال وجميلة، سكنت شقتها عند ضواحي مدينة وارشو، أعجبت بي لدرجة أنها أخفت جواز سفري لديها عدة أيام، وبدلاً من البقاء هناك حيث الحياة أكثر شفافية ونبلاً، عدتُ خاسئاً الى مزابل العراق وذبابه وردّاحيه! عدتُ صفراً بين ملايين

الأصفار!.

وكان السجناء الذين تحلقوا من حولي، ينظرون لي، أول مرة بالكثير من الرضا ويهزون رؤوسهم استحساناً!

الكل يفكر باطلاق سراحه في ٢٨ نيسان تحديداً، وليس بينهم من يفكر بالانتحار حتى من كانت جريمته)الزنى بالمحارم) وحين تنجح بجعله يتحدث عن بشاعة فعلته يضحك ويستمر يدخن أو يطرز حافظة أو أيما عمل بين يديه، يسرد لك من دون أن ترعش شعرة واحدة في رأسه أو وجهه قائمة طويلة يحفظها لأسماء أشخاص كانوا قد أقترفوا أفعالاً بمستوى الكوارث الكبرى، ليس بحق أنفسهم أو من ضاجعوهن من قريباتهم حسب، بل بحق الآلاف والملايين من البشر من دون أن يجرؤ أحد على إتهامهم بالبشاعة، بل هناك كتاب ومؤرخون أوقفوا حياتهم من أجل أن يخلعوا عليهم ما يدعو الى تخليدهم، اذ دفعت أفعالهم الجهنمية بهم الى الواجهة الأمامية من المشهد السياسي، حيث ضمت كتب المناهج الدراسية سيرهم الشخصية المميزة، ويذكر من بينهم: جنكيز خان، موسليني، هتلر، السكير السلطان عبد الحميد، راس بوتين، الخلفاء الامويون، بني العباس، جمال عبد الناصر، واذا كان يأتمنك يهمس خلسة و(الجماعة!) يقصد مافيا صدام..

عموماً، يشرق وجهه في النهاية فقد أفرغ شحنته، وأنه كسب النقاش منطقياً في الأقل.

شملت موجة الفرح بالافراج المزعوم الجميع من دون استثناء، بمن فيهم المحكومون بالاعدام أو المؤبد، أو خمسين عاماً بالتعاقب، حالتهم العامة ومعنوياتهم تساوت مع حالات ومعنويات من هم على وشك انتهاء محكومياتهم.

يضحكون وقد ركبهم مرح مفاجئ، يخططون لما سيفعلونه حين يمسكون بالحريّة، فالفرح بفعل الاشاعات المستمرة، والأخبار الملفقة صار يلوح لهم وهو يخفق مثل شراع أبيض كبير قادم يهدر بسفينة النجاة سيصل غداً، او بعد اسبوع على أكثر تقدير، حتى أن بعضهم راح يبيع بعضاً من حوائجه المهمة تخلصاً منها، من أجل أن يصل الى أسرته خفيفاً!

وأنا أجلس ساهماً وحزيناً لهذا الخلق المسكين المخدوع فأجأتني من الخلف يدان غطتا عينيّ برفق، تحسستهما: يدان شابتان، أصابع طويلة ناعمة في بنصر اليسرى

حلقة زواج، وحول المعصم ساعة مستطيلة مثبتة بحزام من الجلد لكن لم أتوصل الى معرفة الشخص، ومثلما أطبقهما فجأة رفعهما ضاحكاً.. وهتف:

"- بشراك، إن شاء الله ما ظل شي، يومين ثلاثة وطالعين!"

أنه نقيب الشرطة السابق (ج) في الخامسة والثلاثين، قامة فارعة، وسامة مؤكدة، ووجه جميل، تهمته:)موت أحد الموقوفين لديه أثناء التحقيق)، هو ينكر ذلك بطبيعة الحال شأن الجميع هنا، أراه دائماً وهو منصرف الى قراءة القرآن، في الجامع الملحق بالسجن، يكثر من السجود والبسملة، ونادراً ما فارقت الابتسامة العذبة شفتيه، لعلّه السجين الوحيد الذي تعلم من عقوبته، قريب الى النفس، كان يمدّني بالصحف التي تجمعها زوجته وتجلبها معها حين تأتي الى زيارته نصف الشهرية، وكان يدعوني أحياناً لاحتساء الشاي، مع كأس من الماء المبرد، تحدث لي ذات مرة وكنا نجلس عند إحدى زوايا الجامع: بريك! هل تصدق أن شخصاً مثلي يمكن أن يعذب لصاً حتى الموت؟ كل ما في الأمر أن أخي ضابط مخابرات أغاظته أفعال (الجماعة) فترك عمله في احدى السفارات والتحق مع المعارضة، بقيادة الدكتور أياد علاوي.

أضحك واقول:

"- حتى أنت؟!"

"- نعم. حتى أنا، الأخبار مؤكدة، عديلي عضو شعبة، أسرّ لزوجتي بان أمر إطلاق سراحنا بات وشيكاً" ويعد على أصابع يديه:

"- خمسة، عشرة أيام، ليست بالكثيرة لسجين مثلي أمضى خمس سنوات متصلة!"

كان أفظع ما يخيفني أن تنتقل عدوى (المرحمة) لي شخصياً، اذ رحتُ أحدث نفسي بكلام مثل: لم لا يعطي مرحمة حقاً، والمناسبة تخصه شخصياً وهو النرجسي. ثم أنه لم يمنح (مكرمة!) للسجناء منذ عام ١٩٩٥؟...

وكنت أضحك من (أفكاري الوردية!) هذه حين أنتبه لها فاقطع عنها الاسترسال.

قرأت ذات مرة: كاذب من يقول أن الانسان لا يستطيع الهرب من زمنه!

أيّ بغل متشدق هذا؟ لقد جرّبت، حاولت وحاولت لكنني في كل مرة أجد نفسي واقفة مصلوبة في زمانها ذاته، زمن العقم والرصاص والعويل، وحيث الانسان يكرر نسخته، شكلاً ومضموناً مثلما تفعل تماماً الات صنع قطع الغيار.

بعض الحراس لا يتورعون من شتم السجناء جهاراً اذا ما جرؤ أحدهم وسأل عن مسألة العفو، يعفطون في وجوههم، ويقومون بحركات جنسية ماجنة فالحراس يتطيرون من مجيء المناسبات الدينية والسياسية، خشية أن تصدر بالمناسبة مرحمة فعلاً فيخسرون الكثير من منافعهم الاقتصادية التي يحصلون عليها من السجناء بطرق شتى كالتوسط لإعفاء سجيناً ارتكب ذنباً ما، أو جلب مختلف الحاجيات لأصحاب البسطيات، بما فيها الأدوية والأقراص المخدرة، او الاتصال بذويهم هاتفياً أم شخصياً لحاجة ملحة ما، او متابعة قضاياهم الرسمية لدى المحاكم، ومراكز الشرطة خصوصاً ممن سميتهم بعشائر طريبيل، الذين منهم من يتسكع على شاكلتي وحيداً محزوناً، ومنهم من يضحك باصوات مجلجلة، أصوات السفهاء من الناس، فضلاً عن الخسارة الاعتبارية للحراس، وفق مقولة: ما قيمة السجّان من دون سجين يلهو معه، في الأقل؟.

أجزم أن القاسم المشترك لمادة الثرثرة التي تخيم على المجاميع هنا، صغيرة كانت أم كبيرة، بقوف جمهورها أم جلوسه، ترويج للشائعة، أشبه بالقاء المزيد من الحطب لنار يراد لها أن تظل مستعرة، لعل ذلك تخفيفاً منهم لليأس الذي يعبئ مشاعرهم، مثلما يعبئ الهواء الساخن المناطيد، ويدفعها لتسبح في الفضاءات الشاسعة على نحوٍ مطلق يقلبون الشائعة مثلما يفصل القهوجي الماهر حبات البن في المقلاة الموضوعة على النار، يحمصها لا ليحرقها، يجملونها مثلما تجمّل العرائس الخجولات، كل ذلك يحدث بحماس واضطراد نادراً ما ينقصون من حجم الشائعة، أما الاضافة فهي مشروع مشترك ومشاع ومطلوب أيضاً.. ولعل بعض الزائرين قد ساهموا من جانبهم بالشيء الكثير:

[قالت أمي، نقلاً عن جارتنا التي يعمل ابنها في ديوان الرئاسة..]

[قال أخي الذي يعمل سائقاً عند مسؤول كبير في وزارة العدل..]

[قال عمي، رئيس مجلس الشعب لحي....]

[قالت زوجتي التي تعمل موظفة في قصر المؤتمرات..]

قال، وقالت، وقلنّ، وطبعاً الجميع لا يكذبون أنّ:

[هناك بشرى مؤكدة للسجناء ستعلن قريباً..]

أثناء أحدى تسكعاتي القصيرة التقيت السجين)موحان الريّس) أعرف أنه اشترى مسبحة مجموع خرزاتها يساوي أسابيع مدة حكمه البالغة ثلاث سنوات، كان يعمد كل يوم جمعة الى كسر خرزة واحدة، بادرته وأنا أضحك:

"- عن قريب ستكسر ما تبقى من مسبحتك دفعة واحدة..)

تساءل متلهفاً: "- صحيح أستاذ؟"

"- أن شاء الله تصدق الشائعات هذه المرة"

فقال على نحو يفطر الحجر: "- أستاذ، إذا أنت صدقت الشائعات، أصدقها من جانبي"

فهمست بداخلي: هذا سجين يفكر على نحو جيد، فقلت مهدّناً:

"- قلتُ لك، إن شاء الله "وبسطت راحتي ورفعتهما نحو السماء المغبّرة، إلتصق بي وهمس بنبرة باكية: أستاذ، ماذا فعلنا حتى يذلونا بهذي الدرجة؟ قالوا لنا حاربوا ضد ايران، وحاربنا ثماني سنين.. وقالوا إحتلوا الكويت، وفعلنا ذلك، كيف يرضى الله ولا يخسف بهم الأرض؟

"- أنا واثق أنّه سيخسفها بهم" خسفاً

وزأر من بين اسنانه"- ولكن، متى؟ متى؟ الظلم لو طال يدمرّ!"

جاء سجين دس أنفه بيننا فقطع (موحان) حديثه الموجع وتركني مبتعداً. جرجرت جثماني واتكأت على حافة الباب القذر المقفل، أحدق عبر الزجاج المتسخ بما يسمى بالساحة الرياضية المهملة، أنها الحادية عشرة صباحاً، السماء تنث مطراً ناعماً،وكأنه جوّ مثالي للتسكع والسكر! رقعة السماء الصغيرة التي لا تسمح زجاجة الباب المتربة رؤيتها جيداً، تمتلىء باسراب الطير الموسمية، اسألها: ياطيور هل مررتي بمدينة وارشو، هل الإمرأة الرائعة (آنا) لا تزال تتذكرني؟ هل كان طريقك بمحاذاة مدينة زغرب؟ اذا لمحت فتاة، سبحان الخالق، اسمها (دشكا) قولي لها أن ■ السباهي سجين، ولا يزال يحتفظ بشالك الأزرق..

أكسر مؤشر الذاكرة، ليتوقف بقيته عند مجموعة من طائر الزاغ مناقيرها الصفر المدببة تنبش، في حيوية باكوام النفايات، ثمة طائر فاخت سمين، يدرج على ساقين قصيرتين بين برك مياه الأمطار، وليس في ذهنه ما يوحي بمعرفة خطورة المكان، أصبح فيه أن يهرب فقد يعمد السجناء بواحدة من حيلهم الجهنمية الى اصطياده،

والتهامه بريشه! لكنه لا يأخذ بالنصيحة، طائر سفيه!

رقعة السماء رصاصية مسّخمة، تنذر بمزيد من المطر، بمزيد من الضياع والتعاسة، ريح خفيفة تهب على سطح البرك فتخططها بمويجات، بحجم الأصابع.. أدخن وأسعل وأبصق بين قدمي، أتأوه وأردد بيت أبي فراس الحمداني وهو في سجنه:

أقول وقد ناحت بقربي حمامة

أيا جارتا لو تعلمين بحالي..

أعود الى القاعة، أجلس قريباً من الباب، أنصت لمأمور السجن السابق، السجين حالياً بتهمة سرقة بعض المواد التي كانت بذمته، وهو يتحدث الى مراقب القاعة، الواقف قريباً مني يحتسي الشاي: أنه سمع اذاعة مونت كارلو تقول: العراق يسعى حثيثاً بمناسبة الذكرى الستين لميلاد رئيسه، لاطلاق سراح السجناء لديه.

جهاز الراديو مصدر الخبر، من كبريات المحرمات داخل السجون، غير انهم سمحوا له- او تغاضوا عنه بدافع الزمالة- فاحتفظ بواحد صغير، لا يستعمله إلا حين ينام الجميع، باحثاً عن (أم كلثوم) الذي يبدو أنه يحبها كثيراً..

أدخل الى القاعة وأجلس على فراشي فأرى الجميع قد شملتهم الفرحة، بمن فيهم مقترفو جرائم القتل العمد، ذلك لان سجيناً من هذا النوع مشروع قتل جاهز للتنفيذ في حال اطلاق سراحه، ولذا ترى الكثيرين منهم لا يزالون داخل السجن على الرغم من انتهاء مدة محكومياتهم وذلك بانتظار اقامة الصلح مع ذوي القتيل.

يبدو أن (فارس) خطاط الأدعية الدينية، التي يستنسخها متظاهر بالخشوع والتقوى، لدرجة يترك يده الناحلة ترتعش [من خشية الله!] كما يزعم وهو يكتب، هو الآخر أصابه الضرر من جراء دعاية العفو العام، اذ قلّ على نحو ملحوظ مجيء أولئك الذين كانوا يتزاحمون لشراء أدعيته، قرويون أم مدنيون، في النهار يربطونها على قلوبهم عساها- الأدعية- تخفف ولو قليلاً من قلقها المزمن، وهلعها المستديم، وعند الليل يضعونها تحت الوسائد تبركاً وطرداً للوساوس، والأحلام الثقيلة، والأفكار المتطيّرة التي، وهذا واضح من سحناتهم المخطوفة على الدوام، قد تقودهم، في أية لحظة الى الجنون!

وأنا على رقدتي المفجوعة رحتُ أتفرس بوجوه بعض السجناء من الذين لا أمل في

إصلاحهم حتى لو أشرف على أوضاعهم أشخاص مثل: افلاطون، هيجل، ماركس، فرويد، بافلوف يونج مجتمعين!

هؤلاء الجموع الذين لا أعرف- بل أعرف! كيف وصلت بهم الحال الى ما هم عليه من انفصام اجتماعي خطر.. أيّ رفاق سوء، وقوانين فاشية، وشوارع منحطة، وأسر منحرفة، قررت مجتمعة أن تجعل منهم شياطين بامتياز، وإن هي أبقتهم على هيئاتهم البشرية؟

أحدق حزيناً في تقاطيع وجوههم الحجرية، وسحناتهم المنطفئة، وأراقب حركاتهم الخارجة صراحة عن الذوق العام بابسط مفاهيمه.. وأستمع الى لغتهم المشحونة بمفردات تصيبني بالغثيان، أما هم فحين يطلقونها على بعضهم باصوات كلبية عالية، يرافقها ضحك صاخب، وغمزات قردية، وعفاط مسموع، أنهم في سعادة قصوى، ورضا تام عن النفس، حين ينتقصون من بعضهم- يتساوون في ذلك بغض النظر عن أعمارهم - فأتساءل والغيظ، بمعناه الانساني يأخذ بانفاسي المتوترة: ما هي الحكمة في إطلاق سراح هذه الجموع التي لا رجاء فيها ولا أمل؟ أذ أنني أرى أن الابقاء عليهم داخل السجن حتى وإن أتموا محكومياتهم، طالما أنهم حال خروجهم سيحيلون كل ما يلمسونه الى رماد؟.

أحياناً أغامر فاغادر حياديتي محاولاً كشف ردود أفعالهم العصبية، أذ أعمد الى مشاكسة بعضهم، مشاكسة ليست متطرفة طبعاً، فأرى على الفور تجمد عضلات وجوههم وتكوّر قبضاتهم الموشومة، وتحديقاتهم تنز خبثاً وغطرسة وحماقة وقد فتحوا عيونهم الوقحة على وسعها، مثل من أصابه العجب العجاب، ولسان حالهم يقول:

فأرة تتحرش بأفعى! والله عجيب يا زمن!!

عالم حواراته تتم عبر القبضات والركلات والسكاكين وأمواس الحلاقة، والتناطح برؤوس مقدودة من صخر، مخططة فرواتها بالندبات العميقة التي مردها أعمال عنف أجزم أنهم تدربوا عليها يوم كانوا فتيانا يافعين، ولذا فلا عجب أن ركب الجنون معظمهم لأبسط استفزاز يمكن أن يجعلهم يقدمون على عمل خطر كرد فعل عصابي، حتى وإن جاء الاستفزاز من دون قصد مبيت، لكن بعد دقائق قليلة تجد الفاعل يمتلكه الندم وراح يسعى للمصالحة! وهذا دليل مؤكد على أن ما يقدمون عليه من افعال شرسة

مردها جهاز عصبي معطوب.

أما وقد يئست من أمل إصلاحهم، رحت أتخيل طرق القضاء المبرم عليهم، حين يصل بي الأمر الى هذا المدى المتطرف، آخذا بتوبيخ نفسي بشدة، أدمغها بالجهل المطبق في علوم السايسلوجيا، وكيف فاتني أن أعلم أنهم ضحايا أوضاع شاذة: حروب شوفينية استمرت سنوات طوالا، تلاها حصار قذر داخلي وخارجي على حد سواء، ثم تدنٍ غير مسبوق في المرتبات، وبطالة مريعة! وأستمر في تأنيب نفسي: لنأخذ هذه المجاميع الكبيرة من الذين أطلقت عليهم للتندر (عشائر طريبيل) ألم يكونوا عازمين وهم يتركون أسرهم للأقدار المجهولة، ويغامرون هم بانفسهم باتجاه المجهول وهم يعبرون الحدود الى الأردن مكرهين، آملين بالعثور على عمل شريف، متجنبين أن يكونوا لصوصاً أو قتلة؟ حسناً، لماذ إذن يلقون القبض عليهم ويرمون بهم في السجون، من دون أن تناقش عصابة المافيا أوضاعهم الاقتصادية مناقشة منصفة ومسؤولة؟

كان أحدهم، على ما يبدو مثقفاً شجاعاً حاول مناقشة القاضي في محكمة جنح مدينة الأنبار حول موقف الاسلام من قضية تجاوز الحدود، مستشهداً بالآية التي تقول:

واسعوا في مناكبها، وكلوا من رزقه واليه النشور..

فاستشاط القاضي غضباً، وكان من دون شك قاضياً أُمياً بليداً وانتهازياً، إذ أمره بالكف عن ذكر القرآن وهو نجس، على حد زعمه! لكنه لم يأخذ تحذير القاضي على محمل االجد، اذ طالبه أن يقدم له نصاً قرآنياً واحداً يحرم تجوال الناس في أرض الله، خصوصاً اذا كان المتجول مثله، انسان مسالم وجائع، ثم انه ذاهب الى دولة عربية اسلامية لها أواصر علاقات سياسية واقتصادية متينة ومعروفة مع العراق، وليس ذاهباً ولا كان في نيته، على الاطلاق الى اسرائيل أو أميركا! فما كان من (القاضي العادل!) إلا وأمر باخراجه من قاعة المرافعة، وضاعف من حكمه!

ترى هل ألوم هذا الرجل إذا ما تحوّل الى لص خطر في المستقبل؟ كلا. طبعاً بل أشترط عليه اذا ما أطلق سراحه القيام بذبح ذلك القاضي الجاهل الأحمق السخيف!

بعض الشائعات قد أوصلت مرسوم العفو العام الى الدائرة العامة لسجن أبي غريب وهي لا تبعد عن مكاننا أكثر من مئتي متر!ثمة إشاعة إنفجرت مفادها: أن مدير قسمنا إجتمع وبقية مديري أقسام السجن بالمدير العام حول تنفيذ المرحمة، التي راحت الشائعات تتضارب في مقدارها، بعد أن إتفقت جميعاً على حقيقتها، فهناك من يقول

٢٥ من أصل الحكم، وآخر جعلها ٥٠ من المدة المتبقية، وثالث يصيح وهو يصفق: تبييض، تبييض، لا نريد أقل من التبييض! وهناك من يدخل في التفاصيل: المرحمة لن تشمل كذا وكذا من الجرائم، الى آخر المعزوفة!! تمطت الأيام حتى صار ثقل الواحد منها ثقل سنة كاملة، وأخيراً أطل اليوم البشارة ٢٨ نيسان/ ١٩٩٧، وكان السجناء وحدهم، كما أعتقد الذين يلازمون أجهزة التلفاز وكأن على رؤوسهم الطير! يتوقعون بين لحظة وأخرى إذاعة البيان/ الحُلم الذي لا يفوقه سوى الحلم بحياة أبدية رغيدة!

وكان بعضهم من الحماقة بحيث امتنع عن تناول الطعام قائلاً: (لن أتغدى إلا في بيتي!) وآخر يثرثر:)سأتعشى الليلة، إن شاء الله مع العائلة) ومرت ساعات ذلك اليوم الملعون بطيئة وثقيلة ومجهضة لدرجة ليس هناك من لغة في العالم قادرة على توصيف بشاعتها توصيفاً دقيقاً!

كلما ظهر مذيع أو مذيعة التلفاز على الشاشة، وما أكثر ظهورهما ذلك اليوم، ليقرأ برقية تهنئة وتأييد وتبريك بالمناسبة، من رئيس العشيرة الفلانية، او المسؤول الحزبي الفلاني أو رئيس الطائفة أو حاكم هذه الدولة أو تلك، حتى يهب الجميع وقوفاً، وقد زادت شراهتهم للتدخين، وتسمع لشدة الصمت رفيف جفونهم اذا ما طرفت، حتى إذا انتهى المذيع من تقديم ما بين يديه من قذارة، عاودوا الجلوس والثرثرة..

مرّت نشرات الأخبار المركزية والموجزة.. إنتهت مشاهد الرادحين والرادحات، إنقضت تظاهرات جموع البكم الداجن.. هجعت الطبول والزغاريد وقصائد المخصيين.. ركنت الى الصمت أبواق المنافقين والحواة وتجار الباطل.. طوت بيارغها عشائر العار.. ونامت في ثكناتها العساكر الخُلب، كل ذلك إنقضى من دون إشارة واحدة مباشرة أو غير مباشرة، عن العفو او المرحمة، ومع ذلك ظلّ السجناء يلازمون أماكنهم القريبة من أجهزة التلفاز حتى الثانية الأخيرة من فترة البث!! عند صباح اليوم التالي، دوّت من جديد شائعة العفو، بالقوّة نفسها، لكن بمفهوم آخر:

صدر العفو، لكن بطريقة سرّية!

بمعنى، بعيداً عن أجهزة الاعلام، ليس هذا حسب، بل أن قسم الأحكام الثقيلة باشر بجرد أنواع الدعاوى وتصنيفها.. الى آخر الكلام الذي يمكن لضخامة وتشعب مادته يصلح لوضع كتاب مستقل!

ظلت الشائعة مستمرة تنتقل من مناسبة الى أخرى مثل بهلوانات السيرك من دون

أن يصاب مروجوها بالملل أو اليأس أو العطب، فبعد أن انقضى نيسان، جاء دور تموز، وحين انتهى شهر (الثورات!) تشبثوا من جديد بعيد الفطر، ثم عيد الأضحى، فعيد الجيش.. الخ.

وحدي كنتُ وقلة من السجناء نعلم أن أمراً شهماً ونبيلاً لا يمكن أن يصدر إلا من قبل رجال فرسان لا وجود لهم بين زمرة المافيا المشغولة تماماً (بامور أكثر ثورية!) كتهريب النفط، وبناء المزيد من القصور الفارهة، وزج الكثيرين في السجون، واقامة المقابر الجماعية!

حين أنهيت كتابة هذا الفصل في ٣٠ ٦ ١٩٩٨ يكون قد مضى على ٢٨ نيسان/ ١٩٩٧ سنة وشهران ويومان، من دون أن أسمع بصدور عفو من أي نوع كان.. لكني أجزم لو ذهبت الآن الى السجن لوجدت الشائعة نفسها تدور على السنة الكثيرين ربما فقط أضيف اختلاف بسيط في التفاصيل.

الفصل السادس عشر

للإغتيال السياسي طرق متعددة

أخيراً إنطوت صفحة الشتاء المكفهرة بقملها وجربها وأمراض الالتهابات المعوية والجلدية والتنفسية، فضلاً عن بردها، برد العراق الجاف الشرس، وحلّت صفحة أكثر إكفهراراً وفزعاً إنها صفحة الفلفل الأحمر، الصيف العراقي المعروف بحرارته التي تفوق حرارة أية منطقة أخرى في العالم، حرارة طالما فجّرت زجاج محارير الزئبق!

جاءت بوادر الصيف على شكل أسراب من الذباب والبعوض والحرمس والنمل، فتخلّى مضطرين معظم السجناء عن ملابسهم، بما فيها الملابس الداخلية، والاكتفاء بربط الوزرات حول خصورهم كما يفعل عرب الخليج، على الرغم من أنّ ادارة السجون لا تتسامح مع حالة من هذا النوع لأسباب أخلاقية (!؟) على اعتبار أن العري يسيء الى تقاليد السجون في العراق، وطبعاً من دون معرفة الأسباب ومعالجتها.

ولأن الموضوع من القسوة والفظاعة بحيث أنني أحار من اين أبدأ، ثم ان القصاصات التي هربتها مع افراد أسرتي تتكوم الان أمامي بكمية يُعد مجرد فرزها وتبويبها وترتيبها كما يقتضي الأمر، قبل البدء بالكتابة مسألة تثير الصداع، والألم في الصدر.

لكن ليس أمامي من حَل سحري، ونظراً لأهمية الموضوع وحساسيته، لا أملك غير أن احاول من باب عسى ولعل..

الحاجة والحرمان والحزن على رأي الفلاسفة تمثل الجوانب الأساسية الايجابية التي تتصل اتصالاً مباشراً بوجودنا ككائنات عاقلة – هل الانسان كائن عاقل حقاً؟ لو كان كذلك، لما أقدم على ترسيم الحدود، وسك النقود، وإختراع الأديان والأحزاب والسلاح والزواج، حيثُ أسهمت، الى مدياتٍ بعيدة ، اختراعاته الرهيبة هذه، بتعاسته، وهلاكه المُبكر!! ذلك أنّ الحاجة وأخواتها المحرك الأساسي لإشباع الرغبات التي من دونها تصاب في الصميم حياتنا بالعطب، فتخيل اية حياة حياتي وأنا اعيش وسط مجاميع تستكثر عليك مجرد الرغبة في ان تجلس وحيداً في سريرك، تقرأ وتكتب او تفكر،او تدخن، أو تحلم في صمت؟

المجاميع تراقبك وانت تأكل، وتراقبك وأنت لا طعام لديك على الاطلاق لتنسج بمزاج

سافل، في كل الاحوال حكايات المناكدة والسخرية والشماتة!

المجاميع تتناوب منذ الفجر وحتى منتصف الليل الجلوس حول حوض الحنفية اليتيمة تنهرك إن تجرأت ومددت كويك لملئه بالماء لتشربه، وتنهرك إن دفعت كفيك من أجل غرفة ماء تغسل بها وجهك في الوقت الذي يحتشدون محتلين المكان لملء (جلكاناتهم) الكبيرة، الويل إن تساءلت او تذمرت أو اشتكيت، الامر الذي يجعلني أتذكر ما ذهب اليه الفيلسوف الألماني (كانت) في هذه القضية، وفكرته عن الضمير الذي (يولد) مع الناس نتيجة لكفاحهم الأخلاقي المشترك الطويل، من اجل أن تكون حياتهم على النحو الأفضل، وليس ضميراً مكتسباً من البيئة الراهنة والمجتمع كما يقول الفلاسفة الماديون، لذا أدعوه أن ينهض من قبره ويأتيُ ليرى بعينيه الذكيتين كيف تستحيل الحياة الاجتماعية للآلاف هنا الى جحيم، وكيف يعيش بضع عشرات منهم حياة لا علاقة لها بحياة الآخرين من الوجهة الأخلاقية والإنسانية على الرغم مما اقترفوه من جرائم بحق المجتمع، وهذا ليس بسبب غياب ما يسمى بالضمير، بقدر ما هو نتاج طبيعي لوفرة الامكانات الاقتصادية التي برعوا في نهبها عن طريق مجموعة من الممنوعات كالتهريب والرشوة واستغلال الموقع الحكومي والمضاربات، اذحلَت الامكانات الاقتصادية بقوتها العمياء الفاعلة، محل الضمير وأزاحته بعيداً جداً..

النقيب (ابوعلاء) ضابط من الفرقة المدرعه الثالثة، خمس سنوات سجن، التهمة سرقة تجهيزات عسكرية، أقام له (بسطية) لبيع الشاي والسجاير والأدوية، أراه الآن بأذنيه الشبيهتين باذنيّ حمار وقد جاوزت الساعة الحادية عشرة ليلاً يجلس خلف بسطيته وقد غفا على كرسيه وحيداً، أشبه بمتسولة تنتظر مجئ آخر القطارات الليلية، كثيراً ما أمسكت به عيناي وهو يحتسي، خلسة القطرات المتبقية في قناني المرطبات الفارغة..

الباحثات الاجتماعيات وقد يئسن تماماً من جدوى تنظيم استمارات خاصة ببحث العلاقات الاجتماعية بين السجناء وذويهم بعد أن فقدن الرجاء بمن يتابعها إذ أمست ليس أكثر من حبر على ورق، على حدّ قول احداهن وهي تنهر سجيناً لحوحاً، أخذن وقد علقن على باب غرفتهن عبارة تمنع السجين من المراجعة شخصياً، يمضين الوقت بالثرثرة في شؤونهن كعوانس معتقات،وبأشغال الحياكة!

وتلمح عبارة خُطَت بالبويا الزرقاء تقول: [الباحث الاجتماعي الشمعة الروحية

للسجين] على الرغم من أنني لستُ عالماً في قضايا الفسلجة والتشريح، لكني أزعم أن ذوي الرؤوس الكروية كرأس غريبا تشوف مثلاً، يتميزون عن أقرانهم من البشر أصحاب الرؤوس المثلثة أو المربعة أو البيضوية بالحماقة، والتصرفات الصبيانية، بمعنى انهم أشخاص لن ينضجوا أبداً. جاءت بهم (القوانين المرعبة!) من مدن وقصبات العراق كافة، وقدمتهم متبلين على أطباق عريضة لقمل الشتاء، وبعوض الصيف، يشكون الرب في عرشه المقدس: [يا رب! اذا تم إفناؤنا، كما يخططون، فأين ستجد سوانا عباداً مشهوداً لهم من بين كل شعوب الأرض، بالسجدة الطويلة النصوح، المختتمة بالتضرعات؟] نسوا كل شيء، نسوا أن لهم بيوتاً، وزوجات، وأبناء ومشاريع وطموحات، نسوا خصومهم، وكل ما كانوا حصلوا عليه بالتلفيق والنفاق والصفاقة، نسوا أصدقاءهم ووظائفهم وذكرياتهم.. نسوا أن يحلقوا ذقونهم، أو يقصوا شعر رؤوسهم، وتقليم أظفارهم وخياطة أزرار ملابسهم التي قطعتها المشاجرات، نسوا رتق ملابسهم الممزقة عند مؤخراتهم، نسوا كل شيء يربطهم بعالم البشر، صار جهدهم وقفاً عند شيء محدد أسمه: لقمة! لقمة طعام، صمونة من حجر، وقدح شاي، وإذا ما أختتمت الوجبة الربانية بسكارة سومر سن طويل، فتلك هي النعمة القصوى!.

ما أكثر ذوي الرؤوس الكروية هذه السنوات، في السجون، أو خارجها؟

نسوا أو تناسوا لا فرق، صاروا يكثرون من الصلاة، أكثر من نصفهم عرفوا الصلاة هنا، في الجحيم الأرضي هذا، شعوراً منهم بما اقترفت أيديهم من أفعال تغيظ الرب، أنه اليأس من أيما رحمة يشحذونها، سماوية أم أرضية، أنهم نعام هذا الزمن بامتياز، أراهن أنهم سينسون، أول ما ينسون الصلاة حالما تطأ أقدامهم الشارع العام، مشكلة هؤلاء، مشكلة مرّكبة، أنهم السبب الرئيس وراء سيول المهاترات والملاسنات اليومية البذيئة التي تحصل عند حوض الغسيل حيث يلتمون على الدوام للوضوء، اذ يمارسونه بطريقة استفزازية، يتكنون ويطيلون ويجتهدون في شعائر الوضوء، تسهم في ذلك شحة الماء المزمنة وقلة الحنفيات– أربعة لكل قاطع يتراوح عدد سجنانه ٣٥٠ ٤٠٠ سجين، الأمر الذي شجع على شيوع نكتة يطلقها غير المصلين حين يطلق سراح مُصل، اذ يعمدون الى الهمس باذنه عند الوداع:

– [شيخنا! مؤمن الآن، لو ملحد؟]

يضحك ويردد بصوت مسموع وعضلات وجهه تتراقص:

- [إتق الله يا رجل! متى تعرف أن للضرورة أحكاما؟]

الرسالة وصلت، فيضحك الاثنان ومن حولهما.

بسبب الحاجة الملحة لبعض الأدوات، ولكثرة الممنوعات داخل السجن، برع السجناء باختراع بدائل بطرق عجيبة غريبة.. السكين آلة جارحة، فتحايلوا على الأمر إذ عمدوا الى شحذ مقابض ملاعق الطعام بالأرض الكونكريتية.. وبدلاً من المقاعد، صنعوا من علب الحليب، وزيوت الطبخ الفارغة مقاعد غلفوها بالاسفنج والقماش.. ومن الحقن الطبية الجاهزة، أخترعوا مفاتيح للتيار الكهربائي.. ولنشر ملابسهم وأغطيتهم صنعوا كلاّبات من حديد على شكل الحرف (S) الأنجليزي، وعلقوها بواسطة عصي طوال عند سقف ساحة القاطع المغطاة بالحديد المشبك.. وحتى يحولوا دون تحايل بعضهم في استخدام قناني غاز الطبخ، لانشغال أصحابها لسبب ما، اخترعوا طرقا عدة تحول دون ذلك، من بينها نزع الحلقة المطاطية عن عنق الاسطوانة، أو صنع أقفال بسيطة لكنها فاعلة على شكل صليب، وغير هذا الكثير..

•••

ذات يوم وأنا أجلس كعادتي في إحدى زوايا الممر، ساهماً، وثمة أفكار كثيرة تتصارع داخل جمجمتي، اقترب مني سجين في العشرين من عمره، خاطبني بأدب جم وأستحياء:

"- يا عم! هل سمحت لي بِنفسٍ من سيجارتك؟"

حدَّقتُ بالشاب ملياً، كان قد عمل الموس كثيراً في ذقنه وشاربيه لكي يصبح رجلاً قبل أوانه، وفهمت أن إعطاءه سيجارة، أهم بكثير وهو في ظرفه العصيب من إلقاء محاضرة في الأخلاق، أو مضار التدخين، أنه ببساطة يشحذ سيجارة، لا بل (نفس) من سيجارة ليس إلا! أخرجت علبة السجاير، وقدمتها، كما يقدم في العادة رجل لرجلٍ سيجارةً، مدّ إصبعيَ الإبهام والسبابة، كان إصبعاه يرتجفان، ترى يرتجفان خجلاً، أم من الفرح؟ وهما يقتربان من المسك بسكارة كاملة، حتى وإن كانت من نوع سومر ذات النكهة الرديئة؟

أشعلتها له، إمتص منها نفسين عميقين، ثم أطفأها ووضعها في جيبه، ومضى، مارست مثل هذا (الكرم!) بداية أيامي داخل السجن كثيراً، حتى اذا ما اكتشفتُ أخيراً أنني أنما أتعرض للنصب والاحتيال، في معظم الأحيان، ثم أنك اذا ما انتهت سجايرك

فلن تجد من يعطيك حتى أولئك الذين سبق واعطيتهم، حينها رحتُ أتظاهر بالصمم أزاء شحاذي السجاير الآخذين بالتكاثر!

•••

اليوم جمعة، لا شيء جديد في مجتمعنا المعزول، المقذوف بعيداً، الصخب على أشدّه بسبب الحيّز المكاني الضيق المرميين فيه، اذ في مثل هذا اليوم تقفل الأبواب في القواطع كافة، لا يسمح للسجناء بالتجوال في الأقسام الأخرى، رغبات الجميع تنحصر في أشياء سخيفة محددة، لا تتجاوز غسل الملابس، ونشر الأغطية، وإعداد الطعام، ولذا من السهل تخيل المشاكل التي تنفجر في كل لحظة، بسبب استحواذ بعضهم على الماء، او الساحات المكشوفة للشمس.. وحدي أتصمّغ على فراشي، أتصفّح في مجلة، او أدوّن بعض الأفكار وأرزمها بانتظار تهريبها عند قدوم العائلة لزيارتي، وكنتُ ألمح صغيري (أنس) وأنا أربط رزمةً من أوراق مسودة الرواية هذه، حول فخذيه، برباط من مطاط، داخل حمام القسم، ألمحه مزهواً، كأي طفل شجاع يرى نفسه وقد خصه أبوه، من دون بقية أخوته الكبار، القيام بعمل يتسم بالمخاطرة! أحياناً تجرجرني، عنوة ذاكرتي الى بغداد المدينة والناس، أخرج من بيتي برماً فطلبات العائلة لا تنقطع، وليس لدي القدرة على تنفيذها، أستقل سيارة قديمة، تتوقف كثيراً، لتهبط منها الناس أو تصعد، أمر على مساجد فأرى كيف أزدحمت الساحات المحيطة بها بالسيارات الفارهة يهبط منها قوم مرّيشون، تنز عيونهم دخان الغطرسة، وتنم حركاتهم عن الترفع واللامبالاة لا أرى فقيراً واحداً، الفقراء يجوبون الشوارع والساحات والأزقة يبيعون ما تبقى من آثاث وأواني بيوتهم، او يعرضون أنفسهم لخدمة ما، أو يتسولون، يقال أن بعضهم يعرض أبناءه للبيع من أجل أطعام بقية أخوته ..

الساعة الحادية عشرة يكون مقهى (حسن عجمي) قد أكتضت بزبائن يوم الجمعة في معظمهم من كتاب النظام، الذين يزدادون بدانةً فرط المكرمات السخية التي لا يكف يصفعهم بها (القائد الضرورة، أو القائد الحبيب، او القائد الرمز، أو فارس الأمة) وغيرها من الألقاب التي خلعها عليه. جمع الأبالسة الداجن، وبالمقابل نزداد نحن هزالاً وجزعاً، أنسلّ خلسة محاذراً أن أسلم على أيّ منهم وإذا ما أضطررت يوماً الى ذلك، وهو أمر نادر، يكون ليس أكثر من تلويحة، باهتة وسريعة من يدي، من دون كلام طبعاً، أرميها عليهم كما لو أنني رميت عقب سيجارة أحرق أصابعي! هم يعرفون ذلك،

اذ نقل لي أحدهم أنهم يتهمونني بالأنطوائية والأكتئاب، وقد أقدم على قتل نفسي! أضحك وأقول: السياهي يقتل نفسه؟ كلا، إنه سينتظر ليكون شاهداً على موتهم هم، أو ضياعهم أو جنونهم !وأخذ مكاني المعتاد قريباً من مبردة الهواء القديمة، لحظات ويلتف من حولي بعض الأدباء الذين على شاكلتي: يمضغهم العوز، وتمزقهم مظاهر عذابات الناس، وتثير غضبهم ثرثرة وضحك (شلة الخراب) كما كنا نسميهم، والتي أحتلت وسط المقهى، سادرون في النيل من رموز العراق الابداعية والوطنية، فالجواهري برأيهم مجرد سارق أفكار من الشاعر معروف الرصافي، البياتي مهووس وليس لديه سوى ديوان واحد (أباريق مهشمة) وسعدي يوسف، لا جديد لديه، أنه يكرر نفسه، مظفر النواب، أكبر البكائين في المناقب الحسينية، وأن (تخرصاته) على التاريخ العربي الاسلامي، ليست سوى قناع يخفي وراءه أصله غير العربي، وأن السياب شأنه شأن شكسبير ليس مثقفاً، وأن أبداعهما وليد ما يسمى بالألهام !!

حين ينتصف النهار يبدأون بالانصراف الواحد آثر الآخر عائدين الى جحورهم التي أتوا منها حين ذاك فقط يهدأ جو المقهى، نلتم على بعضنا في حميمية أكبر، نتحدث باصوات خفيضة عن مشاريعنا في الكتابة أو القراءة أو السفر، الأخير هو ألاكثر ألحاحاً، اذ صار حلماً عصيا على التحقيق، بسبب ضريبة السفر الباهظة التي فرضتها زمرة المافيا، وكيف تدبرنا أوضاع أسرنا في الأسبوع المنصرم، وماذا نحن فاعلون في الأسبوع المقبل؟ وتكون الساعة قد جاوزت الثانية بعد الظهر، ويكون الجوع قد خسف بطوننا فامتلأت بالهواء، نجرجر أقدامنا الى أقرب مطعم سفري يبيع سندويشات الفلافل، نجمع نقودنا ونعقد العزم، ثم نتشظى عائدين الى بيوتنا، متوكئين على بقايا قلوب عصف بها الغضب والأحتقار، وبغضب وأحتقار أقفز بوجه اللوطي (ابو ستار) الذي جاء يمازحني اذ سكب الماء البارد على ظهري، فاعادني بفعلته الحمقاء هذه من شرودي العظيم خارج السجن .

...

العشرون من حزيران كان يوماً شديد الحرارة، إنقطع فيه الماء فازداد العذاب عذاباً، في ساحات القواطع الضيّقة، والممر الرئيس جموع السجناء تتلاطم ببعضها مثل الحيوانات المجنونة، فكانت المشاجرات سيدة الموقف، وثمة مجموعة من الحراس يتسلى أفرادها بجلد المشاغبين، وكنت منذ اكثر من ساعة ملتصقاً بفتحة صغيرة في

شباك الممر لا اريد ان أغادرها على الرغم من ارتطام مئات الجثث بي بطريقة مقصودة ام عفوية، أنهم يريدون إزاحتي عنها والاستيلاء عليها، فهذه الفتحة المباركة تمدني بالهواء، وتسمح لي أن احدق في الفراغ القذر الممتد بين مكاني وسجن الاحكام الطويلة، يقال أن قسم الاحكام الطويلة يضم، أكثر من سبعة آلاف سجين، مثقلين بأحكام أقلها عشر سنوات، في حين تصل بعضها المئات من السنين، سجن تعاقبي، بمعنى يمضي المتهم فترة حكم الجريمة الاولى، ثم يبدأ بمدة الجريمة الثانية وهكذا حتى تطلع روحه!

يضم ايضاً قسم الاعدام الذي تُطبق أقفاصه الحديد الضيقة على العشرات، وربما المئات من عُتاة المجرمين، وذوي التهم السياسية، الطرفان بانتظار مقصلة (أبو وداد) تعلقهم يومي الاحد والاربعاء من كل اسبوع من رقابهم، ولا من سمع ولا من درى!

يقال منذ البدء بغزو ايران، إرتفع عدد عتلات المقصلة، التي من صنع (أحمر علمنا!) من إثنتين الى سبع، يعلقهم ابو وداد الورد، دفعة واحدة، مثلما يُعلَق الدجاج في آلات الذبح الحديثة ثم بحذائه الذي يحرص على تليمعه كل يوم يضغط على زر كهربائي، و.. هوب، سريعة وخاطفة فتتدلى الجثث اذ إنشقت من تحت أقدامها الارض، ترفس الجثث في حُفَرِها العميقة ثم تستكين.

في الوقت الذي تُسحبُ فيه الجثث خارج الحفَر، ينسحب ابو وداد الى غرفة مجاورة يسبقه (حلوه) الخاص يحتسي كأس خمرته ويدخن، ويستمع من خلال جهاز تسجيل الى أغنيته المفضلة (عودتَ عيني على رؤياك) يتقدم طبيب إختصاص، يقتلع عيونها ويحفظها في قناني من زجاج مملوءة بمادة الفورمالين.

أخيراً توضع الجثث في أكياس خاصة، وتُشحن بسيارات فورد سود، وترسل الى مقابرها المجهولة!!

وأنا أطيل التحديق في تلك البقعة السبخاء من الارض، أقبلتْ كلبة ملحاء يتبعها ثلاثة جراء، توقفت عند مستنقع آسن تكَوَن، على ما يبدو من جراء تسرب المياه من توصيلة لأحد الانابيب لم يحُسن ربطها، ثمة كلب قذر كان قد سبقها وتمدد عند حافة المستنقع حين رآها مقبلة رفع رأسه وحرّك ذنبه، إشارة واضحة للترحيب والدعوة للاستجمام! حفرت بمخالبها في الطين ثم أنطرحت بكامل طولها من دون أن ترد على التحية- يبدو أنها مشغولة بقضية الحر، أكثر من غزل كلب غاطس بالوحل!- ومن

حولها نطَّ الجراء في سرور، ثم استكانوا الى جوارها، ابتسمتُ بمرارة وهتفت باستياء:]ياإلهي! حتى الكلاب تتفهم، في مثل هذا الجو السافل، ضرورة المكان البارد![الى الجنوب من فصيل الكلاب السعيدة يقف احد الحراس داخل كشك الحراسة البدائي وقد سقطت عليه مباشرةً أسياخ الشمس، فراح يتثاءب ويروِّح بيريته على وجهه المحتقن، ولعله اكثر مني حسداً للكلاب الراقدة في جنّتها الطينية، إذ كان ينظر نحوها ويتململ في مكانه.

مجدداً انظر نحو مشهد عائلة الكلاب المستلقية على الطين البارد، كانت الساعة الخامسة مساءً، فتمنيت لحظتها لو أن زوجتي أيضاً هي الآن من جانبها تنام تحت هواء المبردة القديمة، وينام من حولها الأطفال، يشملهم الهدوء ذاته الذي يشمل أسرة الكلاب العاقلة هذه!

أشعلتُ سجارتي الثالثة وعدت الى وجري مسحوباً من عنقي، وكان الماء لا يزال مقطوعاً،والسجناء يشحذونه أو يشترونه من بعضهم!

العنقرجي (ناصر الجرو) مثل كل مرة، يحتال بطريقة مكشوفة على جمهرة السجناء التي تتكوم حول قدر الرز النزير، ويعوي بصوته الوقح: سِرَه، إلزموا سِرهْ، غير أنه يوزع صراحة نصف حصة القاطع على معارفه من السجناء، هناك من يقول أنه حين يتصرف على هذا النحو من دون خوف أو حياء مقابل (٢٥٠ ديناراً إسبوعياً عن كل واحد منهم،هناك من يشتكيه الى الإدارة، أوالى مراقب القاطع، لكن من دون فائدة على الإطلاق، فكل شيء من هذا القبيل أعدّ له سيناريو على نحو جيد، سيناريو قابل للاضافة بما يخدم (الهدف) ذلك لأن النقود التي يحصل عليها ناصر الجرو، ليست له وحده!

سيد محمود يلازم زاويته، كالعادة ينظف بمزاج ثور طباخه الغازي الصغير بالماء الساخن والصابون، ثم يجففه ويعكف يعدُ وجبته المسائية الأثيرة: رز مع البطاطا والطماطم والبصل يفرغها في صينية عريضة وينكفئ يلتهمها مع الثوم، ينخر كالحصان ساعة يكون في معلفه، ينخر ويلتهم بيده الضخمة، الويل لمن يقترب من طباخ السيد، أو يرجوه أن يسمح له باعداد وجبة طعام سريعة من دون مقابل، إذ يسمعه كلاماً من الاكثر بذاءة بين الشعوب، (سجاد) كما في كل مرة يناكده، هو وحده الذي يستطيع الاقتراب منه والدخول معه في حوار، ينتهي في العادة الى شجار شرس،

سجاد هذا ضحكوا عليه قبل اسبوع حيث حلق صلعته التي تحتل مقدمة فروة رأسه من دون أن يمس شعره من الخلف، حلق الصلعة ثلاث مرات متتالية بالموس، وطلاها بالحناء، لكن من دون أن تنبت شعرة واحدة كما زعموا!

(كريم) الذي ضحك ملء فمه على القضاة والمحققين وأطباء مستشفى الأمراض العقلية، إذ إدعى الجنون، يبدو أنه أجاد تمثيل دوره الصعب، فكوفئ بدلاً من الاعدام أو المؤبد، كمتهم بسرقة ليلية مقرونة باستعمال العنف ضحيتها صاحب معمل للحلويات، بحبسه سنة ونصف! منذ الاسبوع الأول من مجيئه الى السجن، راح يلعب كرة المنضدة كأمهر لاعبيها!

يقول فولتير: [سنرث العالم كما وجدناه في سخافته وشرّه وفساده..]

الأشقياء هنا، أو الذين يطمحون الدخول الى عالم الشقاوات من بوابته الحمراء من الناشئين الذين في طور الإعداد، رأس مالهم هو عدد المشاجرات الدامية التي خاضوها ضد أشخاص مشهود لهم بالجسارة، وعدد العقوبات الإنضباطية التي وقعت عليهم من قبل ادارة السجن، وعدد مصادماتهم مع أفراد القوّة الاجرائية ذلك أن الذي يتحدى سجاناً أمام الملأ، ينظر اليه كشخص لا يتوانى عن ذبح سجين لأتفه الأسباب، فيتحاشى الجميع إغاظته، وتسهم نوع جريمته في ترشيحه: قتل عمد، سطو مسلح، تسليب، إغتصاب، وعدد مصادماته مع الأجهزة الأمنية، وما شابه ذلك!

في هذه اللحظة يجلس قريباً من سريري مجموعة من هؤلاء الشباب الذي أتوقع لهم (بطولات) كبيرة في المنحى الذي بصدده.. عيدان، محمد الأسود، موفق، الثلاثة أسمعهم يستعرضون بمباهاة كبيرة، بطولاتهم أيام كانوا خارج السجن، أعترف أن لهم عقولاً ذكية، لكن في الجريمة تخطيطاً وتنفيذاً، أنهم وشلة أخرى تماثلهم في الأعمار ٢٠ ٢٥ سنة، وفي النوازع الشريرة، وسوء التربية طبعاً، أنا لا أقصد بسوء التربية هنا بمعناه التقليدي الذي يحمل مسؤولية الجنوح لكل من البيت والمدرسة، كلا. أنا لا أومن بمثل هذه الآراء البسيطة الساذجة، الذي أرمي اليه: صوت الشارع الذنبي، حاضنة رفاق السوء الذين يتكاثرون تكاثر البكتريا، الحروب ونتائجها، السينما والتلفاز حيث أفلام ومسلسلات العنف والجريمة المنظمة.. ليست هناك امرأة تخلق بغياً، وليس من رجل يولد بدم ملوث بجرثومة الجريمة، الميل الى الجريمة لا يورث شأن لون الجلد، وبعض تقاطيع الوجه، كما يذهب بعضُ علماء النفس والمجتمع الأغبياء، الانحراف الابن

الشرعي لبيئة ملوّثة حيث الفقر، والتمايز الطبقي الصارخ، وفقدان العدالة في التحصيل الدراسي، وفرص العمل، وتوزيع ثروات البلاد، وهذه مجتمعة عملت على تكريسها زمرة المافيا!

الشلة المسكينة هذه يواصل أفرادها على الرغم من حداثة سنهم وعوزهم، الليل بالنهار مصطولين لتعاطيهم أقراص المخدرات على الرغم من أسعارها الباهظة: القرص الواحد نوع (أبو الحاجب) سعره [٥٠٠ ٧٥٠دينارا] هناك أنواع أخرى كثيرة تباع باقل من ذلك، وإن ظلّ سعر أردئها، في كل الأحوال لا يقل عن [٢٥٠ ديناراً] للقرص الواحد طبعاً!

هذه الشلل أو الزمر أو المجاميع المنحرفة تعيش مع بعضها ضمن دائرة مغلقة من العلاقات والأسرار، لا يختلطون بالآخرين، ولا يتدخلون في شؤون سواهم الا فيما ندر. يخالهم من لم يعايشهم عن كثب لأصواتهم العالية وسلوكهم المتحلل وانطفاء سحنتاتهم خطرين عدوانيين ومشاغبين، لكنهم على العكس تماماً، أسخياء ومرحون وأنيقون اذ يتبادلون، شأن الموظفات الفقيرات الملابس والأحذية، خطورتهم فقط تكمن على الشباب من الذين تنقصهم الخبرة في عالم السجون، اذ يلعب تقارب العمر والميل الغريزي المعروف لدى الشباب نحو الطيش واللامبالاة ومحاكاة أقرانهم، الأمر الذي يجعلهم مهيئين للسقوط بسهولة في فخ واحدة من حلقات (الكبَسله).

عشتُ وشلة منهم في غرفة واحدة، غرفة رقم خمسة من القاطع الثاني، فوجدتهم أكثر ميلاً للهدوء، وأصواتهم غالباً ما تكون همساً، ولعل مرد ذلك، في جانب منه ثقل ألسنتهم بسبب تناول الأقراص المخدرة، أو خشية أن يجلبوا انتباه الأخرين فيشكونهم سراً، كما أنهم أقل أقرانهم من المصلين استخداماً للالفاظ الماجنة، وأقل ميلاً كذلك لحياكة المؤامرات، لا يعرفون البخل على ما هم عليه من عوز.

يعذبون أنفسهم، نعم، بطرق فظيعة.. يسمعون النصحية غير أنهم لن يأخذوا بها! لن يفلت من العقاب من يشي بهم الى ادارة السجن، التي تعاملهم، في الكثير من الأحيان لجهلها المطبق، بقسوة لا مبرر لها، ذلك أن اعادة مثل هؤلاء الى جادة الصواب يحتاج الى كادر طبي متخصص، وليس الزجر والتخويف والاهانة والحط من الكرامة الانسانية، إنهم بحاجة الى من يعيد بناء شخصياتهم المشظاة، بصبر وبالطرق العلمية المتبعة في العالم المتحضر، لانها وحدها القادرة على إستيعاب الظاهرة واحتوائها

ومن ثم معالجتها بحذر، ورفق ومن دون تطيّر.

ما أن تفتح أبواب القواطع على بعضها في الفترة المسائية، حتى تجتمع زمر الكبسلة عند باب القاعة رقم عشرة حيث سرير (البندرجي علي) انها القاعة التي نقلت اليها منذ ثلاثة اسابيع، ألحظهم يتهامسون، ويعدون نقودهم، غير أن السيد علي، بندرجي المخدرات يتظاهر من جانبه بتجاهل وجودهم، يغادر سريره فيلحق به أحدهم يتودد اليه: س- أبو حسين، حبيبنا من أزعجك؟"

يتمثل الجد: "- أنتم ناوين تخربون بيتي؟"

يضحك محمد الأسود ويتأتئ: "- علاّوي! هي ظلت بيوت موخربانه؟"

طيب: "- انتهى ابو الروج، زين؟ عندي نمبر فايف فقط.."

بحنق يقول موفق: "يكذب، طول عمره يكذب، أكيد سعر جديد!"

طبعاً لن يتفرقوا، انهم سيحصلون على أقراصهم المبتغاة، اذ خبروا بالتجربة، أنه حين يتظاهر بذلك فمن أجل فرض زيادة جديدة على الأسعار، محمد الأسود يضحك كعادته وهو يتندر: "- أنت تعرفنا زين، مو من الجماعة.."

ويومئ برأسه نحو الغرفة رقم (2) المخصصة للمهربين، والمسؤولين المرتشين، الأمر الذي يثير قلق علي البندرجي، إذ يطوّح بيديه عالياً ويهتف:

زهمَ دخّلنا بالسياسة؟"

فيلطم محمد الأسود يده على فمه، علامة الخرس، إبتسم بمرارة شديدة متذكراً حالي وعشرات ممن يتعاطون الخمرة، يوم كنا نتجمع مساءً عند دكان (عثمان الكردي) بائع خمرة الهبهب القوّية عند منطقة الدوريين في علاوي الحلة، وكيف يمارس ساديته، حين يطل علينا من دكانه الصغير المكتظ بلاعبي القمار، يهذر وعضلات وجهه الشيطاني تتراقص

" - تفرقوا، تفرقوا الشرطة اليوم متخبلين"

أو "- ما عندي، ما عندي اليوم"

لكن، حين يرانا افترشنا الرصيف المحاذي لدكانه، والأرصفة المقابلة، وكل واحد منا يحمل كيساً بداخله قنينة فارغة، لاننا، صراحة لا نملك أسعار الخمور الرسمية التي أرتفعت على نحو فاحش على ضوء قرارات ما يسمى (بالحملة الايمانية!) التي اخترعها

رئيس زمرة المافيا بديلاً عن خطابه القومجي الكاذب الذي مزقه بغزوه الكويت، حينها يضحك الكردي عثمان، وقد أشعره تجمعنا باهميته، يفتح قليلاً الباب، وينادي بصوت هامس:

"- تعالوا، وليداتي تعالوا، بس من دون مشاكل!"

من حنفية مثبتة الى أدرام بلاستك أصفر كبير، يملأ قنانينا الزجاجية، ويدندن بلحن فارسي مؤثر فننصرف مسرورين!..

يلقبونه (قوقو) واذا أرادوا أن يدللوه، فينادونه بـ (قوقي) كالنابض يهب من مكانه حالما يسمع ذلك، على امل ان يطلب منه خدمة ما مقابل سجارة أو صمونة أو رأس بصل، حين يكتشف أنها مجرد مزحة ثقيلة، يعاود الجلوس، ويرف في استياء ببقايا ذراعيه!

إني لفي حيرة شديدة، اذ كيف يتمكن من القيام بسرقات كبيرة خطرة كما تشي تهمه، وذراعيه مجزورتين عند المرفق؟

بعد مرور سنة على اطلاق سراحي، كنت ذات مساء بطريقي لشراء خمرة الهبهب البخسة الثمن من دكان سرّي في محلة الميدان، وأنا أسير في زقاق لا يزيد عرضه على المتر والنصف حيثُ البيوت التي يعود بناؤها الى بداية هذا القرن، يمنعها من الانهيار المؤقت إتكاء الشناشيل على بعضها، إلتقاني رجل نصف مخمور، يبدو أنه حدس هدفي، فخاطبني من دون أن يتوقف:

"-ما موجودين.." حثثتُ خطاي وحين صرت الى جنبه سألته:

"- لماذا؟" من دون أن ينظر نحوي قال:

"- داهمتهم الفرقة الحزبية!"

"- لماذا؟ انهم موجودون منذ مدة طويلة!"

نظر نحوي شزراً، واذ رآني متسربلاً ببدلة شبه جيدة، صرخ بوجهي ساخراً:

"- لماذا، لماذا؟ عجيب! جنه مومِن هذا البلد! يريدون تقاسم الأرباح.."

وبلهجة أعتذار ومصالحة تأتأتُ:

"- حسناً، لكن يا أخ أتعرف أحداً غيرهم هنا؟"

"- طبعاً، قوقو.."

"- قوقو؟ أين أجده؟"

"- تعال معي.

قادني عبر سلسلة من أزقة قذرة، تدور على نفسها، وكانت الدكات الأسمنت عند أبواب البيوت المشرعة، محتشدة بنساء متبرجات، تلتهمني عيونهن وانا أبدو في نظرهن من خلال كنزتي الصفراء وسترتي السوداء موسوراً، يثير أطفالهن ضجة عالية وهم يلعبون كرة القدم في الأزقة الضيقة، وكان دليلي يتوقف كثيراً مع أشخاص يلتقيهم، ويدخل معهم في حديث، وكنت مجبراً على انتظاره وعدم حثه خشية أن يغير رأيه ويتركني ليس من دون أن أصل الى (قوقو) بل ومن دون أن أعرف كيف أخرج من متاهة الأزقة هذه.

أوقفته احداهن وصاحت به:

"- فاضل! أشو لمياء ما تجينا؟" كانت نبرتها واضحة التوبيخ، يرد عليها وهو يوسع من خطواته:

"- والله يا أم عدي، مريضة خطيه"

فتجيبه وقد علت نبرتها الساخرة المناكدة:

"- أها، مريضة خطيّه! لعد شتدسوي، من الصبح لليل ابيت أم خالد؟"

لم يرد عليها، حنا رأسه ووسع من خطواته، وهي تصيح وراءه بصوت ملأ الزقاق:

"- كلها، درب الجلب عالكصاب!"

يسرني المشهد كثيراً، أسرع بدوري فقد انعطف وهو يلهث في زقاق يسده حصان قذر، وتصعد من حوله، فاغمة رائحة الروث، وألمحه يمرق خفيفاً تحت بطن الحصان الذي يراوح ويهش الذباب بشعر ذيله الطويل، أتردد، قلبي يرتعد خيفة أن فعلت مثلما فعل دليلي فاضل، أن يخبطني الحصان باحدى سنابكه القويّة (أخاك ليس بطلاً) وانما خشية أن أضيعه فاضيع، (طز!) أحذو حذوه متذرعاً بحياة الصعاليك، ينوشني على رأسي شعر ذيله اللانب، فجأة، أجد نفسي في زقاق قصير مسدود، لا يزيد طوله على خمسة أمتار، على جانبيه جلس على الأرض زبائن قوقو، شبه ثملين، شبه عراة، أقف في الطابور منتشياً بما أرى وأسمع من مشاهد سينمائية مثيرة، مأخوذة عن رواية

لكاتب أصيل ينهل مادته الابداعية من قاع المجتمع، من الحياة الحقيقية التي تدور في الأزقة الخلفية للمدن الكبرى، بعيداً عن شوارع البهرجة الكاذبة، والمال المسروق، والجاه الملفّق.. وأخاطبُ نفسي في تحدٍ: هاك أيها السباهي إغترف ملء دماغك، وكن على يقين من أنّ الصدق والجرأة شرطان أساسيان متلازمان في الكتابة، وإذا ما التحما ببعضهما، إلتحاماً مصيرياً، يذهبان بعيداً في التجربة الابداعية.. أبحث بعينين مندهشتين وانا أقف على مقدمة حذائي عن (قوقو) من خلال الشباك المخلوع، أسمع نبرته البحّاء وهو يحث مساعده الشاب على الاسراع بتلبية الطلبات فقد تداهمهم الفرقة الحزبية في أية لحظة، وألمح بقايا ذراعيه ترفان بالطريقة ذاتها حين يتلبسه الشعور بالخيبة أيام السجن، أمامي ثلاثة زبائن، يدخل مساعده في مشادة مع أحدهم أعطاه نقوداً مهترئة، يطل قوقو من الشباك بكامل قامته بعد أن زاح مساعده بجذر ذراعه، أناديه وقد تلبستني روح المداعبة: "قوقي، يا قوقي؟" ينظر نحو مصدر الصوت، فأخرج من الطابور ليراني جيداً، فجأة يشرق وجهه الصغير، وتتسع عيناه السوداوان الذكيتان، بصوت بشوش جمّد اللغط المتصاعد في الزقاق يصيح وقد أخذته المفاجأة:
"-مَنْ؟ الأستاذ الصحفي!" وترتعش بقايا ذراعيه وكأنه أراد لهما أن يستطيلا ليبلغاني، يتراجع الثلاثة الذين أمامي ممتعظين وأسمع أحدهم يتمتم: (هسه هاي وكتها؟) من جيب سترتي الداخلي أخرج الربعية الفارغة وأدفعها نحو مساعده مرفقة بمبلغ (٢٥٠ ديناراً، يأمر مساعده أن يعيد لي النقود، وقد تركزت أنظار الجميع نحوي في حسد واضح، ويصيح:

"- يا جماعة والله، هذا الصحفي أشرف وأشجع انسان رأيته بالسجن!"

يكرع أحدهم من فوهة قنينته، يتلمظ ويقول مناكداً:

"- صحفي يشرب هبهب، شلون؟"

ينتهره في احتقار: "- لك بومهْ، موكلت شريف!"

أرفع يدي شاكراً، وأرجوه أن يوقف مديحه، يرجوني أن أقترب منه، أتقدم، نتعانق من خلال فتحة الشباك، ثم أمر العامل أن يعطيني قنينة خمر كاملة، ألححت أن يأخذ المبلغ، فكان الرفض الصادق من جانبه، وحين ودعته عائداً، كان لا يزال يصيح ورائي:

"- أستاذ، الله عليك، تعال كل يوم".

وانا أنسحب، سحبت معي دليلي، وعلى مقربة من الحصان الذي أجتزته هذه المرة من دون خوف، أقتسمت معه خمرتي، ثم رجوته أن يدلني على الشارع العام، ففعل مسروراً، وحين هممتُ بمغادرته تعلّق بذراعي، إمتص من فوهة القنينة جرعة كبيرة، تجشأ ونفض رأسه مرات عدة لمذاق الخمرة، الحريف وتأتأ:

"- أستاذ، فدوه تعال أدليك عالبيت، حتى تجي براحتك؟"

برفق تخلصّت منه، وأوعدته بتلبية الدعوة في فرصة قريبة، لم أزره طبعاً، ولم أذهب الى قوقي، مرة ثانية!.

وأنا أحتسي خمرة (قوقي) القوّية، واسترجع استقباله الحار، عادت بي الذاكرة الى عالم السجن، رحت أسترجع بعض الأشخاص الذين ضمنتهم كتابي هذا، فتوصلت الى نتيجة مفادها: لو شاءت المصادفات والتقيت أولئك الذين بخلوا علي، وعلى الكثيرين بكوب ماء وهم الآن في ظروف مستقرة، لما ترددوا عن معانقتي ودعوتي الى بيوتهم، فدمعت عيناي لا بل انتابتني رغبة ملّحة في أن أهرع الى الحمام، أسد الباب ورائي، وأنتحب طويلاً، أيماناً راسخاً مني، من أن الانسان العراقي في جوهره: شهم ووفي وسخي، غير أن الظروف السياسية الرهيبة، التي قادته إلى جحيمها زمرة أبناء الرعيان، رمت به مكرهاً، بما يشبه العقوبة الجماعية حالت بينه وبين تحقيق شروط انسانيته، ظروف من التوحش بحيث لم تترك أمامه خياراً، غير خيار الصراع من أجل البقاء حتى وإن جاء البقاء عبر صراع حيواني شرس أعمى ومن دون ضمير!!.

•••

جاء الصيف بحرارته العاتية، فتخلى معظم السجناء عن الكثير من ملابسهم، فظهر للعيان ما كان تستره الملابس من أعمال الوشم المتعددة الأشكال والغايات: حراب، سكاكين، سيوف متقاطعة، سهام، أفاع، حيوانات مفترسة، وجوه نساء، نساء عاريات، والأكثار من طائر النسر تحديداً! أما وشم الكلمات فله حكايته الخاصة، اذ جعلوا من أذرعهم وزنودهم وصدورهم وظهورهم وكفوفهم وأقدامهم أيضاً جعلوا منها صحائف دوّنوا عليها، برؤوس أبر الخياطة وسخام القدور، تدويناً ثابتاً عبارات تجمع السذاجة والطرافة والغرور والجهل معاً:

[أمشي على الشمّات.. غدار يا زمن.. أراد الزمان يبكيني فما بكيت.. عمامي للغريب كالات.. أحذر ناب الأفعى.. الرجل سكين أو مبرد.. الخ] ثمة شباب وشموا على سواعدهم

عبارات فاجعة تفطر القلب، صارخة مولولة بفقدان الأمن والحنان والرأفة والمستقبل كذلك:

[أماه أين أنت.. أعز الناس أمي.. أماه متى نلتقي.. كعبتي أمي.. أهل الهوى مساكين.. أين ضاع مني شبابي.. الخ]

كشف العري أيضاً أفعالاً شنيعة كانوا قد قاموا بها ضد أنفسهم، مثل تشريط البطن أو الصدر او الرقبة أو الذراعين، تحت حالة يأس فظيعة بامواس الحلاقة! ثمة آثار أخرى جلية، وإن جاءت هذه المرة على شكل كدمات سود، وعقد وندبات، دليل عنف متوحش، عنف الهراوات والمواسير الصلبة، والكيبلات والكي بالكهرباء، والربط على أذرع المراوح وهي تدور، او التعليق من الأذرع أو السيقان بالعتلات المثبتة جيداً عند سقوف غرف التحقيق، الأمر الذي يدفع بعضهم الى القول، أنه إعترف بما اعترف به تحت ثقل التعذيب وضراوته، واذا أنكر الموقوف أمام القاضي ما كان قد اعترف به للمحققين، حينها يضطر القاضي لاعادته الى الموقف، حيث تجري له حفلة تعذيب انتقامية، أقسى واشد من الأولى ولن يتركوه إلا بعد أن يردد مئة مرة: نعم. رأيت نجوم الظهر.. والله رأيت شمس الليل! حتى إذا قدّم مرة أخرى الى المحكمة، وقفوا عند باب غرفة القاضي يتوعدونه بنظرتهم الحمر، إن هو نسب اعترافاته لوحشية المحققين، فيسقط في يده، ويعترف بصحة ما كان قد وقعّ عليه من أقوال!!

أحمد، في الخامسة والعشرين، وشم على مساحة ظهره صقراً محلقاً بعينين حمراوين، يلتقط بمنقاره فتاة من شعر رأسها.. جاسم الصقر نفسه فقط استبدل الفتاة بافعى، ستار، وشم ذئباً على ظهره، ينتهي ذنبه عند مؤخرته، ورأسه بين دفتي كتفيه، حين يراقص كتفيه يبدو الذنب يعوي!.

ووفق منطق السبب والنتيجة فقد برز الجذر الحيواني بقوّة لدى الانسان العراقي الذي أرغم على خوض بحور من الدماء المهدورة ظلماً وعدواناً، من أجل أن تدخل زمرة المافيا التاريخ محررة، دخلته غازية ملعونة الى الأبد، لذا ليس مستغرباً لو أنك رأيت بعض السجناء يتناوبون الحراسات على ما لديهم من ماء خوفاً من العطاشى المتربصين لسرقته، ومن كان ماؤه قليلاً مثلي، فإنه يحمله معه أينما ذهب!!.

لو أني دخلت الى السجن قبل عشرين عاماً من الآن، لكان قد تغير الكثير من حياتي، خصوصاً نظرتي الرومانسية للحياة والناس، تلك النظرة التي أورثتني الكثير من

المتاعب، حيث كنت أعتقد أن الأزمات حين تعصف بالناس، فانها بالمقابل تزيد من تماسكهم مع بعضهم، وتجعل جلّهم يترفعون عن الإتيان بالصغائر من الأمور، غير أن ما لمسه الجميع حين أطبق عليهم الحصار خنازير الداخل اولاً، وخنازير الخارج من عرب ومسلمين وغيرهما ثانياً، قد فرّق بين الناس الى مديات مفزعة، ليس الناس بالمعنى العام للكلمة حسب، بل بين من هم بدرجة الأب والأم والزوج والشقيق، فضلاً عن الصديق والقريب والجار، وقد أدى هذا الإنحلال الاخلاقي/ الاجتماعي الخطر الى أضمحلال دور الدولة بمؤسساتها كافة، وسقوط هيبتها وشعاراتها الملفقة بالوحل، وانكشف خطل إعلامها المزور الذي لا يريد أن يعترف بفشله الذريع، إذ بعد أن مزقت زمرة المافيا بايديها، في غباء مطبق الخطاب القومي الذي ظلت تنبح به أكثر من أربعين عاماً، تناولت بدلاً عنه الخطاب الديني، غطاءً لابد منه لاستمرار هذيانها، فاصبحت مقولة لينين الشهيرة شديدة الصواب (البرجوازية تحفر قبرها بيديها) فشاع عبر الخطاب الديني الذي أصبح ماضياً بعيداً للعديد من دول العالم المتحررة، شاع من جديد كمٌ هائل من القداسات المزيفة، راحت ترمى بوجوه الناس، على شكل دساتير ولوائح قانونية وتعاليم سرّية ومكشوفة، ولإعطاء اللعبة وجهاً يمكن أن تجتذب قسماته، على قبحها العديد من السذج والمغفلين، تراها تشتم من دون هوادة، وتهدد من دون انقطاع مظاهر الأستغلال والطغيان والاحتكار واللصوصية والجشع، لكن من دون القيام باجراءات رادعة حقيقية! وبعد لأي من الزمن نكتشف أن ما يحدث لعبة لتبادل الأقنعة، تقودها أيديولوجيا الزمرة الحاكمة- هل كان للزمرة الحاكمة أيديولوجيا بالمعنى المعاصر؟- وما أن ننعم بفرحة الاكتشاف الوضيع حتى يكونوا قد أنجزوا لعبةً وضيعة أخرى، وأطلقوها تركض على ألف قدم في الشوارع!

تراجعت الى الوراء مقولة الماديين والمثاليين معاً (البقاء للأصلح) وتقدمت على كل ما عداها فكرة الألماني القبيح (نيتشه): (اذا رأيت أعمى إدفعه واستول على ما بين يديه) كم تشاجرت من أجل الحصول على لتر من الماء؟ خصوصاً مع اولئك الذين ارتضوا العمل مقابل لقمة مدافة بالذل والأمتهان، عبيداً لدى السجناء الموسورين، ومع العصابات التي تستولي على مصادر المياه الشحيحة لتبيعه، خلسة للآخرين، نعم كم تشاجرتُ وعلا صوتي وبحّتْ حنجرتي، وكم من المرات كدتُ أضرِب أو أُضرب، وفي معظم الحالات يكون مصير مسعاي الفشل الذريع، مقروناً بالسخرية، فأنسحب أقذف في وجوههم القردية كلاماً ليس من قاموسي!

أَستعجلُ الليل كي أدخل (السفريات) أفرغ أمعائي ومثانتي وأنا أغمض عيني تحاشياً النظر الى آلاف الصراصر تغطي الأرضية والجدران، تتسلق الأقدام والسيقان فاشعر بقشعريرة مروّعة، وأضع يديّ بقوّة على أذني متحاشياً سماع أصوات أنقصاعها المثير للغثيان تحت نعالي، وأحبس أنفاسي عن روائحها المهلكة، وحين أقضي حاجتي بسرعة وإشمئزاز، أعمد كما يفعل الجميع الى تنظيف مؤخرتي بالخرق أو الأوراق التي حملتها خلسة لهذا الغرض!

فلاح، جسده الضخم الشبيه بالدب، يغطي الشعر الغزير الخشن ظهره وصدره وذراعيه اللتين وشم على أحدهما، بالأحرف الكبيرة (كفاية يا عين) يستولي كعادته منذ الفجر على حنفية القاطع الوحيدة، لن يغادرها إلا بعد أن يكون قد أتم ملء خمسة جلكانات كبيرة، وفي الوقت نفسه يكون أفراد زمرته قد أستولوا بدورهم على حنفيات المرافق الصحية، وأخذوا بعد أن إنتزعوا الحنفيات وأستبدلوها بمواسير مطاطية قصيرة، يسحبون بافواههم المياه المتبقية في المواسير الرئيسة، كل ذلك تم ترتيبه طبعاً مع مراقب القاطع الذي يتكوم على سريره الوثير يغالب هجمات الربو، ويحدق بتلفازه الخاص، فقد أخذ الـ (K.O) من الدائرة، الأمر الذي يجعلهم يستولون صراحةً على المياه الشحيحة غير عابئين بالآخرين مهما أسمعوهم من بذيء الكلام.

ذات مرة طلبت من فلاح الدب أن يسمح لي بملء قنينة بلاستك تسع لتراً واحداً، وكعادته تجاهل طلبي، تدخل أحدهم لصالحي، فرفع وجهه الشبيه بقفا سلحفاة كشرت عن أسنان حصان، ولامس اصبعي الابهام والسبابة، بمعنى (ورّق) حين ألححت، قال وهو يضحك، ضحكته الخليعة: (لك أن تتصورني، يهودي، خنزير، كلب، لكن لن أعطيك قطرة واحدة!).

قلت وانا ارتجف غضباً:- ان ما تفعله يأبى ان يفعله اليهود ببعضهم اذا ما وجدوا أنفسهم في محنة كهذه، وكذلك الكلاب، أنت من دون شك من سلالة ترجع جذورها الى الملعون عبيد الله بن زياد!.

علا ضحكه:- أشكرك أستاذ، أشكرك.

يبدو ان ادارة السجن، وقد اتضح لها خطر نقص الماء، وما قد يجره مثل هذا الأمر من مشاكل بعد أن ازدادت المشاجرات الدامية، لا سيما وأن السجناء قد دفعوا مالاً كثيراً من أجل شراء مضخات لسحب الماء، لكن ما أن تنصب في النهار حتى تسرق ليلاً من

قبل الحراس عمدتْ من خلال الضابط الخافر، ذات مساء حار كئيب ومغبر دعوا الى تجميع السجناء،! كل في قاطعه، رتبوهم على شكل أرتال وزودوهم بالماء المخزون تحت الأرض لأطفاء الحرائق، راح السجناء يخوضون حفاة في مستنقع ملحي، يتضاربون بالأيدي والرؤوس، يتدافعون بالمناكب، يصيحون ببعضهم في خشونة وعدائية، ويشتمون، وكان الضابط الخافر ومن معه من الحراس يوقفون على أثر كل مشاجرة دامية التزود بالماء، كعقوبة جماعية على عادة الجيش، وبعد توسلات ووساطات يرتفع فيها أسعار علب سجاير الأسبين، رشوة، يعاودون السماح لهم بجلب الماء المتعفن! حتى اذا ما أوشكت الشمس على المغيب أعادوهم الى القواطع خوفاً من حصول هروب جماعي.

لم أكن وعدد من المرضى وكبار السن، أن شاركت ولو مرة واحدة في هذه المسرحية المخزية، كنا نكتفي بالوقوف عند الشبابيك، نتفرج بقلوب مثقوبة على ما يدور في الخارج من صخب وضجيج وهراوات وتدافع على ماسورة الحريق التي تسحب الماء من الحوض الأرضي الكبير، على الرغم من أن هذا الماء لم يكن صالحاً للشرب، أو إعداد الطعام بسبب ركوده داخل الحوض مدة طويلة، وهذا واضح من كمية الديدان الكبيرة التي تسبح فيه، ومن النتانة التي تتحرر منه، وكذلك لونه المائل الى الاخضرار، لكن ماذا بوسعهم أن يفعلوا؟ فرغبة البقاء، وإن كان بقاءً يرقى الى مرتبة البهيمة، ترى السجناء يتحايلون على تنقيته بالغليان، بعد ترشيحه عبر قطع القماش!!

كان أكثر ما يغيظني سماع اللازمة السخيفة ذاتها، يرددها الحراس الذين لم يعرفوا ماذا يعني أن يكون الانسان عطشان؟ فضلاً أنه منذ أكثر من شهرين لم يستحم، ولم يغسل ملابسه، ولم ينظف مؤخرته، الحراس يرددون باصوات الثعالب الخبيثة على كل سؤال له علاقة بالماء: (بزر نستله، ها؟!) فيجر السجين والحال هذه على الدخول في عراك مجهول النتائج، فمن دون ذلك لن تحصل على حصتك من الطعام والماء، ولن يحترم أحد فراشك، ولن يسمح لك بمجرد الجلوس في ظل حائط، فكل شيء هنا محجوز، مستولى عليه بالصلافة والرشوة والعنف!

بعض الذين لديهم حصة من الثلج يجلبها لهم حارس متعهد، يستبدلون الثلج بالماء، وحين يتعذر عليهم ذلك يتركون الثلج في أوان تحت الشمس يذوب ليشربونه! أبدأ صباحي بان اخبئ، خلسة بين طيات فراشي ما كنت قد أقتصدته من ماء داخل

قنينة صغيرة، لا تزيد محتوياتها، في أفضل الظروف على قدحين، وحين أتأكد أن لا أحد تنبه الى عملي الخطير هذا (!!) حينها فقط أغادر القاعة مطمئناً، حاملاً قنينة بلاستك سعة لترين، كنت قد حصلت عليها، وكأني قد حصلت على ثروة كبيرة من سجين أطلق سراحه، ربطتها من عنقها بخيط متين، ورحت أأرجحها فارغة بوجوه من أجزم أن لديهم ماء وفيراً، لكنهم في كل الأوقات يشيحون وجوههم عني، غير أن هذا لا يفقدني الأمل، من أنني سوف أحصل، في الأخير على رجل حقيقي لم تجرده بعد محن الأيام السود من بقايا شهامة، يملأ القنينة وهو يبتسم! سخرية مريرة، كوميديا سوداء، أن يشحذ سجين من بلاد، ما بين النهرين، الماء! هل سمعتم بشحاذ ماء في حياتكم؟

عند التعداد المسائي ليوم قائظ شاهدت شيخاً في الثمانين من عمره، يبكي أمام مراقب القاطع من العطش، فيهرع (الدب) باشارة من المراقب ويأتيه بنصف كوب من الماء، يشربه جرعة واحدة ويده ترتعش، ثم يمسح دموعه، ويأخذ مكانه في الطابور وكأن شيئاً لم يكن!

البدو وحدهم يبدون في مشهد العطش المروع الذي يدور من حولهم، وكأن الأمر لا يعنيهم على الاطلاق، أنهم بسبب فقدانهم الماء منذ الطفولة، أحسبهم يشعرون كما هي حال إبلهم بالخوف لمرآه، يجلسون بتجاعيدهم المبكرة من جراء فقدان الماء المزمن وتعرضهم على الدوام للشمس ورياح السهوب الحارة، يفترشون كما لو أنهم عند مرابعهم، البطانيات القذرة عند ساحات القواطع، يلفّون السجاير باصابع مثل أغصان يابسة، يتحدثون مع بعضهم عن الذئاب، وأسواق السعودية والكويت، وتعدد الزيجات، وتكاثر الأباعر والأغنام، وتربية الخيول، أن كوب من الماء، يمكن أن يكفي الواحد منهم نهاراً كاملاً!

أبناء الأرياف والقصبات شتت شملهم شحة الماء، فانقطعت أحاديثهم المطوّلة التي في معظمها تدور عن ذكريات الحرب المجنونة التي خاضوها لثماني سنوات مكفنّة بالدم والدخان والعويل، وعن رفاق مقاتلين ماتوا بين أيديهم في الخناق أو ساحات الوغى، وآخرين وقعوا في الأسر من دون أن يكون بمقدورهم أن يفعلوا شيئاً من أجلهم، نسوا ذكرياتهم وانصرفوا يتقاتلون فيما بينهم من أجل الحصول على الماء وتخزينه، في حين يجلس أبناء المدن كالثعالب أمام أجهزة التلفاز، ناقلين بذلك العادات الذميمة التي ورثوها عن آبائهم وأمهاتهم، مدمني التحديق في هذا الجهاز الوضيع، الذي أتى

على البقية الباقية من وعي الناس، اذ حولهم الى ما يشبه نسخ الكاربون لا تحفظ غير أسماء الممثلين والممثلات في المسلسلات المصرية اليومية، وأسماء المطربين والمطربات الذين جاءت أغانيهم انعكاسا طبيعيا، لواقع سياسي اجتماعي اقتصادي بليد سخيف ومنحط! يضاف الى ذلك أسماء لا عبي كرة القدم في العالم... الأميركي العملاق (جون لوجي بيرد) لم يكن يدور في عقله أن اختراعه العظيم هذا، سيصل الى أيدي سفهاء العرب ليسهم في سفاهاتهم على نحو أكبر، من خلال برامج خطط لها سياسيون، ونفذها اعلاميون كلاهما بدرجة أمي وعميل وشيطان ودجاجة خنثية!!.
ألوبُ قلقاً، إذ أوشكت عملية تطوافي كشحاذ ماء على الانتهاء، من دون أن أنجح في مسعاي، توقفت ألتقط أنفاسي المبعثرة أمام تلفاز في أحد القواطع، يعرض شريطاً سياحياً عن جزر (الهاواي) الربّانية، كان ما يذبحني من الوريد الى الوريد ليس منظر تجمعات الفتيات الخلاسيات ببشراتهن المحمصة الشبيهة بجنيات من حليب وكاكاو وهن يستحمن بالمايوهات الملونة الشفافة، على الشطآن الزرق المفتوحة، وليس منظر الموائد المقامة تحت المظلات المنصوبة على امتداد شريط مائي مغطى بالرمل والحصا حيث تطرطش مزبدة المياه على الحافات الصخرية، وليس زوارق النزهة لسواح محظوظين وهي تمخر الخلجان الفيروزية بسرعات عالية، تسحب خلفها متزلجين ومتزلجات، تحجبهم، لحظات عن البصر جبالٌ من الموج المزيد، قبل أن يفلتوا عتلات التزلج فقد اقتربوا من الشاطئ، وهم في غمرة من النشوة العارمة، والفرح الحقيقي، والشعور بالسعادة، كل هذا على جماليته وشفافيته وانسانيته ليس هو ما أطمح اليه، لأن ما يشد على لوزة بلعومي التي أحسها وقد جفَّ اللعاب بسبب العطش، فحوّلها الى حصاة، هو مجرد كوب ماء، نعم. كوب ماء، ليس من القناني الأنيقة التي على الموائد– أنا واقعي، أعرف أن هناك بشرا، وهنا بقر– كوب ماء من هذا المسطح المائي الشاسع، كوب ماء مالح، مج، لا يهم، فيه طين، وديدان وأشنات وطحالب، لا يهم، أقسم: لا يهم!!

أجزم أن قضية (الطف) المعروفة لم تكن لتأخذ حجمها المأساوي الكبير، لو لم يقترن مقتل الحسين بن علي (ع) والمقاتلين من أسرته وأنصاره، بحرمانهم من الماء أولاً، فقد أمر الخليفة الأموي، الدعي ابن الدعية، ممثلاً بواليه على الكوفة عبيد الله بن زياد وقائد جنده، أمر بقطع الماء عنهم، ثم أتوا عليهم واحداً واحداً، بالنبال والرماح والسيوف، ومن هنا جاءت دراماتيكية عملية القتل تلك بوصفها عملية اغتيال سياسي، بكل ما في الاغتيال السياسي من جُبن ووضاعة وهمجية وسفالة!

حين أطلق سراحي، علمت أن ما كان ينقله الزائرون لنا عن مسألة انقطاع الماء في مدنهم أيضاً، حقيقة بعد أن كنا نعتبرها نوعا من العزاء يمكن أن يمدنا بالصبر، اذ رأيت وسمعت أحياء سكنية واسعة ينقطع عنها الماء ساعات عدة في اليوم، أما من اضطرهم سوء الطالع وسكنوا ما يسمى بالعمارات السكنية، فهم أما يشحذون الماء من اصحاب الدور القريبة، او يمتحونه من الأنهار والسواقي، مضافاً الى ذلك أنقطاع التيار الكهربائي على نحو ثابت، وفق جداول تفتقت عنها عقلية زمرة المافيا، أعلنتها ونشرتها على الملأ، وتشددت في تطبيقها!

اذن، قضية قطع الماء عن السجناء والمدنيين على حدٍ سواء، انما هي بمثابة عقوبة جماعية كتلك التي اخترعها اول الأمر عقل فاشي مصاب بهستريا كره الناس، عممت في البداية على الجنود، حيث تساوى في العقوبة، عقوبة الزحف كالجراء على البطون، او الجلوس تحت الشمس المحرقة مددا طوالا، أو الهرولة البلهاء ساعتين أو أكثر، تساوى المشاغب الذي أفسد (قدسية!) الانضباط العسكري، مع من كان من الجنود مطيعاً كنعجة!. إن نظرية (الصراع من أجل البقاء) التي دافع عن صحتها وصدقيتها في حفظ النوع، بعض الفلاسفة وعلماء الاجتماع، وعمموها على الانسان والحيوان وبعض النباتات على حد سواء، كدافع غريزي غامض، تتجلى أركانها البغيضة بوضوح في مجتمع السجن، اذ ليس معيباً او لا أخلاقياً إن رأيتهم يلتهمون كالبهائم، طعامهم على فقره أو دسامته، وقد أعطوا ظهورهم لسجين يعرفون تماماً أنه جائع، وليس هناك من يأتي لزيارته من ذويه، وتمتد ببعضهم الخِسّة والطبع الحيواني فتجدهم يصدون في صفاقة سجيناً مريضاً جاءهم متوسلاً من أجل قدح ماء، وقد خبأوا الكثير منه تحت أسرتهم!

بلاد ما بين النهرين..

أرض وادي الرافدين..

وطن النهرين العظيمين..

شعب دجلة والفرات ،

من دون ماء!!

بعض النشرات العالمية نقلت خبراً مفاده:

[انقلاب شاحنة كبيرة، قريباً من محافظة الأنبار،

محملة بصناديق المياه المستوردة، من فرنسا، لحساب

النظام الحاكم في بغداد..]

الفصل السابع عشر

العائد من أفواه الضواري

منذ يومين وأنا منصرف لبيع ما يمكن بيعه من حوائجي وأمتعتي الشخصية، وتحويل أثمانها الى علب سجاير أسبين، رحتُ أوزعها بسخاء غريب على طبيعتي الميّالة الى تقنين النفقات، على كل من أتوخى منه مساعدة ما في انجاز أوراق اطلاق سراحي الذي سيحين موعده غداً، إذا ما جرت الأمور على ما هي عليه حتى الآن- نعم. غداً فقد استطعت على ما يبدو عبور بحر الظُلمات، من دون أن ألقى حتفي، مثلما كنتُ أتوقع، ويتوقع الكثيرون!

وحتى يأتي صباح يوم غد كان عليّ أن أمضي الساعات المتبقيات، باقل ما يمكن من المناكدات.

منحتُ نزيلاً شبه عارٍ بنطلوناً مستعملاً، وأعطيت آخر قدراً صغيراً، وثالثاً قنينة البلاستك التي طالما أعانتني على شحذ الماء!

ونحن بانتظار موعد النوم، أخبرني أحد السجناء بان عليّ أن أتحوط لطلبات شرطة السجن الذين سيأتون غداً لاستلامي، واصطحابي حتى بوابة السجن الرئيسة، أقلقني الأمر اذ صرفت معظم نقودي، فلم يكن أمامي من حلٍ غير أن أبيع فراشي، وهذا ما حصل!

عند الصباح جاء شرطيان! إستلماني ونزيلاً آخر.. في الخارج كان ضوء تموز قاسياً، فصنعت من يدي مظلة لعينيَّ المتعبتين.

خمسة سجناء أنا أحدهم مجموع الذين تم اطلاق سراحنا في ذلك اليوم المبارك.. معاونية شرطة السجن أودعتنا في غرفة قذرة وضيعة، شأن غرف التوقيف في العراق كافة، قلت لأحد أفراد الشرطة.

- لماذا لا تتكرمون علينا وتدعونا نجلس تحت الفيء- وأومأت لشجرة وسط باحة البناية- فقد أكل منا القمل والبعوض والعطش سنينا عديدة؟ حدق بي بنظرة وحشية، وكست وجهه الكلبي الدهشة، فتراجعت وقد خشيت أن يركلني بحذائه المترب، أو يبصق في وجهي!

طال انتظارنا وخشينا أن ينتهي الدوام الرسمي من دون أن يأتي المعاون فيعيدوننا، من جديد كل الى سجنه، وإن بصيغة أمانة!

أخيراً جاء المعاون، لكنه انشغل أكثر من ساعة في مهاتفات سخيفة ارتفع خلالها ضحكه، ثم تناول الشاي، واستقبل ضيوفه.

في الثانية عشرة ظهراً، أخرجونا، أوقفونا بتشكيلة الرتل، وساروا بنا باتجاه بناية الحاسبة الألكترونية، التي ستكون الفيصل فيما اذا كان أطلاق سراحنا سليماً باليوم والشهر والسنة!

خلفنا شرطيان مسلحان، ويتقدمنا مفوض يده على مسدسه، وكما توقعت إذ وجدنا ما يسمى بالحاسبة الألكترونية عاطلة! فكانت بداية الابتزاز، المفوض جاءنا متصنعاً الحزن، وقال:

- اجمعوا لهم، وإلا أعادوكم الى السجن!"

إصفرّت وجوهنا، وتصببنا عرقاً غزيراً، ومن جانبي شعرتُ بعطش شديد، فجأة جاء من أنقذ الموقف العصيب، كان واحداً منا نحن الخمسة. شاب في الخامسة والعشرين من عمره، أمضى ثلاث سنوات في السجن، التهمة: تزوير الاجازة الدورية العسكرية ثلاثة أيام، بمعنى مقابل كل يوم تزوير، سنة سجن كاملة!

أنه من عائلة ميسورة الحال، وهذا واضح من ملبسه، وصحته وخاتمهُ الذهبي الكبير ونوع السجاير التي يدخنها، إذ بادر المفوض:

"- كم يطلبون؟ عشرة آلاف تكفي!"

وتواً أشرقت أسارير وجه المفوض المجدور، أنه عثر على دجاجة تبيض ذهباً! ورأيته يضحك أول مرة، ويضع يده من دون تكلف على كتف الشاب، ويهمس:

"- وخالك؟"

"- خالي لن يقبض إلا عند الشارع العام!"

كان كلامه حاسماً، فيه انذار، مثلما فيه تهديد واضح بعدم (القبض) إن لم يسرعوا باخراجنا، أعجبني فضغطت، خلسة على ذراعه مؤيداً..

دسّ الشرطيان بوزيهما، فانتهرهما المفوض، لكنهما لم ينسحبا!

استلم المفوض العشرة آلاف وعاد مسرعاً الى مدير الحاسبة، لحظات وجاء من يسمح لنا بالدخول، فشربتُ من براد الماء ثلاثة كؤوس كبيرة، فعاد لي بعض من هدوئي وفرحي المفتقدين، وايقنت أنني سأخرج هذا اليوم من مزرعة الزقوم وتذكرتُ السندباد البحري، وكيف يجد في آخر نفق المأساة من ينقذه!

أذن، سأكون حراً في ممارسة أمور كثيرة، كأن أنام الليلة على سطح الدار، فأعد قناديل النجوم الساطعة مثلما كنت أفعل أيام الصبا.. أو أن أتسكع في الطرقات حتى ينال مني التعب، أو أن أستحم من دون منغصات، وأشرب قدَر ما يحلو لي من الماء المبرد، وأقترب من زوجتي بعد اخصاء دام تسعة شهور، وأن أحتسي الخمرة حتى الثمالة، ولعل الأمنية الأخيرة هي الأكثر أهمية وإلحاحاً!

الحاسبة عاطلة حقاً، لكنهم استخرجوا بطاقاتنا يدوياً، وختموا أوراقنا ووقعوها، فغادرنا المكان باتجاه البوابة الرئيسة للسجن، وهناك لم يطل إنتظارنا سوى بضع دقائق، بعدها وجدنا أنفسنا، كما يحدث في أفلام الخيال العلمي، نقف فجأة عند الشارع العام، ونرى السيارات والناس والنخيل وجدولاً طافحاً بالماء يخترق بستاناً قريباً، لكن حين حاولت توديع أفراد الشرطة والآخرين والالتحاق بسيارة توقفت لأشارة مني، استوقفني المفوض وصاح بيّ بنبرة ذئبية:

"- الى أين؟"

فاجأني سؤاله الشرش كاللطمة، فرددتُ عليه مرتبكاً:

"- الى البيت يا أستاذ!"

"- أي بيت؟"

وبالارتباك نفسه أجبته:

"- بيتي طبعاً!"

"- هه! عجيب هكذا ببساطة؟ أين بطاقة بصمات الأصابع؟"

كنت أتوقع كل شيء إلا أمراً يقصم الظهر كهذا، إذ اعتبرته محسوماً ذلك أنني سبق وأن راجعت مرتين مفرزة الأدلة الجنائية، التي كانت تزور السجن، مرة كل شهر لأخذ عينّات من طبعات أصابع المحكومين لاستخدامها في تعقب من يشتبه بهم لاحقاً عند اطلاق سراحهم، غير أنهم كانوا يردونني، على اعتبار أن قضيتي جنحة وليست جناية..

أخبرت المفوض بذلك وقد عادت الدنيا لتسوّد في عيني من جديد، لكنه لوّح بيديه ساخراً، اقتادونا الى مطعم يقع قبالة بوابة السجن، عبر الشارع، وهناك جلس الثلاثة وطلبوا لأنفسهم "تشريب دجاج" وهي اكلة مكلفة، لكن الشاب الذي يبدو أنهم اتفقوا أن يكون حصتهم لهذا اليوم، سارع ودفع الثمن: أربعة آلاف دينار، ثم طلب لكل واحد منهم قنينة مرطبات، واشترى ثلاث علب سجاير أسبين وضع واحدة أمام كل واحد منهم!

إغتنمت فرصة تناولهم الطعام وهم منشرحون، فاقتربت من المفوض المجدور وقد وضعت على وجهي قناعاً يبتسم، يشجعني من أن ليس بمقدورهم اعادتي الى السجن بعد مغادرته، لكن لابد أن هناك سجناً من نوع آخر لديهم، من يدري؟ وقفت خلفه وانحنيت هامساً بأذنه الشبيهة باذن الحمار:

"- ياستاذ! خالك متعب، وأطفاله بانتظاره، فاسمح له بالذهاب، وعسى الله لا يريك مكروهاً.."

كأنني بصقت في وجهه أو سكبت على رأسه ملء زنبيل كبير من الروث، ابتلع لقمته بسرعة وانتهرني بلهجة شرطي من العراق:

"- أذهب والزم مكانك، دعنا نتناول طعامنا، سنرسلك أنت وبقية المهاليس الى دائرة التحريات الجنائية، فهي وحدها لها الحق بالبت بامركم! اذهب"

ونتر يده الملطخة بالثريد بوجهي.

عدت الى مكاني في مقدمة المطعم، ابتسم الشاب بوجهي المخطوف، وضحك قائلاً:

"- يا عم، استرح فقط وسأجعل هؤلاء الكلاب يتركونكم الى حال سبيلكم".

بعد أن غسلوا أيديهم اذ كانوا قد التهموا طعامهم على طريقة القرود، ذهب الشاب اليهم، وطلب لهم شاياً، ومن مكاننا رحنا نرمقهم بحقد، ونتمنى لهم سنوات سجن طوال، ذلك أن فعلتهم الحقيرة هذه سبق ومارسوها مع كل من أطلق سراحه، وسيظلون يمارسونها لاحقاً، وكان الشاب قد دخل معهم في حديث وإن كنا لا نسمعه لكننا من السهولة تفهم مقاصد الابتزاز الرخيص فيه، ولمحت المفوض يشير نحوي نهضت واتجهت اليه، فبادرني وهو يتجشأ وينفث دخان سجارته بوجهي:

"- كم معك من النقود؟"

وفهمت أن تحايلي لن يفيد، فقلت صاغراً:

"- صدقني لا أملك أكثر من ألفين!"

"- هاتهما!"

"- ولكني أرغب بشراء قليل من الفاكهة للصغار؟"

فعوى بنبرة ساخرة:

"- يكفيهم وجهك يا استاذ!"

فتدخل الشاب:

"- أعطهم الألفين".

"- ولكن كيف أصل الى بيتي وهما كل ما أملك؟"

"- لا عليك سأعطيك مبلغ الأجرة" قال الشاب في تأثر واضح.

تلقف المفوض المبلغ متصنعاً الاستياء من ملاسنتي، فتركت المطعم مسرعاً خشية أن يستولي أحد الشرطيين على حذائي، اذ كان يطيل التحديق فيه ويهز رأسه استحساناً! أو أن يغير المفوض رأيه فيصر على حجزي، فاتني أن أذكر أن والديّ الشاب وشقيقته كانوا بانتظاره داخل سيارة نوع "سوبر" بيضاء خارج السجن. وأن منظرهم وهم يهرعون اليه يفطر الصخر إن لم يفطر السماء، وكانوا طوال هذه المسرحية القذرة ينظرون نحونا، من مكانهم داخل المطعم ويتألمون، وان ولدهم الشهم وجد من دون شك تشجيعاً منهم بمد يد العون لنا..

بقية المطلق سراحهم ظلوا داخل المطعم، شاحبي الوجوه، يرتجفون وهم في تموز اذ سمعوا ورأوا ما حصل لي مع زمرة من رجال شرطة البعث، وكيف ابتزوني أسوأ ما يكون الابتزاز، ففهموا أن السيناريو نفسه سيمر عليهم واحداً واحداً ولذا فلا عجب أن تعلّقت أبصارهم المرعوبة، مستنجدة مستغيثة بالشاب!

صعدت أول سيارة باص مرت بي، وحين تحركت مبتعدة أدرت وجهي وبصقت بقوّة باتجاه السجن، بصقات متتالية حتى يبس فمي، وكنت أرفق البصاق بالشتائم التي تعلمتها من إصلاحية البعث، وكانت غير مسموعة طبعاً، لان سكان هذه المناطق يعمل أبناؤهم في مؤسسات النظام الفاشية، وكان جمهرة الركاب يتطلعون الى وجهي ويتهامسون عن هذا (المجنون) الذي أوقف لغطهم وجعلهم يبتسمون؟

من مكاني داخل الباص العتيق أحدق بالأحياء السكنية وكأني غادرتها منذ تسعة

أعوام، وربما تسعة قرون، وليس تسعة شهور حسب: البيوت الواطئة الكئيبة ذاتها، الشوارع المهملة ذاتها، الباحات المليئة بالأزبال، الأطفال الحفاة تلتهم شفاههم وفتحات أنوفهم أسراب الذباب، النسوة المتشحات بالسواد، السيارات القذرة المكتظة ببشر نائمين على مساند الخشب الصلبة أو واقفين متشبثين بالعتلات، يغالبون النعاس، الأسواق القديمة الفقيرة، الأرصفة وقد أحتلها الباعة الجوالون، الذين أفترشوا الأرض جالسين كالأسرى يصطلون تحت الشمس وأمامهم بضاعتهم من سقط المتاع، مراكز الشرطة، المنظمات الحزبية مطوّقة بالرفاق المستنفرين على الدوام، الجوامع التي لا تفتح أبوابها الا عند أوقات الصلاة فقط، حيث القائمون عليها يأبون أن تكون مأوى لجائع او غريب أو مشرّد، الرعاة يتجولون مع قطعانهم من الخراف والماعز والحمير حيثما شاءوا، والويل لمن يصدهم، وبين فينة وأخرى تمرق كالطلقة بسيارتنا السلحفاة سيارة حديثة، هي من دون شك لواحد من خنازير الحصار!

توقفت السيارة عند تقاطع مروري بانتظار الاشارة الخضراء، فامتلأ بصري بلافتات سود مسمّرة على جدران البنايات المحيطة بالساحة، تنعى موتاها الذين حتى وان هم أمسوا في قبضة الفناء المبرم، لكنهم لن يتخلوا أبداً عن ألقابهم، وأسماء عشائرهم، والوظائف التي كانوا يحتلونها، فتذكرت أني حين توافيني المنية، فليس هناك من سيرفع لافتة تنعاني، ذلك لأنني ببساطة رجل أحرق وثائق انتمائه العشائري، فشعرت بالرضا لحسنتي الوحيدة هذه! جذبتْ انتباهي لافتة كبيرة تخفق بها الرياح، مربوطة الى عمودين، وقرأت بالأصفر الفاقع والأحرف الكبيرة وخط الرقعة: [تنعي عشيرة البو... فقيدها الراحل العقيد الركن، عضو المكتب العسكري للحزب، الرفيق... التكريتي، أثر مرض عضال لم يمهله طويلاً..]

إبتسمت في تشفٍ، وقد تحررت سحنتي المنطفئة من بعض أساها، وهمست في نشوة حرى: يالسطوة الموت العظيمة! عقيد، وأركان حروب، رفيق، وعضو المكتب العسكري، وتكريتي أيضاً.. كل هذه الرتب والألقاب، وكل ما كانت لديه، من دون شك من سطوة وأوسمه ونياشين وقصور ومزارع وسيارات ومصالح تجارية وعبيد وعشيقات مشتراة أو بالأكراه لكن لم يكن بمقدورها مجتمعة، أن تمنع العادل عزرائيل حين تقدم مسرعاً ونفخ على ذبالة الغطرسة هذه!؟

شعرت ببعض العزاء، وخفَّ ما أنا عليه من رعب، أشعلت سجارتي ورحت أدخن

مبتسماً مسروراً، اذ انبثقت من جديد فكرة تحقيق حلمي الجليل المتمثل بالهرب، وباسرع وقت ممكن وغير ممكن، من هذا المستنقع الآسن الذي أرهقني كثيراً الخوض فيه كل هذه السنوات العجاف[1].

عند تقاطع العامرية هبطت من الباص، تواريت خلف كشك على الرصيف عزلني عن أنظار المارة، خلعت حذائي وأخرجت النقود المتبقية التي خبأتها، بناءً على نصيحة أحد السجناء، داخله جيداً..

درت في السوق، الأسعار مرتفعة، دفعت أكثر من أربعة آلاف دينار مقابل كيلو غرام برتقال، ومثله طماطم، وآخر بطاطا، وعلبة سجاير محلية، وخَمس من بيض المائدة.

المحلات والطرقات والوجوه التي كنت قد فارقتها منذ تسعة شهور، هي هي لا بل يبدو لي أنها قد أزدات في معاناتها، الناس أكثر توتراً، المحلات شبه خاوية، أصحابها شبه عاطلين، يجلسون عند الأبواب يهرشون شَعر رؤوسهم ويتثاءبون.. نسوة ثلاث يدرن في السوق من دون أن يجرؤن على شراء شيءٍ ما لأُسرهنَّ، فتذكرت كيف وصفت اوضاع الزوجة الاقتصادية وقد أطبق حصار الرعيان على الشعب، في مقطع من قصيدة نثر، نشرتها صحيفة الثورة، فأثارت لغطاً في حينها:

[عادت من السوق

وقد ملأت أكياسها

بالحسرات!]

سائق التاكسي يتحدث في رعب:

زعمي! الأسعار نار، والناس حايره بأمرها، تف على الأمريكان وأعوانهم" أهمس في سري [بومه! يا امريكان، يا صهاينه! طلي أما قرأت عمود الصحفي، غازي العياش، الذي نشره على الصفحة الأخيرة لجريدة الجمهورية، تحت زاويته الأسبوعية (في القلب) إذ صرّح على نحو غير مسبوق في شجاعته ووطنيته، صائحاً: [الحصار على الشعب داخلي، أكثر منه خارجي!] فوصموه بالعميل الألماني، والمرتشي، والمروّج لفتيات الدعارة في مجلة كان يصدرها من بيروت، في الستينيات، ثم طردوه من عمله، ولم

(١) الكاتب غادر العراق فعلاً بعد خروجه بخمسة شهور ولم يعد إلا بعد أن تأكد من إنهيار نظام الرعيان، وإلقاء القبض على ازلامه جميعاً.

يطل الأمر إذ وجد مقتولاً في ظروف غامضة، في شقته!!

ولأنني قررت أن لا أدخل في سلام أو كلام مع من لم يزرني في السجن، لذا فقد قطعت السوق من دون أن أرفع يدي بالتحية لأحد، بما في ذلك حلاقي الذي ينهمك كعادته على الزبون ويثرثر في أذنه، وكذلك صاحب المقهى العبوس، ودلال العقارات الذي يقع مكتبه الفخم عند الزاوية المؤدية الى زقاق داري، وكنت أتحاشى عيون المارة!

ومثلما عاد "سانتياغو" من رحلة صيده البحرية المشؤومة، حيث انتزعت عنوة منه اسماك القرش الهائجة أمله العظيم، عدتُ وقد تركت هناك، في كوكب المسرات الملعون أيماني القديم الساذج، القائل بامكانية تخلي الانسان عن قرديته الوضيعة، أذ اكتشفت بالتجربة، إن الفاصل الحضاري بين الغابة والمدينة، شبه وهمي، له سُمك ورق التواليت!!

أوقفت السيارة عند أول محل يبيع المشروبات الكحولية، طالعتني الرفوف مثقلة بالقناني الضاحكة في وجهي، المتسائلة في عجب: أشو طالت غيبتك يحمد علينا!؟

أبتعتُ قنينة كاملة من نوع (عرق العصرية الخاص) ذي النخلة الوارفة الخضراء المحملة بعذوق الرطب الفاخر!

كان سائق التاكسي، وهو رجل في الخمسين، أمضى ثلاثين عاماً منها. جندياً في الثكنات الخائسة كما فهمتُ من هذيانه، ينظر نحوي بامتعاض، وكنت من جانبي أبتسم وأردد وأنا أدخل السيارة [آآآه! وأخيراً إلتقينا مجدداً أيتها العزيزة.. أعدك ما دمتُ حياً لن نفترق بعد اليوم!!] وضربت بخفة ومرح القنينة بكفي، ورفعتها الى شفتيّ، فازاد السائق سرعة السيارة علامة على أستيائه من (زنديق، ابيّض شعر رأسه، ولا يريد أن يفعل شيئاً مفيداً لآخرته!)

ما أن أنعطفت يميناً ودخلت الى الزقاق (٥٩ من محلة (856) حي الجهاد، حيث يقع مسكني المستأجر، حتى طالعني الشارع طافحاً بالمياه الآسنة، سرت حذراً بمحاذاة البيوت، وأنقذني أن أصحاب الدور، رصفوا الطابوق بين الرصيف والرصيف المقابل له، فعبرت بحمولتي وانا أنقل قدميّ خشية، أن اسقط على وجهي فيضحك مني أطفال الشارع الذين راحوا ينظرون لي مندهشين من غيابي الطويل! وقد تجرأ أحدهم اذ قال مرحباً:

" أبا سامر! سلامات!"

"- شكراً يا وردا"

وكانوا قد وقفوا في أماكنهم ولم يهربوا هذه المرة كعادتهم حين كانوا يرونني أفتح باب البيت الخارجي، وأدعوهم لدفع سيارتي التي تهرأت بطاريتها!

ثم، وكما يحدث في أفلام الخيال العلمي، أو حكايات ألف ليلة وليلة، وجدت نفسي أقف داخل ما كان اسمه بيتي، قبل رحلتي الى المجهول، عدت فقد سددت الفاتورة كاملة، كما أراد قاضي جنح محكمة البياع، وانتابني شعور مباغت أن هذا البيت يعود لشخص آخر غيري، فلا الآثاث أثاثي، ولا الصور المعلّقة على حيطان غرفتي وقد علاها التراب ومخاط العناكب، هي الصور التي كانت قد أثارتني فاشتريتها، أو اقتطعتها من المجلات، ولا الكتب التي بحثت عنها كثيراً حتى اذا ما اقتنيتها. عكفت على قراءتها بشوق وهوس وافتتان، ما عدت أتذكر شيئاً عن ماذا كانت تتحدث، ولا أساليب كتابتها، فضلاً عن أسماء مؤلفيها من عباقرة الفكر، بل حتى الروايات وكتب المذكرات والرحلات التي كنت مفتوناً بها، فوضعتها قريباً من سريري، لأقرأ فيها متى أشاء مثل: أنشودة المطر، دروب الحرّية، البابكية، الطريق الى غريكو، خريف البطريرك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، الوضع البشري، عشرة أيام هزت العالم، مدن لا مرئية، ليون الأفريقي، بُناة العصر الذري، ملحمة جلجامش، مذكرات نيرودا، حتى هذه الكتب القريبة الى ميولي النفسية، والتي هي الآن تعاني الاهمال والهجران، أشحتُ بوجهي عنها بشيء من الغضب الدفين!

وقبل أن أنظف جسدي المغطى بالبثور والأطيان، وقبل أن أستبدل ملابسي المبقعة بدم القمل وقيح الجرب والدمامل، وقبل أن أقص أظفاري التي تعود الى انسان العصر الحجري، وقبل أن أفرّش أسناني التي أمست بلون تفل القهوة، وقبل أن أذهب الى المطبخ علّني أجد طعاماً، لا شك أن الذي أعدهُ كان يفكر بالانسان، وليس بالكلاب، مثلما هي الحال في السجن، وقبل أن أشرب ماءً من حنفية غير حنفيات المراحيض، وقبل أن أجلس على مكان لم تتناوب الجلوس عليه آلاف المؤخرات المسلوخة جراء حشرة الجرب، أو حشرة الكالوسة، او دويبة القمل، وشتى أمراض الحساسية الجلدية المؤذية، وقبل أن أجلو حنجرتي من التعابير والمفردات البذيئة التي إلتصقت بها من دون ارادتي، قبل كل هذا وغيره الكثير، صعدت الى سطح الدار هناك خلعت ملابسي، كوّمتها وأضرمتُ النار فيها، بقملها وكالوسها وجراثيمها ورائحتها المخزية، ثم

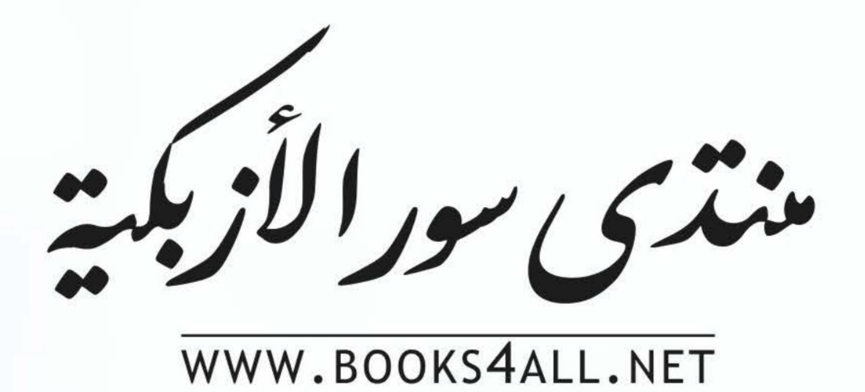
هبطت عارياً مثل اجدادي الأُوَل في الغابات، وفتحت الدش الى أقصاه.

لا أدري كم مرًّ عليٌّ من الزمان، وأنا أعيد، المرة تلو الأخرى، تغطية جسدي برغوة الصابون، كل ذلك من دون أن أشعر بالنظافة المرتجاة، فابكي، ويبكي من حولي أطفالي!!

تاريخ كتابة النص

من ١٠/٨/١٩٩٧ الى ٨/٥/١٩٩٩

الفهرست


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET